أسماء الله الحسنى

آثارها وأسرارها

تأليف

الدكتور محمد بكر إسماعيل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

جامعة الأزهر

الناشر

دار المنار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ شارع حسن العدوى ميدان الحسين - القاهرة

ص .ب ٦١ هليوبوليس ت : ٥٩١٥٠٨٥

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ...

فقد كنت أتمنى من أعماق قلبى أن أكتب فى شرح أسماء الله الحسنى كتاباً يُجلِّي لطلاب العلم معانيها ، ويكشف لهم عن شىء من أسرارها وآثارها فى قلوب الذاكرين ، ولكنى كنت أتهيب أن أسبح فى بحارها وأنا قاصر الهمة قليل العلم والعمل ، كثير الشواغل بأمور الدنيا وشئون الأهل والولد .

وهذه الشواغل من أشد العقبات التى تعوق أصحاب الهمم العالية عن طلب العلم ومدارسته والكتابة فيه ، فكيف بمثلى !

وظلت هذه الرغبة تراودنى وتلح علىَّ ، وأنا أرجئ تحقيقها للأسباب التى ذكرتها حتى طلب منى رئيس تحرير مجلة "المجاهد" أن أكتب عدة مقالات فى أسماء الله الحسنى ، فكان هذا الطلب حافزاً لى على تحقيق هذه الرغبة ، فاستخرت الله عز وجل فشرح صدرى ، فمضيت أكتب مستعيناً بالله تبارك وتعالى وأنا على وجل واستحياء فكان لى نعم المعين ، فجاء كتابى هذا على نمط أسلوب المقال فى التحليل والتعليل من غير تعقيد ولا حشو ولا تطويل ، يخلو تماماً من أقوال الفلاسفة والمناطقة وعلماء الكلام ؛ لعدم جدواها، وإيثاراً

لسلامة المعتقد من الشبهات التى يثيرونها ولا يستطيعون دفعها بسهولة ويسر فى كثير من الأحيان .

هذا، وقد نظرت فى أسماء الله الحسنى فى ضوء الكتاب والسنة أولاً نظرة المفسر الذى يتتبع معانى الألفاظ ومراميها فى معاجمها اللغوية ومظانها فى كتب المفسرين والمحدِّثين والفقهاء وعلماء الأصول .

ثم وجدتنى فى حاجة ماسة إلى أن أرجع إلى كتب الصوفية المعتدلين لعلى أجد فيها ما يعيننى على فهم أسرارها المنطوية فى آثارها .

وذلك لأن هؤلاء يعرفون بكثرة الذكر ما لا يعرفه الغافلون ، ويرون ببصائرهم ما لا يراه الناظرون بأبصارهم .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يذكرنا ما نسينا ويعلمنا ما جهلنا ، ويرزقنا الإخلاص فى القول والعمل إنه سميع قريب مجيب .

أ.د / محمد بكر إسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الله "جل جلاله"

كان الله ولا شيء معه، فخلق الخلق وهو مستغن بذاته عنهم، وعرفهم ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، فعرفوه بها، وشهدوا له بالأحدية والربوبية بلسان الحال والمقال، وأسلموا له طوعا وكرها، فكان كل مخلوق آية تدل عليه، وتعبر عن كمال ذاته وصفاته وعدله المطلق في جميع أفعاله.

وقد خص الله نفسه ــ جل شأنه ــ بالأسماء الحسنى، فعلمنا منها ما شاء أن يعلمنا، واستأثر بما شاء أن يستأثر بعلمه دون خلقه لأمر لا يعلمه إلا هو، وأمرنا أن ندعوه بكل أسمائه الحسنى، ما علمناه منها، وما لم نعلمه، فقال جل شأنه في سورة الأعراف: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١).

وقال تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢).

وقد روى أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: "اللهم، إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ــ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، وشفاء صدري، وذهاب همي وغمي".

فهذا الحديث يدل على أن لله أسماء كثيرة لا يحصيها إلا هو جل شأنه، وقد عرفنا من القرآن والسنة شيئا منها، وهي في جملتها ترد إلى تسعة وتسعين اسما كلها كمال وجمال وجلال.

---

(١) الآية: ١٨٠.

(٢) الآية: ١١٠.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة". أي: من عرف قدرها، وتتبع آثارها، وتعرف على أسرارها، ودعا الله بها في سره وعلانيته ــ دخل الجنة إن شاء الله تعالى، أي: كان ذلك سببا في دخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة برحمة الله عز وجل لا بالعمل، وإنما العمل يقرب العبد من رحمة الله، ويجعله أهلا لها.

وقد جاء سرد هذه الأسماء الحسنى في حديث ضعيف رواه الترمذي في جامعه، والراجح: أنه من عَدِّ الراوي لا من كلام النبي ﷺ، هذا ما ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري.

وقد قال الخطابي رحمه الله: في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد، وليس فيه منع ما عداها من الزيادة، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء تداولاً وأبينها معانٍ.

وفي أسماء الله الحسنى إشراقات روحية، لا يتعرض لها إلا من دعا الله بها، وتشرب قلبه حبها، وأخذ حظه منها، وجعلها قدوته في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، حتى يكون بها عبدا ربانيا يَفِرُّ بها من الكفر إلى الإسلام، ومن المعصية إلى الطاعة، ويفر بها منه إليه، فيقول بقلبه ولسانه ما كان يقوله الرسول ﷺ في دعائه: "اللهم، إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك" (١).

وكل اسم من أسماء الله الحسنى له مذاق خاص، لا يعرفه إلا من لهج به لسانه، وآمن به قلبه إيمانا يصل به إلى اليقين بأن الله هو الغني، الذي لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأن الأمر كله إليه، إلى آخر ما هنالك مما تدل عليه أسماؤه الحسنى.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه.

فالله عز وجل علم على الذات العلية، جامع لكل صفات الكمال والجلال والجمال، دال بمعناه على كل أصول التوحيد الخالص، نطقت به الفطرة، واستقر في ضمير الوجود كله، فكانت عبادته ديناً دَانَ به جميع الخلق طوعا وكرها.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [١].

وحتى أولئك الذين حق عليهم العذاب بكفرهم لا تخلو قلوبهم من ذكره والاعتراف بحوله وقوته وعظيم قدرته.

قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [٢].

فهم ما كفروا به إلا ظلماً وعلواً، وتقليداً للآباء والأجداد، واتباعاً لأهوائهم وشياطينهم، ومع ذلك يلجئون إليه عند استفحال الخطر، واشتداد الكرب، ولا يلجئون إلى تلك الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دونه، بل يضرعون إليه وحده ويسألونه النجاة لأنفسهم وأموالهم؛ لعلمهم بالفطرة أنه هو القادر على ذلك وحده.

اقرأ قول الله تبارك وتعالى عن هؤلاء الكفرة: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ [٣].

فالله جل جلاله إله لا يجحده جاحد، وإن تظاهر بأنه يجحده فإنه لا يقوى على ذلك أبداً؛ لأن الله في كيانه كله، في عقله وقلبه، وروحه وحسه، فما من

---

(١) آية: ١٨.

(٢) آية: ٨٧.

(٣) يونس: ٢٢.

إنسان إلا ويعلم أن له إلها قد خلقه، وأنه مفتقر إليه بالضرورة، وأنه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الخضوع إليه، فهو شعور نابع من ضميره، لا يستطيع أن يكبته في أعماق نفسه، ولكن قد يخطئ الطريق إليه فيعبد غيره محكوما بعوائق تعوقه عن الرجوع لفطرته التي فطره الله عليها.

ولهذا أرسل الله الرسل لهداية الناس إلى خالقهم، الذي آمنوا به، وشهدوا له بالوحدانية وهم في أصلاب آبائهم، كما دل عليه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1].

وقد جمع الله الدين كله في هذا الاسم الأعظم فقال في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [2].

والأمر في هذه الآية له ﷺ بالأصالة، ولأمته بالتبعية.

والعبد مأمور بالفرار إليه سبحانه بقلبه وروحه وعقله وحسه، مأمور بالفرار منه إليه؛ إذ لا منجاة منه إلا إليه.

والفرار إليه رأس التوحيد وملاك الأمر الذي جُمع عليه الأولون والآخرون.

إن الوجود كله بدون الواحد جل شأنه أصفار لا تدل على شيء، فإذا كان صفر منها على يمين الواحد صار به عشراً، وصار الصفران به مائة، وهكذا فتأمل هذا المثل، ولا يغب عن ذهنك فحواه.

ولقد ترجم هذا المعنى شاعر من الشعراء الموحدين فقال:

اللهَ قُلْ وَذَرِ الوُجُودَ وَمَا حَوَى   إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَـالِ
فالكُـلُّ دُونَ اللهِ إِنْ حَقَّقْتَـهُ   عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ

---

(١) آية: ١٧٢.

(٢) آية: ٩١.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: الفقراء فقرا كاملا إلى الله عز وجل ليس لكم من تضرعون إليه سواه، وهو الغني غنى كاملا عن خلقه جميعا، وما خلقهم لحاجة إليهم ولكن خلقهم لعبادته وتقديسه والتسبيح بحمده، فتلك وظيفتهم يؤدونها لخالقهم طوعا وكرها.

يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢).

ويقول الله عز وجل في سورة الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٣).

وبعد: فإن الشعور بوجود الله ليس أمراً يتكلف له الإنسان شيئا، فهو شعور بالواقع الذي يُعَدُّ تجاهله باطلا، إن العبودية لازمة لجميع الخلق، والألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار.

وذكر العبد لله ليس استحضاراً لغائب، ولكنه حضور للعبد من غيبته، وإفاقته من غفلته.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (٤) معكم بعلمه ومعكم بقدرته، ومعكم بتدبيره وحكمته.

فلا ملجأ لكم منه إلا إليه، فاذكروه يذكركم، واشكروه يزدكم، وتوبوا إليه يتب عليكم، وفروا إليه تأمنوا على أنفسكم من البوار وعذاب النار.

---

(١) آية: ١٥.

(٢) آية: ١٤.

(٣) الآيات: ٥٦ـــ ٥٨.

(٤) الحديد: ٤.

يقول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١).

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وآتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

(١) الأنعام: ٨٢.

لا إله إلا هو

بدأنا في المقال السابق سلسلة غراء نرجو أن يعمنا الله بنورها، ويتحفنا بمعرفة شيء من أسرارها، ويفتح علينا فيها فتوح العارفين به، والسالكين طريقه، والسائرين على هداه.

هذه السلسلة يدل عليها عنوانها، وقد عرفنا في المقال السابق أن أسماء الله كلها حسنى، بعضها أنزله في كتابه وأجراه على ألسنة رسله، وبعضها استأثر بعلمه، وجعله في مكنون الغيب عنده.

وعرفنا أن لفظ الجلالة هو الاسم الأعظم، وهو العلم على الذات العلية، ترد إليه جميع الأسماء والصفات، فيه تتجلى آيات الجلال والكمال والجمال، وبنوره استنارت جميع الكائنات، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وفي هذا المقال نتناول بالشرح والتحليل كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" فنقول وبالله التوفيق:

هذه هي أعظم كلمة نطقت بها الألسنة، وشهدت بها القلوب واستوعبتها البصائر النيرة، وأقرت بها العقول المبصرة، واستعذبتها الآذان الواعية، وخشعت لها الجوارح كلها، وامتلأت بجلالها وجمالها الضمائر اليقظة والقلوب المطمئنة.

هي أفضل ما قاله قائل في الماضي والحاضر، وأفضل ما يقوله قائل في المستقبل العاجل والآجل.

قال رسول الله ﷺ: "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله".

نعم هي أفضل كلمة قالها النبيون؛ لأنها هي أصل دعوتهم، وخلاصة رسالتهم، فما من نبي ولا رسول إلا قال لقومه: "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره".

إنها الكلمة التي شهد الله بها لنفسه، وشهدت بها ملائكته، وشهد بها أولو العلم من خلقه، فكانت أعظم شهادة في الأرض والسماء، وأكبر شهادة يعتز بها المؤمنون في الدنيا والآخرة.

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فمن شهد أنه لا إله إلا الله، فقد وافق الله عز وجل في شهادته لنفسه، ووافق الملائكة في شهادتهم لربهم بالوحدانية، وكان من أولي العلم؛ لأن الإقرار بالوحدانية لا يبنى إلا على العلم، ولا تتأتى ثماره إلا بالعلم؛ ولهذا قال الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (٢).

إن الإيمان بلا علم كشجرة بلا ثمر، أو كجسد بلا روح.

ومن هنا سمي أهل التوحيد العارفين بالله، فهم قد وحدوه بعد أن عرفوه.

ولذلك يجب علينا أن نتعلم أصول التوحيد وشروطه وآدابه وقواعده وضوابطه ـ حتى تكون شهادتنا له بالتوحيد شهادة صحيحة؛ فالشهادة لا تصح إلا بعلم، فكيف يشهد لله بالوحدانية من لم يعرف أن الله متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

وأول ما يجب أن نعرفه معنى هذه الكلمة التي ندندن حولها في هذا المقال.

أقول لمن لم يعرف معناها: هي كلمة سلبت الألوهية عن غير الله تعالى، وأثبتتها له جل شأنه.

فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق سواه.

---

(١) آية: ١٨.

(٢) محمد: ١٩.

فهناك معبودات كثيرة قد عبدت من دون الله، لكنها معبودات باطلة، وعابدوها ضالون؛ لأنهم أعطوا الحق لغير أهله، فعبدوا المخلوق وكفروا بالخالق، فكان على كل من أراد النجاة لنفسه من عذاب الله في الدنيا والآخرة أن يفرده بالعبادة، ويخصه بالخضوع والطاعة؛ فهو الجدير بأن يعبد، وغيره عدم لا وجود له معه جل شأنه، وإن تصورنا وجوده.

اللهَ قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتاداً بلوغ كمـالِ
فالكـلُّ دون الله إن حققتَـه   عدمٌ على التفصيل والإجمالِ

وهذه الكلمة لها مسميات كثيرة باعتبار أوصافها وآثارها وثمراتها، سنذكر هنا شيئا منها:

١ـ هي كلمة التوحيد: سميت بذلك لأن قائلها يعترف لله بالوحدانية الخالصة التي لا تقبل الشركة بحال، والتي من قالها مؤمناً بها فقد كُتب في زمرة العابدين؛ إذ التوحيد معناه: إفراد الله بالعبادة.

والعبادة معناها: الخضوع والطاعة، من قولهم طريق مُعَبَّد، أي ممهد ومذلل.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي ﴾ أي إلا ليوحدون.

وأصول التوحيد مجموعة في سورة الإخلاص: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

فالأحدية: هي التي لا قبلها شيء ولا بعدها شيء.

والصمدية: هي السيادة والقداسة والغنى، فهو الذي تصمد إليه الخلائق، أي: ترفع إليه حاجاتها بوصفه سيدها والمستغني بذاته عنها، وهي مفتقرة إليه بالضرورة. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

وقد جمع الله أصول التوحيد أيضا في آية الكرسي، فهي عشر جمل تامة، كل جملة منها تعبر عن أصل، أو أصلين أو أكثر من أصول التوحيد الخالص.

---

(١) فاطر: ١٥.

٢ـ ولهذا تسمى هذه الكلمة بكلمة "الإخلاص"؛ لأن العبد يخلص فيها دينه لله، ويُمحض قلبه للإيمان به من غير شك ولا شبهة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (١).

٣ـ وتسمى كلمة الإسلام؛ لأن الإنسان إذا لم ينطق بها لا يعد مسلماً، بل ولا يعد مسلماً إذا لم يعمل بمقتضاها.

ومقتضاها: تأدية الفرائض، والقيام بالواجبات الشرعية كلها بقدر طاقته البشرية.

٤ـ وتسمى كلمة التقوى؛ لأن المسلم إذا قالها بقلبه ولسانه، وعمل بمقتضاها - كانت له وقاية من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ فهي الكلمة التي تنبعث من قلب خالص مليء بالخوف والرجاء، فتحمل قائلها على ترك المعاصي: كبيرها وصغيرها، فيصبح عبداً ربانيا يلزم الكلمة وتلزمه، فلا يفارقها، ولا تفارقه، فتكون هي زاده وروحه وريحانه.

قال تعالى في سورة الفتح: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ مكنهم من الإقرار بها على أكمل وجه والعمل بمقتضاها على أحسن ما يكون العمل.

فلما لَزموها أُلزموها، أي: مكنها من قلوبهم غاية التمكين، وكانوا أحق بها لما لزموها قولاً وعملاً.

وبهذه الكلمة كانوا أهل الله وخاصته، وكان الله لهم أهلاً؛ فقد أحبهم وأحبوه.

---

(١) الزمر: ٢ -٣.

(٢) آية: ٢٦.

قال تعالى في سورة المدثر: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [١].

٥ــ وتسمى بالكلمة الطيبة؛ فقد ضرب الله لها المثل بالشجرة الطيبة فقال في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٢].

وهي حقاً كالشجرة الطيبة أصلها ثابت في أعمق أعماق الأرض وفرعها ضارب في جو السماء لا يُعرَفُ لآخره مدى، كما أنه لا يعرف لأصلها في الأرض منتهى، وأكلها دائم وظلها لا ينقطع.

فما أشبه هذه الكلمة بتلك الشجرة، أو قل ما أشبه هذه الشجرة بهذه الكلمة.

إنها كلمة ضاربة بجذورها في أعماق قلوب المؤمنين، متصلة فروعها بسماء ربها، ملأ نورها كيان القلوب ومكنونات الضمائر والسرائر، فبها يسمع المؤمن وبها يبصر، وبها يفهم وبها يعقل، وبها يحيا وبها يموت، وبها يبعث، وبها يدخل الجنة مع الأبرار.

٦ــ وتسمى هذه الكلمة كلمة السواء؛ لأنها تسوي بين الخلق جميعاً في العبودية، وتجعلهم أمام العدل الإلهي كأسنان المشط.

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٣].

اللهم أحينا بها، وأمتنا عليها، وابعثنا بها آمنين غير خزايا ولا محزونين يا رب العالمين.

---

(١) آية: ٥٦.

(٢) آية: ٢٤.

(٣) الآية: ٦٤.

الرحمن الرحيم

الرحمن: هو العلم الثاني للذات العلية، يفيض بالرحمة التي لا مُنْتَهَى لها، والتي وسعت كل شيء؛ فهو صاحب الرحمة العامة للخلق جميعاً، لا غنى لأي كائن عنها.

وهو اسم يدل على أن الله عز وجل مستغن بذاته عن سائر خلقه؛ فهم مفتقرون إليه بالضرورة يرجون رحمته ويخافون عذابه.

والمؤمن عندما يلهج في دعائه بهذا الاسم تغمره سحائب الرحمة، فلا يجد نفسه بمعزل عنها، بل يجد نفسه مدفوعاً بشوق وشغف إلى تكرار هذا الاسم في دعائه مرة بعد مرة، وهو في كل مرة يجد له حلاوة لم يجدها في اسم آخر من أسمائه الحسنى، مع أنها جميعاً في مستوى واحد في الجلال والجمال والكمال.

ومن خصائص هذا الاسم أنه لا يجوز لأحد أن يُلَقِّبَ نفسه به فيقول: أنا رحمن، وإن جاز له أن يُلَقِّبَ نفسه بغيره من الأسماء، فيزعم أنه رحيم أو كريم أو حليم.

وقد تجرأ واحد من أجلاف العرب وأسوئهم طبعاً فلقب نفسه بالرحمن، وهو مسيلمة الكذاب، فشاع بين الأعراب أنه رحمن اليمامة، فلقبه النبي ﷺ بالكذاب، ولعنه الله وطرده من رحمته وقتله بأيدي المسلمين في اليمامة شر قتلة.

يُروى أن الرسول ﷺ كان يتهجد ليلة ويقول في دعائه: "يا رحمن" فسمعه رجل من المشركين فقال: ما بال محمد يدعو رحمن اليمامة، يعني: مسيلمة الكذاب، فنزل قول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [١].

ومن عجيب أمر المشركين أنهم كانوا يقولون على سبيل العناد والتحدي: يا محمد، نحن لا نعرف الرحمن فلماذا تذكره؟!

---

(١) الآية: ١١٠.

مع أنهم يعرفون هذا الاسم، وقد ورد ذكره في أشعارهم وأخبارهم، كما هو منصوص عليه في كتب الأدب والأثر.

وقد سجل الله إنكارهم لهذا الاسم العظيم وتبجحهم بذلك في سورة الفرقان فقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ (١).

ولقد واسى الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام في سورة الرعد مواساة قد اطمأن لها قلبه وسكنت بها جوارحه، فقال جل شأنه: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٢).

ولعظمة هذا الاسم وصف الله نفسه به في كتابه العزيز للدلالة على الكبرياء والهيبة والسلطان والتدبير، فقال فيما قال: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٣).

ولو قال سبحانه: "الله على العرش استوى" ما كان في ذلك من بأس؛ ولكن ذكر الرحمن هنا يشعر بأن الله عز وجل قد استوى على العرش استواءً يليق بذاته لا نعلمه، فكان استواؤه عليه مصدر رحمة يطمع فيها من آمن به وعرفه بنعوته الكمالية.

قال علماء التفسير: لفظ الجلالة يشعر بالجلال والمهابة، والرحمن يشعر بالسرور والحبور، ويبعث في النفوس الأمل والرجاء، ويطرد عنها شبح اليأس والقنوط.

ولو تتبعت ـــ أيها الأخ القارئ ـــ كتاب الله تبارك وتعالى لوجدت أن الله عز وجل إذا أراد أن يخيف عباده ليرتدعوا عن غيهم ـــ عبر بلفظ الجلالة، كما

---

(١) الآية: ٦٠.
(٢) الآية: ٣٠.
(٣) طه: ٥.

في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ (١).

وإذا أراد جل شأنه أن يُدني عباده من حضرة قدسه، ويعطيهم عظيم الرجاء في رحمته ــ عبر باسم الرحمن، كما في قوله تعالى من سـورة مريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٢) أي: حباً وقرباً في الدنيا والآخرة.

وقد جاء في البخاري وغيره من كتب السنن أن الله عز وجل إذا أحب عبداً نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

أما الرحيم فهو الاسم الثالث من أسماء الذات العلية، يقترن بالاسم الثاني ويلازمه، ويدل على ما يدل عليه مع فارق يسير بينهما.

فالرحمن: صاحب الرحمة العامة في الدنيا لجميع الخلق، وصاحب الرحمة العامة بالمؤمنين يوم القيامة.

والرحيم: هو صاحب الرحمة العامة بالمؤمنين وغيرهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) أي: رحيم بجميع الناس على اختلاف أجناسهم ومللهم.

أما في الآخرة فهو رحيم بالمؤمنين دون غيرهم، كما قال تعالى في سورة الأحزاب:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٤).

---

(١) الآية: ٢.

(٢) الآية: ٩٦.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) الآية: ٤٣.

والفرق الذي بينهما أن (الرحمن) اسم ذات بمعنى: أنه رحمن في ذاته. والرحيم صفة فعل يتعلق بالعباد؛ فهو يرحمهم برحمته، ويتولاهم بعنايته، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

والرحمة في اللغة: هي رقة في القلب تستلزم التفضيل والإحسان، وهذا لمعنى جائز في حق العباد محال في حق الله تعالى؛ لعدم مماثلته للحوادث، فلابد أن تحمل على معنى يليق به جل جلاله، فيقال: معناها في حقه تبارك وتعالى: إيصال الخير والثواب إلى من يشاء من عباده ودفع الشر عنهم على وفق ما تقتضيه رحمته، وهي الغاية من الرحمة، كما هو واضح مما ذكرنا.

وأسماء الله تبارك وتعالى كما يقول العلامة أبو السعود في تفسيره: (تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادئ التي هي انفعالات) بمعنى: أن صفات الله المتعلقة بأفعال العباد هي صفات أفعال وليست صفات انفعال.

فرحمة الله معناها: إحسانه وإنعامه، وحلم الله معناه: عفوه ورضاه، وغضب الله معناه: الطرد من رحمته ونحو ذلك.

وهذا باب واسع من أبواب العلم بالله سيأتينا منه علم غزير في أسمائه الحسنى لو تتبعناها بعقل واعٍ وقلب محب مُفْعَمٍ بالإيمان.

وقال بعض المفسرين في الفرق بين هذين الاسمين العظيمين:

الرحمن: هو مصدر الرحمة، أي: منه تنشق ومنه تستمد.

والرحيم: هو منشئ الرحمة ومسديها لمن يشاء من عباده، وهو قريب مما تقدم.

ولعلك تسأل ـ أيها الأخ القارئ ـ عن السر في تقديم الرحمن على الرحيم في البسملة وفي أواخر سورة الحشر وغيرها. فأقول: إن تقديم الرحمن على الرحيم وذكره بعد لفظ الجلالة مباشرة للتخفيف من وطأة المهابة التي تحصل للعبد من ذكر هذا الاسم الأعظم، الذي ترد إليه جميع الأسماء والصفات، وجاء اسم الرحيم بعد اسم الرحمن؛ ليبعث في المؤمنين الرجاء والطمع في

رحمته، فإنه إذا سمع العبد: "بسم الله الرحمن" ربما وقع في نفسه أنه رحمن في ذاته لا تتعدى رحمته إلى مخلوقاته، فإذا سمع "اسم الرحيم" وقر في قلبه أن الرحمة كما هي من أوصاف ذاته هي من أوصاف أفعاله، فيطمع فيها ويرتجيها، ويتعرض لها بالطاعة والانقياد.

ومن هنا نعلم أن هذين الاسمين رفيقان متلازمان، ولكن لكل منهما معنى قائم به، وليس بينهما ترادف من جميع الوجوه؛ إذ لا يوجد في القرآن الكريم كلمتان مترادفتان تؤكد إحداهما الأخرى دون أن يكون لكل منهما معنى يخصها، يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله.

بل لا يوجد في اللغة العربية كلها لفظان مترادفان ليس لواحد منهما معنى يخصه كما يقرر أبو هلال العسكري في كتابه النفيس: الفروق اللغوية.

فالمعاني تتشابه وتتحد في بعض الوجوه، فيظن من لا خبرة له بمجاري اللغة أن اللفظين بمعنى واحد، فإذا ما أنعم النظر، واستعان بكتب اللغة والأثر لاح له ما بين اللفظين من فرق أو فروق.

وأسماء الله الحسنى فيها أسماء متشابهة في معانيها ولكنها مختلفة في مراميها ومجاليها على أي وجه من وجوه المخالفة، كالقادر والقدير، والعالم والعليم، والبارئ والمصور، إلى آخر ما هنالك من الأسماء المتشابهة في معانيها.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا أن بين صفات الله تفاوتاً في القوة والضعف، فنقول: عَلاّم أبلغ من عليم، وعليم أبلغ من عالم. وغفار أبلغ من غفور، وغفور أبلغ من غافر...؛ فصفاته جل شأنه كلها في منتهى الكمال، لكن كل اسم من أسمائه الحسنى له وقع خاص في النفوس المؤمنة في كل حال من حالاتها، وفي كل وقت من أوقاتها.

فالمؤمن أحياناً يجد حلاوة في ذكر الله باسم الرحمن؛ فيذكره به، فإذا انتقل إلى الرحيم، وذكر الله به ـ وجد لذكره في قلبه حلاوة، وهكذا قل في سائر أسمائه وصفاته.

وهي حلاوة تتنوع ولا تختلف، وتلتقي كل أنواعها عند مقام الحب، وهو مقام عظيم يجد فيه المؤمن الروح والريحان، والأنس والأمان، والرضا التام بقضاء الله وقدره.

وبعد: فإن هذين الاسمين مع العَلَم الأول على الذات العلية ـ مفتاح لكل خير، ومغلاق لكل شر؛ لهذا افتتح الله كتابه العزيز بالبسملة، وجعلها فاتحة لكل سورة من سوره؛ ليشعر كل مؤمن بأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه، ولا خير يأتيه إلا من قِبَلِه، ولا يدفع الشر عنه أحدٌ سواه.

ونحن عندما نقرأ البسملة ونرددها في صلواتنا وخلواتنا، وفي جميع أمورنا التي نرجو من وراءها الخير والبركة ـ نشعر من أعماق قلوبنا أننا أمام آية قامت بها السماوات والأرض، واعتدل بها نظام الكون كله، وتعلق بها التدبير المحكم والميزان الدقيق، الذي وضعه الله في ملكه وملكوته؛ فكل شيء ببسم الله كان، وكل شيء ببسم الله يكون.

ولهذا قال رسول الله ﷺ "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر" أي منزوع البركة، لا خير فيه.

اللهم، بارك لنا فيما أعطيت، وزدنا مما أحسنت به علينا وأوليت، وادفع عنا السوء بما شئت وكيف شئت، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير.

الملك القدوس

الملك: اسم جامع لأسمائه الحسنى وعَلَمٌ عليها، فالله هو الملك، والملك هو الله على الحقيقة؛ فهو المتفرد بالملك والملكوت، والقوة والجبروت، والعزة والسلطان، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، له الأمر كله في الدنيا والآخرة، نواصي العباد بيديه، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه، وجودهم منه ومردهم إليه.

هو الكامل في ذاته، الواحد في صفاته، الجميل في أفعاله، وهو الغني عن سائر خلقه وهم الفقراء إليه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، ملكه لا يزول، ولا يعتريه نقص بحال، ولا يفتقر إلى زيادة من أي وجه من الوجوه.

وهذا هو المُلْكُ على الحقيقة، وصاحبه هو المَلِكُ الحق ذو الجلال والجمال والمهابة والكمال.

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (١).

إن الله جل شأنه قد وصف نفسه في هذه الآية بالملك مشيراً إلى سعته في ألفاظ قليلة جامعة لمعاني كثيرة لا تنحصر من التنزيه والتقديس.

والتنزيه والتقديس كلاهما من واجبات الذات العلية ليس لملك من ملوك الدنيا فيهما نقير ولا قطمير؛ فقد وصف الله نفسه بالملك الحق.

وهذا الوصف دلالته قاضية على أن ما سواه من الملوك ليس ملكا على الحقيقة، بل هو مستخلف من قبله جل شأنه على ما جعله تحت يديه من ملك، وهو زائل عنه لا محالة، إما بنزعه منه أو بموته عنه.

وكل وَصْفٍ وَصَفَ الله به نفسه في هذه الآية دال على ما سواه، مشير إلى حقيقته ومعناه، فلفظ الجلالة علم على الذات العلية المتصفة بجميع الأوصاف

---

(١) المؤمنون: ١١٦.

الجمالية، والملك اسم جامع لهذه الأوصاف العلية وعلم على الذات الأحدية، كما سبق بيانه.

والحق وصف يقوم عند الإطلاق مقام الذات، فالله هو الحق، والحق هو الله كما عرفت.

"ولا إله إلا الله" : معناها لا ملك إلا الله ولا بمعبود بحق إلا الله.

والرب: هو الله عند الإطلاق أو عند إضافته إلى العرش، أو إلى السموات والأرض، أو إلى العالمين، أو إلى الأرباب إذا قلت: رب الأرباب، فهو الله وحده لا شريك له، ومن هذا يتبين لك أن هذه الآية جمعت في إيجاز معجز جميع الأوصاف الكمالية للذات العلية.

والملك اسم يهز المشاعر الوجدانية ويأخذ بمجامع القلوب الزكية، ويملك على كل نفس مؤمنة حسها وأنسها، فتخشع لعظمته وتخضع لجبروته، وتلوذ بجلاله وعزته، وتطمع في كرمه ورحمته، فتتقلب هذه النفوس المؤمنة بين الخوف والرجاء ضارعة مستجيبة، صابرة شاكرة، راضية مستسلمة؛ لعلمها أن الملك الحق مع جبروته رحيم بعباده، ومع استغنائه عنهم لطيف بهم، يحسن إليهم ويحمد لهم حُسن أفعالهم وأقوالهم.

فملكه لم يقم على الغطرسة والاستبداد والبطش، ولكن قام على الرحمة والعدل.

ينتقم ممن طغى وتكبر وأساء وظلم، ويرحم من تواضع وعفا وأحسن وأصلح.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (١).

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٢).

---

(١) البروج: ١٢ــ ١٦.

(٢) الحجر: ٤٩ــ ٥٠.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١).

إنه من عرف معرفة يقينية أنه الملك الذي بيده ملكوت كل شيء استغنى به عن سائر مخلوقاته، فلا يلجأ إلا إليه، ولا يعتمد في قضاء حوائجه إلا عليه، وبذلك يتحرر من عبودية الشيطان والهوى، ويملك نفسه فلا يجعلها تميل إلى الشر أو تُقَصِّرْ في واجب.

وقد علَّمَ الله عباده في كتابه العزيز دعاءً يلهجون به في كل زمان ومكان وعند اشتداد الكرب وشدة البأس ومسيس الحاجة، فقال جل شأنه وعز جاهه: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢).

والأمر في الآية للنبي ﷺ بوجه خاص ولأمته بوجه عام، وقد أمر الله في هذه الآية بالثناء عليه والاعتراف بعظيم قدرته وتفرده بالملك والإنعام، وإسناد الأمر إليه في كل حال، والاعتماد عليه في جميع الأمور، والثقة بفضله على الدوام، ثم يدعو المسلم بعد ذلك بما يشاء.

فقد تضمنت الآيتين ما ينبغي أن يقوم به العبد قبل أن يدعو ربه بما شاء؛ لأن الدعاء المقبول هو الذي يتقدمه حمد وثناء على الله تبارك وتعالى، وخير الدعاء ما تضمنته هاتان الآيتان من دلائل قدرته، فهو يؤتي الملك من يشاء، فعلى المسلم أن يقول: اللهم، اجعل لي في الآخرة ملكاً كبيراً مع المتقين في الجنة؛ فإن الله عز وجل سيؤتي عباده الأبرار في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) آل عمران: ٢٦ـــ ٢٧.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (١).

وهو ينزع الملك ممن يشاء، فعلى المسلم أن يقول: اللهم، لا تسلط علَّي من ينزع مني ملكي أو يعتدي على حقي.

وهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، فعلى المسلم أن يسأل الله العزة في ظل الإيمان واليقين، ويستعيذ به من الذل والهوان، وأن يمنحه الخير في الدنيا والسعادة في الآخرة، وأن يرزقه رزقاً حسناً يغنيه عن سؤال الناس؛ فهو الملك الذي يجيب من دعاه، ويعين من استعان به؛ بشرط أن يكون مؤمناً به مستجيباً له موقنا بالإجابة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢).

والله عز وجل قريب من عباده قرب إجابة لا قرب مكان، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف عنه السوء ويرفع عنه البلاء بما شاء وكيف شاء؛ إنه على ما يشاء قدير، وهو بالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو الملك الذي تعالى على عرشه وعز في سلطانه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء بحمده: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٣).

نواصي العباد بيده، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه ــ كما ذكرنا ــ فمن رضي بقضائه وقدره وصبر على حكمه وشكره على نعمائه ــ فله الرضا منه في الدنيا والآخرة.

ومن سخط فله السخط منه في الدنيا والآخرة.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الطبراني وغيره: "يا عبد إن لم ترض بقضائي، فاخرج من تحت سمائي، والتمس لك ربًّا سواي"

---

(١) الإنسان: ٢٠.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الأنعام: ١٨.

وفي حديث آخر للطبراني أيضاً: "من رضي فله الرضا مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني"

ومن شأن الملك أن يطاع فلا يعصى، فمن أطاعه أحبه، ومن عصاه أبغضه، ومن ذكره قَرَّبَهُ، ومن غفل عن ذكره أبعده.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١).

أما القدوس فهو اسم جمع كل صفات الجلال والكمال والجمال أيضاً، وكل أسماء الله الحسنى تدور مع هذه الأمور الثلاثة، فهو جل شأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو جميل يحب الجمال، وهو الجليل الذي عظم شأنه وعز جاهه وتنزه عن الشريك والمثيل؛ فلا ند له، ولا منازع له في ملكه.

قال الإمام الغزالي في التعريف بهذا الاسم العظيم: القدوس هو المنزه عن كل وصف يدركه حس أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير. هذا ما جاء في كتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لهذا الإمام الجليل.

وهو كما ترى قول رفيع الشأن، يصدر من راسخ في العلم قد أنار الله بصيرته وألهمه رشده وآتاه تقواه.

وأقول: إن القدوس اسم يشعرنا نحن المسلمين حين يجري على ألسنتنا بالمهابة التي لا حدود لها، فهو الذي يقدسه جميع الخلق بلا استثناء، ويسبحون بحمده طوعاً وكرهاً بلا انتهاء.

---

(١) طه: ١١١ ــ ١١٤.

يقول الله عز وجل: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُون تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [١].

فالقداسة: هي النبل والطهر، والنزاهة والمهابة والعظمة، فمن قدس ربه فقد أحسن الثناء عليه بما هو أهله، وأدى شكر الله عليه بقدر طاقته البشرية لا بقدر ما يستحقه الله عز وجل؛ فإن الله تبارك وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٢].

أي: ما عَرَفُوهُ حق معرفته، ولا عبدوه حق عبادته، ولا شكروه حق شكره، فإذا أراد المسلم أن يشكر الله عز وجل فلا سبيل له إلى ذلك إلا بالاعتراف له بالعجز عن شكره؛ فالاعتراف بالعجز عن الشكر عين الشكر، كما قال الراسخون في العلم.

وبعد: فإن المسلم إذا أنعم النظر في أسماء الله الحسنى وأحصاها، وذكر الله بها، وعمل بما في ثناياها من أحكام وإرشادات ــ كان عبداً ربانياً ملهماً مجاب الدعوة، إذا توكل عليه كفاه، وإذا سأله أعطاه.

اللهم، يا ملك يا قدوس مَلِّكْنَا نفوسنا، ونَزِّهها عن الشرك، وطَهِّرْهَا من كل ما يعكر صفو الإيمان ويكدِّر جلوة اليقين.

سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فعز شأنك وقوي سلطانك، ولا إله غيرك.

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) الحج: ٧٤.

السلام المؤمن

الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فذاته أحدية صمدية سرمدية، وصفاته كمالية كمال الذات، وأفعاله كلها مبنية على العلم التام، والإرادة النافذة والقدرة المنجزة، والعدالة المطلقة، والحكمة البالغة.

وأسماؤه كلها ـــ ما علمناه وما لم نعلمه ـــ غاية في الحسن والجلال والجمال.

وقد سبق أن طُفنا خاشعين حول خمسة أسماء منها: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس.

ونطوف في هذا المقال بمشيئة الله تعالى حول اسمين عظيمين من أسمائه الحسنى الدالة على أوصافه العلا، وهما: "السلام المؤمن".

أما السلام فهو السلام بكل ما حوته هذه الكلمة من معنى، فهو جل شأنه سلام في ذاته، أي: قد سلمت ذاته من كل ما لا يليق بذاته.

فقد سلمت ذاته من الشريك والشبيه والمثيل، والتغيير والعجز والجهل وغير ذلك مما يتنافى مع الأوصاف، التي وصف نفسه بها في محكم التنزيل، وعلى لسان نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وسلمت صفاته من النقص والتناقض والاختلاف، فهي أوصاف كلها كمالية ـــ كما أشرنا ـــ مؤتلفة كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً.

وهذا هو السر في عدّها وسردها من غير حرف العطف في قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١].

---

(١) الآيات: ٢٢ ـــ ٢٤.

والسلام هو من سلم له ملكه في الدنيا والآخرة، يتصرف فيه كيف شاء وفق علمه وإرادته وقدرته، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فهو جل شأنه متصرف في عباده تصرفاً تاماً ليس لهم معه شأن ولا إرادة ولا تدبير يخالف تدبيره.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

والسلام هو مَن منه يُستمد السلام، وإليه يعود السلام، وبه يسود السلام، وفيه يجاهد المسلمون من أجل نشر السلام وإعلاء كلمة الإسلام.

قال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ يأمر عباده أن يعملوا صالحاً من أجل دار السلام، وهي الجنة، فدعوته سبحانه إلى دار السلام هي ترغيب عباده فيها، وحضهم على طلبها بكل أعمال البر؛ فإنهم لو طلبوها لوجدوها؛ فهذا وعد الله ولن يخلف الله الميعاد.

والسلام: هو الذي يسلم من لاذ به واعتصم بحبله المتين، واستعاذ به من الشيطان الرجيم، واستمد منه العون على عدوه الذي يتربص به ويريد أن ينال منه، وتوكل عليه في أمره كله، ووثق بفضله في جميع أحواله.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾(٣).

---

(١) الآيات: ٢٦، ٢٧.

(٢) الآية: ٢٥.

(٣) الطلاق: ٣.

أي: من يتق الله يسلّمه من الآفات، ويؤمنّه من المخاوف، ويوسع عليه في الرزق، ويكفيه شر ما أهمه وأغمه وأحزنه؛ لأنه سلام يحب السلام، ويعطي السلام لمن طلبه منه ودعا إليه بحب وإخلاص.

إن المؤمن يشعر ببرد هذا الاسم على قلبه ويحس في أعماق نفسه بلمسات العطف والحنان والرحمة ممن بيده الأمر كله، ويجد من هذا الاسم العظيم منطلقاً إلى تحقيق السلام بينه وبين الناس، وبين الناس بعضهم مع بعض؛ لأن السلام أعظم ما يبتغيه المؤمن ويحرص عليه؛ فهو أصل من أعظم أصول النعم، بل هو الذي تتحقق به جميع النعم؛ فالنعم كلها في الأمن والرخاء، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: أعطاهم جميع ما يحتاجون إليه. وكل ما يحتاجون إليه تبع للأمن والرخاء.

وكما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

فهذه الآية تدل على أن منبع النعم هو الأمن والرخاء، والرخاء متوقف على وجود الأمن، ووجود الأمن متوقف على حصول الإيمان، فالأمن مشتق من الإيمان، كما هو معروف.

وإذا غضب الله على قوم سلبهم نعمة الأمن ونعمة الرخاء، والله لا يريد بعباده إلا الخير، وذلك إذا ما آمنوا واتقوا وأصلحوا ذات بينهم، وأخلصوا له في القول والعمل، وتعاونوا على البر والتقوى، وعملوا جاهدين على تعمير الأرض لا على تدميرها وتشويه معالمها، وإفساد الموازين التي وضعها الله؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة العدل بين الناس جميعاً على أساس من الحب، والتفاهم والمساواة والاحترام المتبادل بين الخاصة والعامة، وبين الأقوياء

---

(١) النحل: ١١٢.

والضعفاء، بحيث ينال كل امرئ ما هو في حاجة إليه ويَصِلُ إلى ما يبتغيه دون حرب أو خصام. هكذا يريد الله بعباده في جميع أحكامه وتعاليمه.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [١].

أما الاسم الثاني وهو المؤمن، فإن له معنيين على الجملة:

الأول: أنه الذي آمن بنفسه وشهد بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، واكتفى بشهادته لنفسه عن شهادة سائر خلقه، فقال جل شأنه: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢].

وقد بدأ في الآية بشهادته للدلالة على أنها الأصل، ولبيان أنه مستغن بها عن سائر خلقه.

وثنى بشهادة ملائكته فكانت شهادتهم عبادة له وتنزيهاً لذاته، وهي شهادة مبنية على شهادة الله تعالى، ثم ذكر شهادة العلماء العارفين به فكانت شهادتهم له بالوحدانية من باب تحصيل الحاصل، ومن باب التعبد الذي كلفهم به.

والمعنى الثاني: هو المؤمن الذي يؤمن للمؤمنين. أعني: يستجيب لهم إذا استجابوا له.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [٣] أي: إن استجابوا لي استجبت لهم، وإن آمنوا بي آمنت لهم؛ فهناك فرق بين قولنا: آمنت به، وآمنت له. فالأول بمعنى: صدقت به، والثاني بمعنى: استجبت له، فهو يؤمن بنفسه، بمعنى يشهد لها ويصدق نفسه جل شأنه فلا يحتاج في إثبات أحديته إلى شهادة غيره، كما أشرنا من قبل، ويؤمن للمؤمنين بمعنى: يستجيب لهم كما ذكرت.

---

(١) فصلت: ٣٣ـــ ٣٤.

(٢) آل عمران: ١٨.

(٣) البقرة: ١٨٦.

وهناك معنى ثالث لهذا الاسم العظيم، وهو أنه يؤمّن عباده مما يخافون، ويدخل السكينة في قلوبهم في الدنيا، ويؤمّنهم من الفزع الأكبر يوم القيامة.

يقال آمنه ــ بالمد ــ يُؤْمِنه ــ بكسر الميم ــ ويؤمّنه ــ بتشديد الميم ــ: يدخل في قلبه الأمان. هكذا قال علماء اللغة، وهم أبصر الناس بالمعاني.

ولعلك قد لاحظت أن هذين الاسمين العظيمين مؤتلفان في المعنى متفقان في تنزيه الذات العلية عن كل ما لا يليق بها.

وعليك ــ أيها القارئ الكريم ــ أن تعاود النظر في معنى السلام ومعنى المؤمن؛ لكي تستخلص الفرق بين معاني كل منهما من حيث اللغة لا من حيث إنهما وصفان للذات العلية، أو اسمان من أسمائه الحسنى؛ فإن أسماء الله الحسنى كلها وصف واحد لإله واحد، وكل اسم يدل على ما يدل عليه الآخر من إثبات الكمال لله جل وعلا.

وبعد: فإن العبد إذا ذكر الله بهذين الاسمين معاً ــ تَعَلَّمَ كيف تكون المسالمة والموادعة مع الناس ــ كل الناس ــ وعرف أن الأمن في الإيمان، وأن الإيمان مع صاحبه في الجنة، وأدرك بعقله الواعي أن المسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، وأن المؤمن هو من سلم قلبه من الشرك ونزعات الهوى ونزغات الشيطان.

والله عز وجل قدوة لخلقه في كثير من أسمائه وصفاته وأفعاله، فليجعل العبد لنفسه حظًّا من أسمائه وصفاته وأفعاله بحسب ما يليق به ويستقيم مع حاله في العبودية، مستعيناً في ذلك بخالقه ومولاه، قائلاً في سره ونجواه: اللهم يا سلام، سلِّمْنَا من الشرك وأهله، وادفع عنا هواجس النفس ووساوس الشيطان، وحقق لنا يا مؤمن الأمن في دنيانا وآخرتنا،وانشر الإسلام والأمان في ربوع بلادنا وسائر بلاد الإسلام إنك على كل شيء قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير.

المهيمن "جل جلاله"

كل اسم من أسماء الله الحسنى له معنى يخصه، تكشف عنه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمعاجم اللغوية.

ووراء هذا المعنى مقصد يهدف إليه، وسر يكشف عنه.

ووراء هذا وذاك سر آخر لا يعلمه إلا الله جل شأنه، فمهما أوتينا من العلم لن نحصي ثناء عليه كما أثنى على نفسه، فهو الذي تقدست أسماؤه وصفاته عن أن يحيط بأسرار جلالها وجمالها عقل ولا قلب، ولكن كل مؤمن يرى من جلالها وجمالها بنور بصيرته على قدر إيمانه ويقينه.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

أي: لا تحيط بكنه ذاته وصفاته وأفعاله الأبصار الحسية ــ وهي العيون ــ ولا الأبصار المعنوية ــ وهي البصائر الملهمة والعقول النيرة ــ؛ لأنه اللطيف الذي احتجب عن سائر خلقه بقوة ظهوره وشمول نوره للسماوات والأرض ومن فيهن.

ونحن في هذا المقال نعيش لحظات في ظل اسم من أسمائه الحسنى لنتعرف على عُشر معشار ذرة من معرفة معانيه ومراميه، وأسراره ولطائفه وأثاره؛ لعلنا نزداد إيماناً مع إيماننا، ونوراً على نورنا، وسكينة تحيا به قلوبنا، فنسعد في ظل هذا الاسم العظيم بالرَوْحِ والريحان.

ولا شك أن ذكر الله تبارك وتعالى هو الدواء الناجع لأمراض القلوب والأبدان، والبلسم الشافي الذي لا يغادر سقماً في النفوس.

قال رجل من كبار الصالحين: عجبتُ لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها!! قالوا: أو في الدنيا نعيم يا رجل؟!

---

(١) آية: ١٠٣.

قال: نعم، إن فيها نعيماً يعدل نعيم الجنة. قالوا: وما هو!

قال: ذكر الله.

فتعالوا بنا نعش مع ذكر الله تعالى باسمه "المهيمن" لنتعرف بقدر طاقتنا البشرية على ما يفتح الله به علينا من معانيه ومراميه، وأسراره وأثاره، وما لنا فيه من خُلق فاضل نتحلى به على ضوئه.

وقد ورد هذا الاسم في سورة الحشر ضمن أسماء كثيرة ذكرت معه في ثلاث آيات ختم الله بها هذه السورة.

قال تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وقد عشنا مع الأسماء الحسنى السابقة على هذا الاسم في مقالات سابقة فلننظر بتأمل إلى معناه في اللغة أولاً، ثم نذكر ما يترتب على هذه المعاني من الآثار وما يؤخذ منها من الأسرار.

ذكر أصحاب المعاجم اللغوية لهذا الاسم عدة معانٍ فقالوا:

أ ــ هو العلي عن جميع خلقه، المتعالي بذاته وصفاته عن كل ما لا يليق بذاته وصفاته، المترفع في أفعاله عن الظلم قليله وكثيره، ظاهره وباطنه.

وقد فهمت هذا المعنى مما ذكره القرطبي في تفسيره لقوله تعالى في الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.

قال القرطبي: أي عالياً عليها ومرتفعاً في كثرة الثواب.

وأنا أقول: بل هو عال عليها في كمال التشريع، وجمال التعبير، وروعة البيان، وغير ذلك من وجوه الإعجاز.

---

(١) الآيات: ٢٢ ــ ٢٤.

ب – وهو الرقيب على عباده، يعلم سرهم ونجواهم، ويطلع على مكنونات ضمائرهم وما تخفيه سرائرهم، فهو جل شأنه أعلم بهم من أنفسهم بأنفسهم، لا تخفى عليه من أمرهم ولا من أمر سائر المُلك خافية، لا يغفل عن شيء، ولا يشغله شيء عن شيء، وهو الحكيم الخبير الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عدداً.

يقال: هَيْمَنَ على المكان اطّلع عليه وراقبه مراقبة تامة.

ج – ومن معاني المهيمن: الشاهد الذي يبصر الأشياء على ما هي عليه، ويخبر عما شاء بصدق لا يدانيه صدق فهو الشاهد الذي لا تعتري شهادته أدنى شبهة ولا أدنى ذرة من شك.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ ومَنْ أصدقُ من اللهِ قيلاً ﴾.

وقال في السورة نفسها: ﴿ ومَنْ أصدقُ من اللهِ حديثاً ﴾.

د – والمهيمن: هو القائم على كل نفس بما كسبت، المدبر لشئون الخلق وفق حكمةٍ بالغةٍ، وإرادةٍ نافذةٍ وقدرةٍ منفذةٍ، وعلم محيط بما كان وبما يكون وبما هو كائن.

هـ – والمهيمن: هو الحفيظ الذي لا يضل ولا ينسى، ولا يُضيع أجر من أحسن عملا، ولا يغفل عمن أساء وظلم، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و – والمهيمن: هو الأمين الذي لا تضيع عنده الودائع، والذي يُوَفّي لمن وفّى له، كما قال جل شأنه: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (١).

ز – وهو المؤمّن الذي يلقي في قلوب عباده الصالحين الأمن ويشعرهم دائماً بالأمان، كما قال جل شأنه في سورة الأنعام: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢).

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) الآية: ٨٢.

يقول علماء اللغة: "مهيمن" أصله مؤيمن، فأبدلت الهمزة هاء، كما يفعل العرب في الهمزة، فيقولون في "أراق الماء": "هراق الماء" بالهاء.

وهذه المعاني كلها مرادة ومتلازمة؛ فالله عز وجل هو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، فيهدي كل كائن إلى ما يحفظه ويصلح من شأنه ويعطيه ما يحتاج إليه من رزق ورعاية ومعونة، وغير ذلك مما هو ضروري له، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه.

قال الغزالي رحمه الله في كتابه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: (وكل مشرف على كنه الأمر مسئول عنه حافظ له، فهو مهيمن عليه. والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء يرجع إلى كمال القدرة، والحفظ يرجع إلى الفعل، فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن).

وَبَعْدَ أن ذكرنا شيئا من معاني هذا الاسم المقدس ينبغي أن نعلم أن هَذا الاسم يشعرنا بالمهابة والإجلال، فلا يسعنا إلا أن نسبح بحمده ونقدس له، ونشهد بأنه الواحد الأحد، الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وأنه ليس لأحد معه شيء في تدبير هذا الملك ولا في تصريف أي أمر من الأمور إلا بإرادته؛ فالأمر أمره في العاجل والآجل.

فمن ادعى أنه مهيمن على شيء، بمعنى: أنه قائم على حفظه مدبر له بقدرته وإرادته وعلمه دون أن يستعين في ذلك بالله ــ فهو كاذب في دعواه، عاجز كل العجز عن فعل أي شيء يريد فعله.

إِذَا لَمْ يكُنْ من اللهِ عونٌ للفتى　　　فأولُ ما يَجْنِي عليــه اجْتِهَادُهُ

ونحن بوصفنا مؤمنين ينبغي علينا عندما يشعر أحدنا بأنه قادر على تحقيق أمر من الأمور، وأنه كفيل بحفظ شيء من الأشياء، وأنه يستطيع أن يعطي ويمنع، أو يضر وينفع ــ عندما يشعر بذلك يتصاغر أمام القدرة الإلهية، ويتواضع لربه الذي بيده أمره كله، ويسأله التوفيق والسداد، ولا يتمادى في

دعاويه الباطلة واغتراره بقوته واعتزازه بسلطانه أو سلطته؛ فهذا هو الإيمان في أسمى صوره وأرقى معانيه.

قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام في هداية قومه: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [1].

فالإصلاح هدف من الأهداف التي يجعلها المؤمن دائماً نصب عينيه، ويستمد من الله التوفيق في تحقيقها على النحو الذي يرضاه ربنا ويجزي به في الدنيا والآخرة، لكن طلب التوفيق من الله تعالى يحتاج منا إلى أمرين نصت عليهما الآية، وهما: التوكل والإنابة.

أما التوكل فمعناه: الاعتماد على المهيمن جل شأنه، والثقة بفضله مع الأخذ بالأسباب.

والإنابة معناها: التوبة النصوح التي لا رجوع بعدها إلى الذنب بالقصد والاختيار، وعدم الإصرار على الذنب إن وقع؛ فإن الإصرار على الذنب الصغير يصيره كبيراً.

وقد قالوا: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

وبعد: فإني أوصيك ــ أيها الأخ المسلم ــ إن عجزت عن تحقيق أمر فيه خير لك أو لغيرك فتوضأ وصل ركعتين وادعُ الله بأسمائه الحسنى، ولا سيما المذكورة في الآيات الأخيرة من سورة الحشر، فعسى الله أن يستجيب لك، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

---

(١) هود: ٨٨.

العزيز "جل جلاله"

عندما يذكر المسلم ربه باسمه "العزيز" ـ يشعر في أعماق قلبه بعزة المؤمن وقوة الإيمان، وغلبة جانب الخير على جانب الشر، ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه محاط بعناية ربه، ممنوع بقوة خالقه عن كل من يدبر له كيدا في العلانية أو يضمر له سوءاً في الخفاء.

وإذا أكثر من ذكر "العزيز" أحسّ ببرد اليقين في كيانه كله، وأدرك بثاقب فكره أنه أمام قوة قاهرة، وقدرة قادرة، وإرادة نافذة، وعلم محيط، ورحمة واسعة، ونعمة غامرة، وبالجملة أحس بأنه أمام أسماء الله الحسنى كلها تتجلى له في هذا الاسم، وتتزاحم عليه في معانيها ومراميها، ويجد في هذا الاسم جميع أوصاف الكمال والجلال والجمال.

فمن نظر إلى معنى هذا الاسم من حيث اللغة، علم أنه قد جمع ثلاثة أمور هي جماع العظمة في أسمى صورها وأجل معانيها.

فهذا الاسم العظيم، إما أن يكون مشتقاً من عَزَّ يعِزّ ـ بكسر العين ـ وإما أن يكون مشتقاً من عَزَّ يَعُزُّ ـ بضم العين ـ وإما أن يكون مشتقاً من عزَّ يَعَزُّ ـ بفتح العين ـ.

ولكل مشتق من هذه المشتقات معنى يخصه مع التقائه في زمرة أخويه.

فإن كان مشتقا من عز يعِز ـ بكسر العين ـ فمعناه: لا مثل له ولا ندّ ولا نظير. من قولهم: عز وجود الشيء في البلد، أي: ندر وجوده، أو انعدم وجوده على الإطلاق.

والمعنى الأول: وهو الندرة من خصائص الموجودات، وأما المعنى الثاني فهو الذي يليق بالله تبارك وتعالى، لكن لا يقال: انعدم وجود مثله، وإنما يقال: لا مثل له أصلا، فهذا هو التعبير الدقيق المناسب لعظمة الله تعالى وأحديته وانفراده بأوصاف الكمال المطلق.

وإن كان هذا الاسم العظيم مشتقا من عز يعُز ــ بضم العين ــ فمعناه: الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر، والقادر الذي لا قدرة لمخلوق مع قدرته.

ومنه قوله تعالى في سورة "ص": ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (١) أي: غلبني.

وتقول العرب في أمثالها: "من عزَّ بز" أي: من غلب سلب.

وإن كان هذا الاسم العظيم مشتقاً من عز يعَز ــ بفتح العين ــ فمعناه: الشديد القوي الممتنع بقوته عن سائر خلقه.

ومنه قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٢) أي: بممتنع؛ لأنه القوي القاهر فوق عباده.

ومنه أيضاً قوله تعالى في سورة "يس": ﴿ فعززنا بثالث ﴾ (٣)أي: شددنا وقوينا.

ومن نظر إلى هذا الاسم العظيم نظرة عقدية نابعة من عقيدته الصحيحة الخالية من شوائب الشرك وشبهات الجهل ونزغات الهوى ، أدرك أن هذا الاسم ينطوي على معان أخرى غير التي عرفناها من خلال النظرة اللغوية في مشتقاته.

أ ــ عرف أنه معدن العزة ومنبعها ومصبها، فمنه تنبع العزة، وإليه ترد قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (٤).

وقال جل شأنه في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥).

---

(١) آية : ٢٣ .

(٢) الآيات: ١٦ــ ١٧.

(٣) آية: ١٤ .

(٤) آية: ١٠ .

(٥) الآيات: ١٧١ــ ١٧٣.

وقال في آخر هذه السورة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

فانظر إلى الآية الأولى التي في سورة فاطر وتدبر معانيها، وحاول أن تفقه ما فيها من إشارات ترشد كل مسلم إلى ينابيع العزة وروافدها ــ فإنك تجد نفسك أمام مصدر واحد للعزة وهو الله تبارك وتعالى، فإنك لو أنعمت النظر حقا ما سعيت إلى إنسان كائناً من كان لتطلب منه ما تعتز به؛ لأنه مثلك في الافتقار إلى الله الواحد القهار.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: أنتم الكاملون في الفقر، وهو الكامل في الغنى، وهو مع استغنائه عن خلقه يحمد لهم حسن صنيعهم ويجزيهم به أحسن الجزاء.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث ــ فإنك تجد أن الله أعز عباده المرسلين بالعصمة والنصرة والمعجزات الخارقة للعادة، وأعز جنده من خيرة عباده الذين آمنوا بالرسل وجاهدوا معهم في الله حق جهاده ــ بالنصر على أعدائهم في مواطن يعز فيها النصر لقلة عددهم وعتادهم، وأجزل لهم الثواب في داري الدنيا والآخرة، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

اقرأ قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

---

(١) آية: ١٥ .

(٢) الآيات: ١٤٦ ــ ١٤٨.

فهؤلاء اعتزوا بالله فأعزهم، واعتصموا بقوته فعصمهم، واستنصروا به فنصرهم، وطلبوا منه المغفرة فغفر لهم ورزقهم ثواب الدنيا؛ فعاشوا فيها حياة طيبة، ورزقهم حسن الثواب في الآخرة فكانت لهم البشرى في الدارين، فهم الأعزاء بالله حقا، لا يدانيهم في العزة من لم يسلك مسالكهم وينهج نهجهم ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وانظر ــ هداك الله ــ إلى آخر سورة الصافات: فإنك تجد أن العزة كل العزة ملكاً خالصاً لله، فهو ربها، وهو مسديها لمن شاء من عباده: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

فإذا كان هو ربها ومسديها فلماذا نطلبها من غيره؟! أليس هذا جهل منا بموطن العزة وبمعناها وبحقيقتها وآثارها؟!

كيف نطلبها ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وليس يملك منها مثقال ذرة!!

يقول الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ في سورة الفرقان: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (٢).

وعزة الله مقرونة بالحكمة في كثير من آيات الذكر الحكيم؛ لأن العزة بالمعاني المتقدمة لا يظهر كمالها على الوجه الأكمل لأولي الألباب ــ إلا إذا رُوعي فيها الحكمة التي تفيد أن الآثار المترتبة على هذه المعاني إنما تقوم على العدل المطلق والنظام الدقيق والتدبير المحكم.

فهو عزيز غالب بالحق، وهو عزيز قوي يضع الأمور في موضعها وفق علمه المحيط وإرادته النافذة.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) الآيات: ٥٦ ــ ٥٩.

وهناك من الناس من يوصف بالعزة، فيقال: فلان عزيز، يقل وجود مثله في عصره، أو يغلب أقرانه بقوته وشدته وحجته، أو هو ممتنع بقوته وكثرة أعوانه عن عدوه وشانئيه، ولكن هذا الوصف بالنسبة لغير الله تعالى مجاز قاصر كل القصور عن المعنى الذي هو لله تعالى وحده دون سواه.

وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان ولا إلى تعليق.

والعزيز من الناس ليس هو من اعتز بنفسه وحسبه وماله وولده، ولكن العزيز من اعتَزَّ بالله وحده، وعلم علماً لا شبهة فيه أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء، لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

إن الله عز وجل قد قص علينا في كتابه قصة رجل كانت له جنتان عظيمتان، وكان كافرا لا يؤمن بالله ساعة من نهار، وكان له أخ مؤمن يحاوره في شأن الإيمان بالله واليوم الآخر فيأبى عليه ويفتخر بما لديه من مال ورجال، ويُغْريه بأن يكون على شاكلته ويجعله من خيرة رجاله، ولكن أخاه المؤمن يبذل وسعه في هدايته فما زاده ذلك إلا نفوراً، فكان عاقبة أمره خسراً، فقد أرسل الله على جنتيه حسباناً من السماء فأغرقهما وأتى على ثمارهما كلها، فوقع في قلبه الندم بعد فوات الأوان، ودارت الدائرة عليه؛ لأنه اعتز بغير الله ولم يشكره على نعمه.

اقرأ هذه القصة في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ

يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

وكم في قصص القرآن الكريم من مواقف نتعلم منها كيف تكون العزة، ومن أين نطلبها، وفيما نستعملها وفي أي شيء نبذلها.

أما كيف تكون العزة فإنها تكون بإظهار التواضع لله؛ لأن العزة ليست لأحد سواه، ولا تكون أبداً بالكفر والإعراض والتكبر والطغيان، فهي حينئذ تكون ذلاً محضاً.

قال تعالى: ﴿ بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ فالعزة التي وصف بها الكفار هي الكبر والغرور والأنفة والعناد والصدود والتحدي، وما في معنى ذلك، فهي عزة مصطنعة ليس لها من قرار.

والرجل الذي يعتز بغير الله مجرم أثيم ليس له عند الله وزن ولا عند المؤمنين.

يقول الله عز وجل في سورة البقرة عن هذا الرجل وأمثاله ممن سفه نفسه وفقد وعيه وحسه: ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١).

أما من أين نطلبها فمن الله تعالى وحده.

وأما فيما نستعملها ففي مواطن الخير والحرب والسلام، بحيث تكون الحرب لا للحرب ولكن للدفاع عن المبادئ والقيم والمثل العليا، وبحيث لا يكون السلام استسلاماً للعدو ولا خضوعاً لمطالبه الظالمة.

وأما في أي شيء نبذلها فإننا نبذلها بسخاء لمن ابتغاها من الله؛ فإننا بوصفنا خلفاء الله في الأرض قد مكننا الله منها وأعطانا من لدنه فضلاً واسعاً

---

(١) البقرة: ٢٠٤ــ ٢٠٦.

ورحمة عظيمة ــ نرى من الواجب علينا أن نعين كل مؤمن يبتغي العزة من منبعها ويصبها في مصبها ويقدرها حق قدرها.

أعزنا الله وإياكم بالإيمان الكامل واليقين الصادق والعفو الشامل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الجبار "جل جلاله"

لكل اسم من أسماء الله الحسنى وقع على القلوب المؤمنة؛ إذ يجد كل مؤمن حين يذكره بأي اسم من أسمائه الكمالية حالة من حالات التجلي والإكبار تغمر فؤاده، وتأخذ عليه زمام نفسه وملكات عقله وحسه، وتملأ كيانه بالخشية والخشوع، فلا يسعه إلا أن يكرر هذا الاسم استعذاباً لحلاوته في قلبه، واستشعاراً بحب ربه، وطلباً لقربه من حضرة قدسه.

وقد تتغير أحوال الذاكرين من حال إلى حال، وتتقلب في ساحة الجمال مرة، وفي ساحة الجلال مرة، وفي ساحة الكمال مرة.

والحالة الأخيرة: هي منتهى المقامات؛ إذ يشعر المؤمن ببرد اليقين قد ملأ شغاف قلبه، فلا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، ويصير أمره كله متعلقاً بخالقه ومولاه تعلق المفتقر إلى الغنى المقتدر. وعندئذ يكون هذا المؤمن قد وصل بروحه إلى خالقها وبارئها، واتصل بعالم الملكوت ورأى بنور الله ما لا يراه الناظرون.

فعندما يذكر العبد ربه باسم الجبار – مثلاً – يشعر بثلاث حالات متلازمة – كل حالة منها منتزعة من معنى يتضمنه هذا الاسم العظيم.

فهذا الاسم له في اللغة ثلاث معانٍ كلها مرادة لله تبارك وتعالى:

المعنى الأول: هو العظيم الذي تحار في كنه جلاله وجماله وكماله العقول، ولا تحيط بمعاني صفاته البصائر، ولا ترتقي إلى معرفة ذاته الأفهام.

الثاني: هو المصلح لأمور الخلق، والمظهر للدين الحق، والميسر لكل عسير، والجابر لكل كسير.

يقال جبر الله مصيبته بمعنى: لطف به فيها وعوضه خيراً يرضى به. ويقال في الدعاء: يا جابر كل كسير.

الثالث: هو الذي أجبر الخلق على ما أراد، وحملهم عليه طوعاً وكرهاً، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

يقال: جبره وأجبره إذا أكرهه على فعل الشيء أو على تركه.

فهو سبحانه جل شأنه الجبار في عليائه، يجير ولا يجار عليه، وهو الغالب على أمره، نواصي العباد بيده، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، وهو الجبار الذي أجبر الخلق جميعاً على تقديسه والتسبيح بحمده، وحملهم على ذلك طوعاً وكرهاً.

فمن سبحه وقدسه طوعا فهو مجبر على ذلك من حيث إنه ما وفق لذلك إلا بقدرته جل شأنه، فمنه التوفيق ومنه الأجر على ما وفق العباد إليه. والأمر كله منه وإليه.

ومن سبحه وقدسه كرهاً فهو مقهور بمشيئته وجبروته؛ لأنه الإله الذي لا معبود بحق سواه، ولا ملجأ لأحد إلا إليه.

فمهما حاول العبد أن ينسى فضل الله عليه ويجحد نعمه الظاهرة والباطنة وينصرف عن عبادته ــ فإنه لا محالة يعبده عبادة المقهور الذي لا انفكاك له عن قبضة خالقه ومالكه، بدليل أنه يلجأ إليه وحده في أوقات الشدة فلا يدعو أحدا سواه.

قال تعالى في سورة يونس: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[١].

والجبار يجبر قلوب عباده من كسر الهوى ووساوس الشيطان، ويحفظها بنوره العظيم من الآفات التي تعكر صفو الإيمان، كالحقد والحسد، والكبر والغرور، والرياء والعجب وحب الذات، وما إليها من الآفات.

---

(١) الآية: ٢٢.

فما على العباد إلا أن يضرعوا إليه رغباً ورهباً أن يسلّم قلوبهم من هذه الملمات؛ لينالوا القرب منه في الدنيا والآخرة، فالقلوب بيوت الله في أجساد عباده، وهي التي سيلقونه بها يوم الدين.

﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ لاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١).

وعلى المسلم إذا ذكر الله باسمه "الجبار" أن يتصاغر أمام عظمته وعزته وقهره وجبروته، فلا يرى لنفسه شيئا معه جل شأنه مهما كان ذا جاه وملك وسلطان؛ فالجاه جاهه، والسلطان سلطانه، وهو وحده ذو العزة والجبروت، فتبارك الله في ملكه، وتعالى على عرشه، وعز في سلطانه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء بحمده، وهو القاهر فوق عباده، نواصيهم بيده، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه.

وعليه أن يستسلم لخالقه استسلام الواثق به؛ فهو به موجود وبدونه عدم لا وجود له، أو هو بعبارة أخرى صفر لا يساوي شيئاً. والناس جميعاً أصفار، مهما كثرت لا تقرأ شيئاً ولا يكون لها مدلول، لكن إذا وضع الصفر على يمين الواحد قرئ عشراً، وإن انضاف إلى الصفر صفرٌ آخر قرئ مائة، وهكذا فالصفر قد وضعه الله صفراً أي لا قيمة له إذا تخلى جل شأنه عنه، فإن كان معه بعونه صار له قيمة.

فتأمل ذلك المعنى جيداً ولا تغفل عنه، واعتبر بقول الشاعر:

اللهَ قل وذرِ الوجودَ وما حوَى	إن كنتَ مرتاداً بلوغَ كمـالِ
فالكـلُّ دونَ اللهِ إن حَقَّقْتَـهُ	عدمٌ على التفصيلِ والإجمالِ

وعليك ــ أيها الأخ المسلم ــ إذا ذكرت الله باسمه الجبار ألا ترى لنفسك فضلا على أحد؛ فالفضل لله وحده، وبالتالي يتلاشى من قلبك العُجب والغرور والكبر والخيلاء وحب الظهور، ويتباعد عن ساحتك كل ما يعكر عليك صفو

---

(١) الشعراء: ٨٨ــ ٨٩.

الإيمان، ويتداعى أمام تواضعك لله كل ما يبطل عملك ويعوقك عن تحقيق أملك في صلاح أمرك في داري الدنيا والآخرة.

فمن أنت حتى يكون لك الفضل على عبد من عباده، وأنت مهما علا شأنك وعظم قدرك وكثر برك ـــ لا تغترف إلا من بحار جوده، ولا تفعل الخير إلا بتوفيقه وهدايته، فسلم قيادك إليه وانسب الخير كله له، وانسب الشر لنفسك تأدباً معه.

ومن الأدب مع الجبار جل شأنه ألا تكون جباراً في الأرض، تدفعك نفسك الأمارة بالسوء إلى التعالي بغير حق على عباده والاستهزاء بهم والسخرية منهم؛ فإن ذلك يورثك الذل في الدنيا والآخرة.

واعلم أنه لا يتعالى على الناس إلا هالك.

يقول رسول الله ﷺ: "لا يَدْخل الجَنَّة مَن كَان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر" قال رجل: يا رسول الله إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، ودابته حَسَنة، أذاك من الكبر؟

قال:" ليس ذاك من الكبر؛ إن الله جميل يحب الجمال: الكبر بطر الحق وغمط الناس" (١)

ومعنى بطر الحق: إنكاره وطمسه والتنكر لأصحاب الحقوق.

ومعنى غمط الناس: احتقارهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم.

واعلم ـــ أيها الأخ المسلم ـــ أنه ليس لأحد من الخلق في هذا الاسم نصيب؛ لأنه اسم دال على صفة هي من أخص صفات ذاته.

ولا يليق بأحد أن يقول: أنا جبار، أو يصف إنسان إنساناً بأنه جبار ـــ إلا على سبيل التجوز والادعاء بأن يقول: فلان كان جباراً في الأرض، بمعنى: أنه يتعالى على الخلق ويداري نقصه وضعفه بإظهار القوة والفتوة، فيكون هذا الوصف ذماً له وتوهيناً لشأنه بين الناس.

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود .

ولما كان هذا الوصف غير لائق بواحد من الخلق على الحقيقة ـــ نفاه عن خير خلقه محمد ﷺ بقوله جل شأنه في سورة ق: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (١).

أي: ما أنت بمسيطر تحملهم قهرا على اتباعك، ولكنك رسول من ربك ما عليك إلا البلاغ، ومعك القرآن فاتلوه عليهم وبيّن لهم معانيه ومقاصده، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فما عليك من حسابهم من شيء.

وبعد: فإن هذا الاسم العظيم يقوي به من داوم على ذكره على قهر عدوه وإحراز النصر عليه في كل المواطن، بشرط أن يطيع الله عز وجل، ويعتصم به، ويستمسك بحبله المتين، ويعتمد عليه في أمره كله، ولا يجعل لنفسه معه حولاً ولا طولاً ولا قوة، بمعنى: أنه لا يعجب برأيه، ولا يغتر بقوته وعلمه، ولا يتعالى على من دونه في الجاه أو في المنصب أو في المال.

وبهذا الاسم العظيم يجبر المرء من نقص أصابه في جسمه أو ماله أو ولده، بشرط أن يصبر على ذلك ويحتسب أجره عليه جل شأنه، ويستعين على ذلك بالدعاء الخالص والتواضع الجم لعظمته تبارك وتعالى، فهو جابر المنكسرين بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ولقد ظل الحكيم الترمذي (٢) رضي الله عنه يدعو الله أربعين سنة بدعوة جامعة ـــ وإن بدا للناس أنها غير كافية ـــ كان يقول: اللهم استرني واجبرني.

وهي بكل بساطة تشتمل على مطلبين: الستر والجبر.

أما الستر: فهو العفو بكل صوره والصفح بأسمى معانيه والمغفرة التي لا حدود لها وتغطية العيوب عن سائر الخلق وتعويض النقص بأوصاف المدح والثناء.

---

(١) الآية: ٤٥.

(٢) الحكيم الترمذي صاحب كتاب "نوادر الأصول"، وهو صوفي معتدل، وليس هو الترمذي المحدث صاحب السنن.

والستر أيضاً من معانيه: الغنى عن الناس. يقال: فلان مستور. يعني: عنده كفايته لا يحتاج إلى معونة أحد من الناس.

وأما الجبر فهو إتمام النعمة وإكمال النقص وتعويض ما فات. ويدخل فيه العفو عن الذلات والتغاضي عن الهفوات، إلى غير ذلك مما هو في معناه.

نسأل الله تبارك وتعالى من كل خير سأله منه محمد نبيه عليه الصلاة والسلام، ونستعيذ به من كل شر استعاذه منه نبيه محمدٌ عليه الصلاة والسلام.

المتكبر "جل جلاله"

عندما نقف وقفة تأمل في أي اسم من أسمائه الحسنى ــ نجد أنفسنا أمام كون واسع فسيح لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تحيط الأفهام بما له من أسرار وآثار.

وقد عرفنا من قبل أن بعض أسمائه الحسنى تشعرنا بالرأفة والرحمة والقرب من حضرة قدسه وجلال أنسه، وبعضها يشعرنا بالمهابة والخشية والرهبة والعظمة.

ونحن الآن مع اسم جامع لكل معاني العزة والجبروت والعظمة والمنعة والملك والسلطان.

إنه "المتكبر" صاحب الكبرياء الذي لا يزول سلطانه، ولا يجري في ملكه إلا ما يريد.

هو المتعالي على عرشه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء بحمده، وهو القاهر فوق عباده.

وهو المتكبر عن ظلم عباده، المتعالي بعظمته عن أوصاف خلقه.

وهو الذي ليس لملكه زوال، ولا لعظمته انتقال.

والكبرياء من خصائص ذاته، هي له مدح وثناء، ولغيره ذلة وشقاء.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار".

وهو جل شأنه متعالٍ عن جميع أوصاف الخلق، مترفع بأوصافه الكمالية عن كل وصف من أوصافهم: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾.

والتاء في اسم "المتكبر" للتفرد والتخصص، وليست هي تاء التعاطي والتكلف.

وبيان ذلك أن المتكبر من الناس ليس هو محق في ذلك، فالكبرياء ليست له بل هو متكلف للكبرياء، يريد أن يتعاطها من الناس، فإذا مدحوه وعظموه ظن أنه ذو كبرياء، وهو في الحقيقة أحقر شيء على وجه الأرض؛ لأن الله عز وجل مقت المتكبرين ولعنهم وأعد لهم عذاباً عظيماً وفضحهم بين الناس في الدنيا، فلا يعظمه أحد إلا نفاقا وتملّقاً بحيث إذا ولي وجهه عنه ــ لعنه بقلبه ولسانه، واستخف به واستصغره، وحكم عليه بالكذب والفجور والتزوير في الهوية والشخصية.

ومن أعجب برأيه ضل، ومن تكبر على الناس ذل.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"

وقال الله عز وجل في سورة الزمر: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾(١).

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢).

ويعرف الإمام الغزالي هذا الاسم الجليل: بأنه الذي يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه.

واعلم ــ يا أخي ــ أن من معاني "المتكبر" الملك الذي لا ينازع في ملكه، يدل عليه ما جاء حكاية عن قوم فرعون حين أرسل إليهم موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ﴾ (٣) أي الملك والسلطان.

والمتكبر: هو الغني بذاته عن سائر خلقه، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، وهم مفتقرون إليه بالضرورة لا يستغنون عنه طرفة عين.

---

(١) الآية: ٣٢.

(٢) الآية: ٢٩.

(٣) يونس: ٧٨.

قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: أنتم الفقراء إلى الله فقراً كاملاً، وهو الغني عن عباده الغنى الكامل، فكان الغنى أحقُّ بالكبرياء لغناه، وكان من واجب الفقراء أن يخضعوا إليه ويتواضعوا لعظمته؛ حتى يرضى عنهم ويكرمهم بما شاء من أنواع التكريم؛ فالتواضع من شيم الصالحين، ففيه عزهم وشرفهم ورفعة شأنهم في الدنيا والآخرة.

ومن تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله خفضه وأذله.

وما أحسن قول الشاعر:

تواضَعْ تكنْ كالنجـم لاحَ لناظرٍ ... على صفحاتِ المـاء وَهْوَ رفيعُ

ولا تكُ كالدخـان يعلـو بنفسـه ... على طبقاتِ الجو وهو وضيـعُ

قال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله تعالى: (صلاح القلب في أربع خصال: في التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء في الله).

أما التواضع لله فمعناه: ألا يرى المرء لنفسه مع الله شيئاً من الأمر، بل يعتقد اعتقاداً جازماً من أعماق قلبه أن الأمر كله لله.

وعلامة ذلك ألا يعترض على حكم الله في شيء، وألا يغضب لشيء أساءه أو يجزع لمصيبة ألمت به، بل يرضى بقضاء الله وقدره كل الرضا، ويسلم أمره إليه في جميع أحواله، ويتوكل عليه ويثق بفضله، ولا يجعل لنفسه اختياراً في أي أمر من الأمور، فالخيرة لله وحده.

والتواضع لله أيضاً أن يستجيب العبد لخالقه ومولاه فيطيعه ولا يعصيه، ولا يتعالى على أحد من خلقه، ولا يرى لنفسه فضلاً على أحد، بل يرى الفضل كله لله.

وأما الفقر إلى الله فمعناه: الاعتماد عليه مع التضرع إليه في ذلة وانكسار

---

(١) الآية: ١٥.

في آناء الليل وأطراف النهار، فكلما ازداد شعور العبد بالافتقار إلى الله ازداد تضرعه إليه.

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

وأما الخوف من الله: ففيه النجاة كل النجاة، وهو برهان على صحة الإيمان وسلامة اليقين، ودليل على معرفة الله بأوصافه العلية وأسمائه الحسنى.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٢).

وأما الرجاء في الله: فهو الطمع في رحمته وثوابه، لكن هذا الطمع ينبغي أن يكون مصحوباً بالعمل الصالح؛ فهو البرهان الصحيح على وجود الرجاء.

فمن كان يرجو رحمة الله تبارك وتعالى، فليرحم عباده وليتعاون معهم على البر والتقوى، وترك كل ما يؤدي إلى إثم وعدوان.

وما أحسن قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلكْ مسالكَها إن السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

وبعد: فإنه ليس لأحد مع الله في هذا الاسم شيء إلا التواضع والتمسكن والخضوع أمام ملك الملوك، الذي لا قدرة لمخلوق مع قدرته، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في حكمه، ولا مانعَ لما أعطى ولا معطيَ لما منع، الخير كله منه وإليه، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، نواصي العباد بيده؛ ليس لأحد معه إرادة؛ فهو الفعال لما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، تبارك في عليائه، لا تسعه أرضه ولا سماؤه، كان ولا شيء معه فأراد أن يُعرف ليعبد، فخلق الخلق وعرفهم بنفسه فعرفوه، وأشهدهم على وحدانيته فشهدوا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، وسبحوا بحمده طوعاً وكرهاً، فكان من أخص صفاته الكبرياء والعظمة والجلال.

---

(١) النمل: ٦٢.

(٢) النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

الخالق البارئ المصور

لكل اسم من هذه الأسماء الثلاثة معنى يخصه ومعنى يشاركه فيه غيره، وذلك بحسب مقتضيات اللغة.

أ ـ فالخالق: هو المقدّر الموجد المبدع، هذا معناه في اللغة؛ فهو جل شأنه قدَّر الأشياء تقديراً دقيقاً محكماً وفق علمه المحيط وإرادته النافذة، وقدرته التامة، وأوجدها من العدم إيجاداً بديعاً على غير مثال سبق.

ب ـ والبارئ هو المصلح الذي يعطي كل شيء ما يناسبه من الخلق والتكوين والتسوية وفق علمه وإرادته وقدرته.

فالبرء في اللغة معناه: القطع والفصل والإصلاح.

قال كثير من علماء اللغة: برأت العود وبروته يعني: قطعته ونحته، وبريت القلم: أصلحته وأعددته للكتابة.

ويقال: برئت من المرض أي: تمثلت للشفاء، وسلمت من الآفات، وأصبحت سوياً معافاً.

فهذه المعاني ونحوها ترجع إلى المعاني الثلاثة التي ذكرتها، وهي القطع والفصل والإصلاح.

ج ـ أما المصور: فهو الذي خص كل موجود بصورة تميزه عما سواه، فقد أوجد المادة من العدم، وكون منها ذاتاً مركبة من أجزاء، وسوى بين الأجزاء في التركيب وجعلها معتدلة، ثم أضفى عليها من محاسن صنعه، فصيرها ذات صورة خاصة، لها مميزاتها وسماتها، وبذلك فصل بين الأجناس والأنواع والأفراد، فجعل لكل جنس صورة خاصة تميزه عن الجنس الآخر، وجعل لكل نوع صورة خاصة تميزه عن غيره، وجعل لكل فرد من أفراد النوع صورة خاصة تميزه عن غيره.

فالمصور من أحدث الصورة على أي نحو شاء، وعلى أي كيفية أراد.

قال تعالى في أوائل سورة آل عمران: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (١).

ومما ذكرنا يظهر لنا الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة، فالخلق غير الإبراء غير التصوير من بعض الوجوه، ولكنها ذات معان مشتركة، فالذي خلق هو الذي برأ وهو الذي صور.

فإذا كان معنى الخلق: هو التقدير والإيجاد والإبداع، فإن البرء معناه: الإصلاح والتسوية والتعديل، وهو نوع من الإبداع.

فالإبداع: هو خلق الشيء وإيجاده على غير مثال سبق، وهذا هو التصوير؛ فإنه إبداع وابتكار، وتركيب وترتيب وتهذيب، إلى غير ذلك من المعاني الدالة على التجميل والتحسين، والتصحيح والتسليم، والتنسيق والتعبير.

اقرأ بتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية يعاتب الله الإنسان معاتبة ملؤها الحب والحلم والكرم، ويخاطبه خطاباً يهز كيانه من الأعماق، ويشير في هذا الخطاب إلى أعظم شيء فيه، إن هو آمن به وأطاعه، وهي الإنسانية بكل معانيها، وهي التي تميز بها عن سائر الأحياء، ويشير أيضاً إلى أقبح شيء فيه، وهو نسيان من خلقه فسواه فعدله وصوره فأحسن صورته، وحين ينسى الإنسان ربه ويغتر بنفسه أو بماله ومنصبه، أو بحسبه ونسبه ــ يكون قد انحط عن درجة الإنسانية إلى درجة الأنعام، بل كان أسوأ منها حالاً وأضل سبيلاً.

وقد تناول القرآن الكريم قضية الخلق بوجه عام وخلْق الإنسان بوجه خاص؛ بوصفه أكرم مخلوق أودع الله فيه ما لم يودعه في غيره، من العقل والعلم والإرادة، وغير ذلك من الفضائل، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في

---

(١) الآية: ٦.

(٢) الانفطار : ٦-٨ .

سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١).

وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢).

وقوله جل وعلا في سورة التين: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾.

ولسنا نرى مخلوقاً أجمل من الإنسان ــ وإن كان كل شيء في الوجود جميلاً ــ فقد جعل الله أوجه ما فيه أعلاه، وأخفى ما فيه من عورات؛ ستراً عليه وحفظاً لحيائه ومروءته وإنسانيته.

وجعله نمطاً فريداً في تركيبه وتصويره، وجعل صورته صورة مصغرة من الكون الواسع الفسيح، فمن فاته التأمل في عجائب هذا الكون فعليه أن ينظر في نفسه؛ فإنه سيجد حتماً في نفسه آيات بديعة رائعة، تدل على عظيم قدرة الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء صنعه.

قال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾(٣).

لقد مر الإنسان في خلقه بأطوار سبعة، كل طور منها مر بمراحل شتى وأخذ صوراً مختلفة ومؤتلفة، فكان الاختلاف والائتلاف بتقدير العزيز العليم، الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٤). فلينظر الإنسان أولاً إلى السلالة التي يخرج منها، وهي الخلاصة التي استخلصها الله من الطين، وهي عبارة عن تسعة عناصر من نحو اثنين وتسعين عنصراً ترابياً.

---

(١) الآية: ٧٠.

(٢) الآية: ٦٤.

(٣) الذاريات: ٢٠ ــ ٢١.

(٤) الآيات: ١٢ ــ ١٤.

لينظر كيف استخلصها بمقادير دقيقة معينة، لا يعلمها على وجه التحقيق إلا هو سبحانه.

ولينظر إلى النطفة كيف خرجت من بين الصلب والترائب، واتخذت طريقها في عجالة إلى البويضة التي كانت في انتظارها فاستقرت فيها، ثم استقرت البويضة في قرار مكين، ثم انقسمت وتفاعلت وحدث فيها ما شاء الله أن يحدث، ثم تحولت إلى علقة، ثم إلى مضغة إلى آخر ما هنالك من أطوار.

ومع الخلق من مبدئه إلى منتهاه كان البارئ جل وعلا يبرأ النَّسَم ويسويها ويعدل فيها؛ ليجعلها في تركيب معجز مناسب وتصوير بديع، يشهد له بأنه الواحد الأحد، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

والمتتبع لأطوار الخلق يعرف شيئاً من تلك الأسرار التي أودعها الرب تبارك وتعالى في هذا الإنسان، والتي أشار إلى بعضها القرآن.

وبعد: فإن خلق الإنسان على هذه الصورة الحسنة السوية ــ أمر يستحق التأمل الطويل، والنظر الدءوب، والتدبر الأمثل، من أجل أن يعرف الإنسان ربه بأوصافه الكمالية، فيؤمن به إيماناً ناشئاً عن علم وبصيرة، ويشهد له جل شأنه بما شهد به لنفسه؛ فإنه حينئذ يكون من أهل العلم والعدالة الذين لا ترد شهادتهم.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فمن نظر أبصر، ومن أبصر عرف، ومن عرف وصل إلى ملكوته بالتأمل والنظر، ومجاهدة النفس والإخلاص له في القول والعمل.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا من لدنه علماً وأن يوفقنا لطاعته ويهدينا إلى صراطه المستقيم.

---

(١) الآية: ١٨.

الغفار "جل جلاله"

"الغفار": اسم من أسماء الله الحسنى، يبعث في النفوس المؤمنة الشعور بالروح والريحان، والسرور والحبور، والطمأنينة والحيوية والأمان، وينزع من القلوب الخائفة ما اعتراها من وجل وخجل، بسبب الذنوب التي يرتكبها المرء بدافع من شيطانه وهواه.

فهو اسم يجمع العبد على ربه، ويؤنسه برحمته، ويفتح له أبواباً من الأمل المصحوب بالعمل، ويسمو به نحو عالم الروح، بعيداً بعيداً عن عالم الجسد المخلوق من طين، ويبعد عنه نزغات الهوى، ونزوات النفس الأمارة بالسوء، ويرفع الإصر الذي أثقل به كاهله، واليأس الذي يعوق مسيرته إلى خالقه ومولاه.

إن هذا الاسم قد تكرر في القرآن كثيراً؛ ليكون هذا التكرار مجدداً للعهد الذي أخذه الله على عباده بأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وأن يطيعوه فيما أمر، وينتهوا عما نهى عنه وزجر، ويلجئوا إليه عند الشعور بالافتقار إلى عفوه ورحمته، فإذا ما نطق العبد به أحس من أعماق نفسه بأن له ربا يغفر الذنب ويستره، بل إنه يبدل بفضله وكرمه سيئات عباده حسنات إن هم تابوا إليه توبة نصوحاً، وأخلصوا له العمل واتجهوا إليه بقلوب خاشعة واعية.

والغفار معناه في اللغة: كثير الغفر، وهو العفو والستر.

وهذه الصيغة تدل على سعة المغفرة لمن تاب إليه وآمن به إيماناً لا يعتريه شك ولا تحوم حوله شبهة، واهتدى بهديه الذي أشرقت به أنوار كتابه، وتعطرت به سنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى في سورة طه: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [١].

---

(١) الآية: ٨٢.

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى، والعلم بخطورة الذنب، والندم على اقترافه، والعزم الصادق على عدم العودة إليه، والعزم كذلك على إدراك ما فاته من الفرائض والواجبات، وجبر ما وقع فيه من تقصير، ورد المظالم إلى أربابها.

وهذه هي التوبة النصوح في أسمى صورها وأرقى معانيها، وهي التوبة التي وعد الله عليها بالمغفرة وتكفير السيئات ودخول الجنات مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ولكي تكون التوبة مقبولة مثمرة، موجبة لتكفير الذنوب ودخول الجنات ــ لابد أن يصحبها مع الشروط التي ذكرناها ــ تصحيح للنية وإخلاص في العبادة، بمعنى: أن العبد إذا تاب لا يغتر بتوبته، ويقول: لقد تبت وفلان لم يتب، فأنا أحسن منه حالاً ومآلاً؛ فإن هذا الغرور يحول بينه وبين قبول التوبة، ويرجع كأسوأ مما كان عليه.

ولذلك قالوا: من أركان التوبة: التوبة من التوبة، بمعنى: أنه إذا داخله الغرور والعُجب، أدرك نفسه فتواضع لعظمة الله تعالى، وبادر إلى شكره على هذه النعمة؛ فإن التوبة من أعظم النعم، كما ذكر السادة العلماء.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في سورة النور: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢).

فقد دخل التائبون في هذا الخطاب مع المؤمنين دخولا أولياً، لأن الله قال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ﴾، ولم يستثن أحدا من المؤمنين، فعلى التائبين أن

---

(١) الآية: ٨.　　(٢) الآية: ٣١.

يجددوا توبتهم أولاً بأول، حتى إذا ارتكبوا ذنباً دون أن يعلموا غفر لهم كلما تابوا وأنابوا.

وهؤلاء هم الذين استحقوا أن يضيفهم الله إليه إضافة تشريف وتعظيم، ويعلن أنهم مقبولون عنده، معفو عنهم، مستجاب لهم متى دعوه، فقال في سورة الشورى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١).

والله عز وجل يقبل توبة من تاب ما لم يُغَرْغِرْ، وقيل: يتوب عليه إذا كان في وعيه عند شدة المرض، بشرط أن يكون مخلصا في توبته، وكان جاهلاً بخطورة الذنب غير مدرك لعواقبه الدنيوية والأخروية.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢).

والتوبة في الحقيقة منحة من الله لعبده تصدر منه، وإليه تعود، كما دل عليه قوله تعالى في شأن المخلفين، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا على ذلك ندماً شديدا، فقد قال جل شأنه في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣).

---

(١) الآيات: ٢٥ــ ٢٦.

(٢) الآية: ١٧.

(٣) الآيات: ١١٧ــ ١١٨.

فانظر إلى قوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ كيف أن التوبة بدأت منه سبحانه وانتهت إليه؛ فهي منه وإليه، وليس للعبد قدرة على تحصيلها إلا بتوفيقه جل شأنه.

ولشرف التوبة منَّ بها على النبيين، وهم معصومون من الذنوب، وجعلها لهم وسيلة للترقي إلى أعلى مرتبةٍ من مراتب القرب والحب، وكذلك مَنَّ بها على المهاجرين والأنصار، الذين اقتدوا بنبيهم وساروا على نهجه، وسلكوا مسلكه في عباداتهم ومعاملاتهم وعاداتهم العامة والخاصة.

هذا: وقد وصف الله نفسه بأنه غافر وغفور وغفار، وبأن له غفرانا ومغفرة، وعَبَّرَ عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر، فأتى فيه بكل صيغة مما لا مجال لذكره هنا.

والغافر والغفار والغفور بمعنى واحد في جانب الله تعالى، بغض النظر عن الفروق اللغوية التي يراعيها علماء اللغة، فإن هذه الأسماء لمسمى واحد هو الله الكامل في ذاته وصفاته.

ولكن هناك معنى جميل ذكره الإمام الرازي ينبغي أن يصادف عند المتأملين الإعجاب والقبول.

قال رحمه الله فيما قال: "للعبد أسماء ثلاثة: ظالم، وظلوم، وظلام، فقال جل شأنه: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾، فإذا كثر منه ذلك سمي ظلاَّمًا.

ولله في مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم، فكأنه تعالى يقول: إن كنت ظالماً يا عبدي فأنا غافر، وإن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار.

وقد أوصى الله عباده أن يستغفروه ويتوبوا إليه، فقال في أول سورة هود: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾.

وقد ذكر الاستغفار أولا قبل التوبة؛ لأنه وسيلة إليها ومقدمة من مقدماتها، ورتب على هذه الوصية ما يستحق العبد من ربه من ثواب دنيوي وأخروي.

والثواب الدنيوي: هو المتاع الحسن بصلاح الحال وهدوء البال والشعور بالطمأنينة والأمن، والثواب الأخروي معروف.

قال تعالى في شأن المحسنين: ﴿ فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ (١).

إن الاستغفار بركة سماوية، فيه من النفحات الدنيوية والأخروية ما لا يعلمه إلا الله.

وقد قال الله عز وجل حكاية عن نوح عليه السلام مع قومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٢).

ووعد الأنبياء حق، فهو في الحقيقة وعد من الله أجراه الله على ألسنتهم فبلغوه لأممهم.

ومن شرف الاستغفار أنه ديدن كل نبي، كما حكى الله عنهم في كتابه العزيز.

فما علينا إلا أن نطلب منه المغفرة ونحن واثقون بأنه سيستجيب لنا، لأنه قد وعدنا بذلك ووعده لا يتخلف ، وهو الذي أغرانا بذلك في آيات كثيرة من أرجاها قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣).

وقوله جل وعلا في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤).

---

(١) آل عمران: ١٤٨.

(٢) نوح: ١٠ــ ١٢.

(٣) الآية: ٥٣.

(٤) الآية: ١١٠.

والأحاديث أيضاً في ذلك كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا، ولكن نكتفي هنا بحديث هو سيد الاستغفار، من قاله في ليلته فمات فيها دخل الجنة، ومن قاله في نهاره فمات فيه دخل الجنة بفضل الله وكرمه: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

ولكي يقبل الله منك هذا الدعاء عليك أن تعفو عمن ظلمك، وتصفح عمن أساء إليك، وتغفر لإخوانك ذلاتهم، وترحم من يستحق الرحمة، وتتأدب بالآداب التي يظهر فيها سمو الخلق ونبل الغاية ومروءة المسلم وحلمه وعلمه وإخلاصه، وحبه لله ولرسوله وللمؤمنين.

القهار "جل جلاله"

كل اسم من أسماء الله الحسنى له في نفوس المؤمنين مهابة وإجلال، تسيطر على كيانهم كله، وتجعلهم في حضرة الواحد الأحد خاشعين خاضعين لعظمته، مسبحين بحمده بلسان الحال والمقال.

وقد عرفنا في مقالات سابقة أن أسماء الله الحسنى كلها جلال وجمال وكمال، لا ينفصل اسم عن اسم في معانيه، فكل اسم كمال في ذاته العلية، فلا فرق بين عالم وعليم، ولا بين حافظ وحفيظ، ولا بين قاهر وقهار.

فلا يقال في أسماء الله الحسنى: قهار أبلغ من قاهر، بل هما سواء، لكن لكل اسم حلاوة وطلاوة وبهاء، وكل اسم له في القلوب صدىً معين وطعم خاص، وله أيضاً تأثيره الخاص على كل إنسان بحسب علمه بصفات الله وإيمانه بها، فليس كل ذاكر ذاكر، بل الذاكر هو من يستوعب معنى الاسم المقدس ويستحضره في قلبه، ويتذوق حلاوته في أعماق نفسه، ويكون باعثاً له على الطاعة والامتثال.

ونحن إذا أمعنا النظر في هذا الاسم المقدس ــ وجدنا له من المعاني ما يبعث في القلوب والجوارح القشعريرة والخوف والخشية والشعور بعظمة الربوبية، ويحمل العبد على الاعتراف بعجزه أمام قدرة خالقه ومولاه.

فالقهار: هو الغالب على أمره، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فمن رضي فله الرضا منه حتى يلقاه، ومن سخط فله السخط منه حتى يلقاه، نواصي العباد بيده، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه، فهو جل شأنه ليس بظلام للعبيد، فمن قهره فقد قهره بحق وعدل وحكمة.

فلا يظن أحد أن الله عز وجل ينتقم ممن يشاء وكيف شاء ومتى شاء بغير ذنب جناه، كلا.. كلا، بل لا يكون ذلك إلا بسبب يقتضي ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (١) أي بسبب ذنوبهم.

وقال جل وعلا: ﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ (٢).

فقهره مصاحب لعدله، وعدله مصاحب لرحمته، وانتقامه مصاحب لحلمه، وهذا هو السر في كمال أسمائه وصفاته، فلا ينفرد اسم عن اسم، ولا صفة عن صفة؛ فهو سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا هو السر في اقتران "القهار" "بالواحد" في القرآن الكريم.

فقد ورد هذا الاسم فيه في ست مواضع:

الأول: في قوله تعالى من سورة يوسف: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣) فقد أراد يوسف عليه السلام أن يستميل عقولهم إلى الحق بهذا السؤال، وكأنه يريد أن يقول: لو كانت الآلهة متعددة ما كانت قادرة على القهر والغلبة؛ لأن القهر والغلبة للإله الواحد الذي لا يعتمد على غيره ولا يفتقر إلى من يعينه، فالقهر من خصائص القادر المقتدر وحده؛ إذ لو كان معه آلهة أخرى لكان الجميع عاجزا عن تدبير هذا الكون على النحو الذي نراه.

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤).

والثاني: قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٥).

والخالق لابد أن يكون واحداً مخالفاً لجميع المخلوقين بالضرورة؛ إذ لو كان مماثلاً لواحد منهم لكان مخلوقاً، ولهذا قال عقب قوله: ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾: ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فما دام خالقاً فهو واحد، وما دام واحداً فهو القهار.

---

(١) الأنعام: ٦.

(٢) العنكبوت: ٤٠.

(٣) الآية: ٣٩.

(٤) الأنبياء: ٢٢.

(٥) الآية: ١٦.

والموضع الثالث: قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (١).

أي: الذي قهرهم بالموت، وقهرهم بالبعث، وقهرهم بالحشر، وقهرهم بالحساب فلا يملك أحد لنفسه شيئاً.

قال تعالى في سورة الانفطار : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّه ﴾ (٢) .

الموضع الرابع: وهو مناسب للموضع الثالث وموافق له وهو ما جاء في سورة غافر:

قال جل شأنه: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٣).

فيوم القيامة يوم ليس لأحد فيه شفاعة ولا يتكلمَ إلا بإذن ربه، ولا يتصرف أي تصرف إلا بمشيئة خالقه ومولاه؛ فهو جل شأنه يسأل عباده على سبيل التحدي وإظهار العظمة والكبرياء قائلاً: ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ فلا يجيبه أحد، فيجيب جل شأنه على نفسه بنفسه قائلاً : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وهذا السؤال والجواب عليه يجوز أن يكون في الدنيا والآخرة معاً؛ فهو سبحانه مالك الملك أزلاً وأبداً، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد.

الموضع الخامس: قوله جل وعلا في سورة "ص": ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤).

الموضع السادس: قوله عز من قائل في سورة الزمر: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٥).

والقهار في هذه الآية معناه: الذي لا يفتقر إلى شيء، فهو الغني بذاته عن

---

(١) الآية: ٤٨.
(٢) الآية: ١٩.
(٣) غافر: ١٦
(٤) الآية: ٦٥.
(٥) الآية: ٤.

جميع مخلوقاته، والغني غالب والفقير مغلوب، ولا سيما إذا كان الغني هو من لا يدانيه أحد في الغنى.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: أنتم الفقراء فقراً كاملاً والله وحده هو الغني الغنى الكامل، ومع أنه غني عن جميع خلقه يحمدهم إن أطاعوه؛ لحلمه عليهم، وإكرامه لهم، ورحمته بهم.

وقد ورد اسم القاهر في سورة الأنعام، وهو بمعنى القهار؛ إذ لا تفاوت بين أسماء الله تعالى في المعنى، كما أشرنا من قبل.

قال جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢). أي: هو المهيمن عليهم المدبر لشئونهم، وسعهم بعلمه وحلمه، وأعجزهم بإرادته وقدرته، إذا سلموا له ما يريد، كفاهم ما يريدون، وإن لم يسلموا له ما يريد، نفذ فيهم أمره الذي أراده.

قال تعالى في سـورة يس: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣).

ومن هذه الآيات نعلم معنى القهر على النحو الذي جاء في كتب اللغة وكتب التفسير من أنه يعني في جملته: الغلبة والهيمنة، والإرادة النافذة، والغنى الكامل، والقدرة التامة، حتى لقد كاد هذا الاسم الذي نطوّف حوله أن يحيط بكل معاني الأسماء الحسنى.

وقد ورد اسم القاهر في سورة الأنعام أيضاً على نحو يشعر بقهره لعباده بالموت والبعث، كما أشعر به اسم القهار في سورتي إبراهيم وغافر.

فقال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا

---

(١) الآية: ١٥.

(٢) الآية: ١٨.

(٣) الآية: ٨٢.

جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمْ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (١).

وبعد: فإننا قد طوّفنا حول هذا الاسم بقدر طاقتنا البشرية، فعرفنا ما شاء الله أن نعرف، ولا يسعنا إلا أن نقول ما قالت الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

وعلينا أن نتأمل في أنفسنا وفيما حولنا لنعرف أن صفة القهر ماثلة في كل شيء مما خلق الله تعالى، فكل شيء في الوجود هو قائم عليه مدبر له.

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ أي: لا يقهره النعاس الخفيف ولا النوم الشديد.

وعلينا نحن الموحدين أن نتوكل عليه، وأن نثق بفضله، وأن نعتصم بحوله وقوته، وأن نتمسك بكتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن نقهر أنفسنا مستعينين على قهرها بالقهار.

---

(١) الأنعام : ٦١ ــ ٦٢.

(٢) البقرة : ٣٢ .

الوهاب "جل جلاله"

تتشابه بعض أسماء الله الحسنى في معانيها فيحسب مَن لا علم له بفقه اللغة وبلاغتها، ودلالة ألفاظها ـ أنه لا فرق "مثلاً" بين الوهاب والمعطي، والرزاق والكريم ونحوها من الأسماء التي تحمل معناها، ولكنها في الحقيقة تلتقي في بعض المعاني، وتفترق في بعضها الآخر افتراقاً ليس من باب التضاد بل هو من قبيل افتراق التنوع. يعرف هذا من هو ضليع في العلوم العربية والشرعية.

ونحن لا نريد هنا أن نفتح هذا الباب؛ لدقة ملمسه، ووعورة الخوض فيه؛ فإنه باب عظيم لا يقدر على فتحه والدخول في جنباته إلا الراسخون في العلم.

وحسبنا أن نقف خاشعين متأملين بين يدي الوهاب ـ جل جلاله ـ لنتعرف على بعض معانيه، ونتفقه في إدراك بعض أسراره ومراميه.

وقد قالوا: "إدراك المعاني فهم، وإدراك المرامي فقه"، والفقه أقوى من الفهم، فهو إدراك المعاني الدقيقة وما وراءها من المقاصد والعبر، وما تحمله تلك المعاني من أبعاد علمية وحجج قوية، فقد يفهم المرء الأمر الذي يقال له ولكنه لا يفقهه لقصور فكره، وجهله بما يؤول إليه الكلام، فإن سأل عالماً خبيراً أرشده إلى ما لم يكن يفطن إليه، ووجهه الوجهة التي ينبغي أن يتوجه إليها لو كان قد فقه الكلام عقب سماعه له؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة النحل، والأنبياء:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

كل واحد من العقلاء يعرف أن الوهاب هو الذي يعطي مَن يشاء، وكيف شاء، ومتى شاء بغير حسابَ، وبدون أسباب ظاهرة يراها الناس أو يعرفونها.

ولقد كنت ولا زالت أسمع بعض العوام والمتعلمين ينشدون أبياتاً يدفعون

---

(١) النحل: ٤٣. والأنبياء: ٧.

بها عن أنفسهم شر الحقد والحسد، ويتصبرون بها إذا لم يجدوا كل ما يتمنونه من مال وجاه ومنصب:

ملك الملوك إذا وهب   لا تسـألنَّ عن السبب

فربك يعطي ما يشـا   فقف عند حدك بالأدب

وهذا الكلام صحيح فيه العظة والعبرة، وفيه الأدب والتسليم والرضا إذا خلا من التندر والسخرية ممن وهبه الله نعمة من النعم التي لم يمنن بها عليه. والأعمال بالنيات.

وقد تكلم العلماء في معنى هذا الاسم العظيم فقالوا: "هو الذي يهب العطاء دون عوض، ويمنح الفضل بغير غرض، ويعطي النعمة بغير سؤال".

فقولهم: "يهب العطاء دون عوض" وصف تفرد به الحق ــ جل شأنه ــ فهو الغني بذاته عن سائر خلقه، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ولا ينقص شيء من ملكه بالعطاء، ولا يزيد بالمنع.

فهو القائل في كتابه العزيز: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [1].

أي: أنتم الفقراء فقراً تاماً لله العزيز الحميد، وهو الغني الغنى التام عن سائر خلقه، ومع ذلك هو حميد أي: تحمده الخلائق لعظيم جوده، وهو حميد يحمد العباد على طاعتهم. فهو حميد بمعنى: محمود، وحميد بمعنى: حامد، كما يقول علماء اللغة.

وهو القائل في الحديث القدسي الطويل ــ الذي رواه مسلم في صحيحه : "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" .

---

(١) فاطر: ١٥.

وقولهم في تعريف هذا الاسم الكريم: "ويمنح الفضل بغير غرض" أي: لذاته عز وجل، وإنما يأمرنا بما فيه صلاح أمرنا في دنيانا وآخرتنا، وينهانا عما فيه إحراجنا وخسارتنا في دنيانا وآخرتنا.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١).

وأما قولهم "ويعطي النعمة بغير سؤال " فلأنه ـــ سبحانه ـــ عليم بالحال غني عن السؤال. وما على المؤمن إلا أن يتوكل عليه، ويسلم أمره إليه، ويتأدب معه فلا يعترض على شيء أصابه أو أخطأه، بل يعبر عن الرضا بلسانه وقلبه.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام، وجفت الصحف".

وفي رواية غير الترمذي "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً ".

فالوهاب هو الذي يفتح أبواب رحمته لمن شاء من عباده فلا يمسك جودَه أحد مهما عظم شأنه بين الناس؛ فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع وهو الفعال لما يريد.

يقول الله ـــ عز وجل ـــ: ﴿ مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

وقد عرف الراسخون في العلم هذا المعنى فلهجت ألسنتهم بهذا الاسم العظيم، وبما في معناه من أسمائه الحسنى.

---

(١) فصلت: ٤٦.　(٢) فاطر: ٢.

أقرأ قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١).

ودعا سليمان عليه السلام ربه فقال كما حكى القرآن عنه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) .

ومعنى ﴿ لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ أي: ألا يغلبني عليه واحد فينتزعه مني، وليس كما قال كثير من المفسرين: إنه طلب ملكاً لا يعطيه الله لأحد سواه؛ فتلك أَثَرَةٌ يَتَنَزَّهُ عنها الأنبياء.

ولي في هذا الاسم العظيم فهم، أرجو أن يكون صحيحاً، هو: أن هذا الاسم يتميز عن سائر الأسماء التي في معناه كالرزاق والفتاح والكريم ــ بأنه يهب لمن شاء ما لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يحصل عليه، مهما توفرت له الأسباب، ولا يخطر على باله ذلك بل يقف عاجزاً كل العجز عن تحقيقه رغم التقدم العلمي الهائل في جميع المجالات.

خذ مثلاً لذلك الإنجاب. هل يستطيع علماء الأجنة والهندسة الوراثية أن يخلقوا جنيناً له كل الصفات والخصائص التي توجد في الإنسان!! فأنى لهم ذلك وعقولهم قاصرة وأنظارهم محدودة، إن أدركوا شيئاً فاتتهم أشياء، وإن علموا شيئاً من أسرار الطبيعة فتحوا على أنفسهم أبواباً واسعة من الجهل العريض؟!.

ولهذا يعبر القرآن الكريم بلفظ الهبة في هذا الشأن في كثير من الآيات. منها قوله تعالى: ﴿ لِلَّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

ومنها قوله جل شأنه: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ (٤).

---

(١) الآية: ٨.

(٢) ص: ٣٥.

(٣) الشورى: ٤٩ــ ٥٠.

(٤) ص : ٣٠ .

وقال ـ سبحانه ـ حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ (١).

وقال حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (٢).

وقال حكاية عن مريم البتول: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ (٣).

من هذه الآيات نفهم أن الوهاب عز وجل هو الله دون سواه؛ إذ هو القادر على أن يهب للإنسان ما لا قدرة له عليه، ولا يخطر بباله أن يحققه لنفسه، فلسان حاله ينطق بالعجز عن ذلك، ويشهد للقادر المقتدر بأنه الوهاب الذي لا تنفد عطاياه، ولا تنقطع آلاؤه ، ولا تنتهي نعماؤه، وهو القائل: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٤).

والنعم الظاهرة بعضها وقع وبعضها منتظر وقوعه.

والنعم الباطنة بعضها نعلمه، وبعضها نحاول أن نعلمه، وبعضها لا نعلمه أبداً. وأرجو أن تكون ـ أيها القارئ الكريم ـ قد وقفت على المعنى المتميز لهذا الاسم العظيم.

وإذا كنت قد فهمت المعنى وأبصرت بعض ما يشتمله هذا الاسم من الأسرار فأكثر من ذكره؛ فإن الإكثار من ذكره تتبعه هبات تتلوها هبات بلا انقطاع، وفضل الله عظيم، ورحمته وسعت كل شيء.

ادع الله به دائماً، كما دعا به الأنبياء والمرسلون، وأنت موقن بالإجابة، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) الصافات: ١٠٠.

(٢) مريم: ٥.

(٣) مريم : ١٩.

(٤) لقمان: ٢٠.

الرزاق "جل جلاله"

تتشابه بعض أسماء الله الحسنى في معانيها ـــ كما ذكرنا في الكلام على معاني "الوهاب " فيحسب من لا علم له بفقه اللغة وبلاغتها ودلالة ألفاظها ـــ أنه لا فرق مثلاً بين الوهاب والرزاق مع أن بينهما فرقاً دقيقاً يحسن بنا أن نتعرف عليه هنا وبالله توفيقنا، فنقول:

١ ـــ الرزَّاق: هو الذي يعطي كل كائن حي ما يحفظ به حياته، ويحقق به نموَّه، ويقضي به وطره من دنياه على النحو الذي يكفي ويشفي، وبالأسباب التي يُحصل بها هذا العطاء وفق تدبير محكم مبني على علم سابق، وإرادة نافذة، وقدرة منفذة؛ فهو الخالق الذي خلق الخلق مع استغنائه عنهم، وأعطى كل شيء خلقه، وهداهم إلى ما فيه صلاح أمرهم، وربَّاهم على موائد كرمه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنةً.

فقولنا: هو الذي أعطى كل كائن حي ما يحفظ به حياته دلَّ عليه قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١).

وقوْله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢).

ولكن للرزق أسباب لابد لحصوله من تحصيلها؛ كما أشرنا؛ فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً كما قال عمر رضي الله عنه فلابد من السعي والعمل الجاد وعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب؛ فمن جدَّ وجد، ومن زرع حصد.

"والجدُّ في الجد والحرمان في الكسل"، فلا يقعدنَّ أحد عن العمل ويقول: الله يرزقني.

---

(١) الآية: ٦.   (٢) الآية: ٦٠.

يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [١].

ولو كانت الأرزاق تحصل بلا كسب ما أمر الله مريم رضي الله عنها أن تهز النخلة ليتساقط عليها رطباً جنياً، بل كان يسقط الرطب عليها من غير عناء ولا تعب بقدرته جل شأنه، ولكنه جعل للأرزاق أسباباً هي في قدرة الكائنات الحية.

وليس الإنسان وحده هو المأمور بتحصيل هذه الأسباب بل إن الله ألهم جميع الكائنات أن تتخذ هذه الأسباب الموصلة للأرزاق المقسومة في الأزل.

وهناك حديث أخرجه الترمذي عن رسول الله ﷺ يخطئ الكثير من الناس في فهمه؛ فيتقاعدون عن العمل ويتكاسلون عن طلب الرزق في مواطنه، ولو فهموه حق الفَهم ما تواكلوا أبداً، ولا عطلوا الأسباب التي علَّق الله الأرزاق عليها.

هذا الحديث يشير إلى ضرورة الأخذ بالأسباب حسب مقتضيات الشرع، ولا يدعو أبداً إلى إهمالها.

ونصه: "لو تَوكَّلُون [٢] على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً".

فالخاملون يقفون عند قوله "كما يرزق الطير" ولم ينظروا بعين الاعتبار في قوله "تغدو خماصاً" أي: جائعة "وتروح بطاناً"، أي: ملأى البطون؛ فهي إذاً تجدّ وتسعى في طلب رزقها، وتتعرض في أثناء ذلك إلى المخاطر والمؤثرات الجوية، ثم تروح إلى أوكارها مزودة بما يكفيها وأفراخها إلى اليوم التالي، وهكذا تظل تغدو وتروح إلى ما شاء الله.

فما بال الإنسان لا يحاكي الطير ليعمل مثلما تعمل!!

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الأصل: "تتوكلون" فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً جرياً على لغة العرب.

إن الله عز وجل تكفل بأرزاق العباد جميعاً ــ هذا أمر لا شك فيه ــ لكنه جعل الإنسان مكلفاً بزراعة الأرض وعمارتها، واستخراج ما فيها؛ فإن لم يفعل فما أدى وظيفته، ولا قام بواجبه، ولا عبد الله في شيء.

إن العبادة ليست مقصورة في الصلاة والصيام والحج والذكر؛ ولكنها تمتد وتمتد حتى تشمل كل عمل نافع وكل جهد مشكور.

فالعبادة في اللغة: الطاعة، والطاعة إنما تكون في كل ما أمر الله به ونهى عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [1].

ومن تتبع الكتاب والسنة وسيرة النبي ﷺ في الحياة، وسيرة أصحابه الكرام البررة، وسيرة التابعين لهم بإحسان ــ عرف كيف يكون التوكل على الله في طلب الرزق، وفرَّق بينه وبين التواكل.

عرف أن التوكل: هو الاعتماد على الله والثقة بفضله مع الأخذ بالأسباب.

وأما التواكل: فهو الاعتماد على الله مع تعطيل الأسباب.

فالأول: ثمرة من ثمرات الإيمان.

والثاني: نزغة من نزغات الشيطان.

الأول: مبني على العلم بسنن الله الكونية وشرعه الحكيم.

والثاني: مبني على الجهل المُطْبِق بأمور الدين والدنيا، فما أبعد الفرق بينهما!! فهما ضدان لا يجتمعان أبداً ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾.

الآن قد عرفنا المعنى الأول من معاني "الرزاق"، فما الفرق بينه وبين "الوهاب" في هذا المعنى؟

قلت في معنى "الوهاب": هو الذي يهب العطاء دون عوض، ويمنح الفضل بغير غرض، ويعطي النعمة بغير سؤال، ويهب ما شاء لمن شاء من المواهب التي ليست في قدرة أحد أن يحصلها بالأسباب، كهبة الأولاد.

---

(١) الحشر: ٧.

فالوهاب والرزاق بمعنى واحد على الجملة، والفرق بينهما ما قد عرفته من أن الهبة من الوهاب ليس من الضروري أن تتوقف على الأسباب كالرزق، وهي في الغالب لا تكون في قدرة العبد ولا يتوقع حصولها بسهولة، ولهذا نجد الناس يتعجبون من عقيم أنجبت، ومن فقير نزلت عليه ثروة فجأة لا يدرون من أين أتت، والرزق أمر معتاد يأتي به الله بكرةً وعشياً، والهبة منحة غير معتادة يخص الله بها من شاء من عباده.

وقد يدخل الرزق مع الهبة في المعنى إذا كان من الأمور الحسية الكبيرة أو من الأمور المعنوية العظيمة، فكما أن المال رزقٌ يكون الذكاء رزقاً، والعلم رزقاً والصحة رزقاً، إلى آخر ما هنالك من نعم الله الظاهرة والباطنة.

يقول الله عز وجل في سورة النحل: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (١).

٢ ــ ومن معاني الرزاق: المستغني بذاته عن سائر خلقه مع التكفل بأرزاقهم فالرزاق لا يُرزَق، كما أن الخالق لا يُخلَق، ولهذا لا يجوز لأحد أن يوصف بأنه "الرزّاق" فهو وصف له وحده جل شأنه جرى مجرى الأسماء.

وهذا المعنى فهمته من قوله تعالى من سورة الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢).

أي: ما خلقت الجن والإنس لحاجتي إليهم، كلا. وإنما خلقتهم لعبادتي، أي: لتوحيدي وطاعتي فما أريد منهم من رزق؛ فأنا الرزَّاق وحدي، وما أريد منهم أن يطعموني؛ فأنا الذي أُطْعِم ولا أُطْعَم، وأنا ذو القوة المتين، أجير ولا يجار عليَّ، أعطي وأمنع، وأضر وأنفع، فلا راد لقضائي ولا معقب لحكمي، وأنا الفعَّال لما أريد. وفي الآيات من المعاني ما لا يتسع المجال لذكره.

والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) الآية: ٥٣.

(٢) الآيات: ٥٦ــ ٥٨.

الفتّاح "جل جلاله"

حين يذكر العبد ربّه بأسمائه الحسنى يشعر بحلاوة كل اسم في قلبه، فيزداد إيمانه بخالقه ومولاه، ويقوى يقينه بأن الأمر كلّه لله، وأن الفضل بيد الله، وأن الخير كله منه وإليه، فهو حين يذكره بقلبه ولسانه ـ يجد نفسه متقلّباً في نعمائه من نعمة إلى نعمة، بدءاً من لفظ الجلالة إلى آخر أسمائه الحسنى، وليس لأسمائه الحسنى آخِر بالنسبة لعلم الله تبارك وتعالى؛ فهناك أسماء علّمها الخواص من خلقه، وأسماء استأثر بها في مكنون الغيب عنده، لا يعلمها إلاَّ هو جل شأنه وعز جاهه.

وإني إذا لهج لساني باسمه "الفتاح" امتلأ قلبي رجاءً في واسع رحمته، وأملاً في عظيم عطائه، وأحسست بأبواب الخير تَتَفَتَّح أمامي، ووجدت أني في كَنَفِ ربي الذي بيده مفاتيح الغيب، ومفاتيح العلم، ومفاتيح الرزق ـ فزال ما في نفسي من الهواجس النفسية، والوساوس الشيطانية التي تفرضِ نفسها عليَّ في بعض الأحيان على حين غفلة مني.

ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الله عز وجل؛ فهو الذي علَّمَني معاني أسمائه الحسنى بالقدر الذي أُطيقُه؛ فإن العلم بالله يُورث العالم كثيراً مما وجده الأنبياء من حلاوة المعرفة والحب الإلهي، ويغرس في كيانه كله الهيبة والجلال والشعور الدائم بالقرب والانتماء، والاستجابة إلى الطاعة من غير تكلّف ولا مجاهدة نفس؛ إذ يتحوّل بكثرة الذكر وإعمال الفكر في أسمائه الحسنى إلى مَلَك في صورة إنسان، فيصبح عبداً ربَّانيًّا يعبد الله بقلبه، وروحه، ولسانه، وجوارحه، ويجد المتعة كل المتعة في ذلك؛ ويَهَبُ نفسه وما يملك لله.

وبعد هذه المقدمة التي عبّرت فيها عن حُبّي لأسماء الله الحسنى، وجلالها في نفسي، وعظمة آثارها في قلبي ـ أَسْبَحُ الآن سَبْحَة تأمّل في هذا الاسم العظيم؛ لنتعرَّف سويّاً على معانيه، وبعض أسراره بقدر ما يفتح الله به علينا، فنقول:

١ــ الفتاح: هو الذي بإرادته وقدرته ينفتح كل مغلق، وبعنايته وهدايته ينكشف كل مشكل، وبرحمته وفضله يندفع البلاء، ويذهب الشر، ويزول العسر، وتذهب الغمة، ويتبدد الحزن، ويتجدد الأمل، ويرتفع الحرج، وينصرف السوء.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

نعم هو كذلك؛ فالأمر أمره، ولا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، فما شاء فعل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ليس للخلق مع إرادته إرادة، فما يمنحه لعبد من عباده من خير فلا يستطيع أحد ــ كائناً من كان ــ أن يمنعه إيَّاه، وإذا أمسك عن أحد شيئاً من الرزق وغيره فلا يستطيع أحد ــ كائناً من كان ــ أن ينفعه به، أو يُمَكِّنه منه.

ولقد فسّر النبي ﷺ هذه الآية بقوله في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف ".

ونحن نعلم أن أبواب الخير كثيرة لا يُحْصيها إلا الله، وأنها لا تنفتح لأحد إلا بإذن الله، وأن الله عز وجل عزيز حكيم، يفتح أبواب رحمته لمن يستحق أن تفتح له، ويغلقها على من يستحق أن تغلق دونه؛ إلا أنّ لله رحمتان ــ رحمة عامة لا تنغلق على أحد، ورحمة خاصة لا ينالها إلاَّ من يستحقها من المؤمنين المخلصين.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

وقال في السورة نفسها: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الآية: ٢.

(٢) الآية: ٥٦.

(٣) الآية : ١٥٦.

ورحمة الله الواسعة ينال المحسنون منها كل على قدر إحسانه، عدلاً منه جل شأنه، ويزيدُهم الله على ذلك أضعافاً مضاعفةً بفضله العظيم.

فمنهم من يفتح الله له أبواباً من العلم والمعرفة، ويوفّقه للعمل بما يعلم.

ومنهم من يفتح الله له أبواباً من الثراء، فيكثر لديه المال، ويبارك له فيه، ويوفقه للإنفاق منه في وجوه الخير، وبذله لمن يستحقه.

ومنهم من يمُدّه بالعافية؛ فتكون تاجاً على رأسه، ينعم بها حيثما كان، ويوفِّقه لاستغلالها في صنائع المعروف، وإعانة الضعفاء والمرضى وذوي الحاجات.

ومنهم من يهبُهُ الله البنين والبنات؛ فتَقرّ بهم عيناه، ويجد فيهم أنسه وسلواه.

ومنهم ومنهم... فنعم الله لا تحصى، ومِنَنُهُ لا تُستَقْصَى ومفاتح الغيب عَنده، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [1].

ومَنْ بيده المفاتيح فهو الفتّاح الذي ينبغي أن نلُوذ به ولا نلُوذ بأحد سواه، بمعنى: أننا نأخذ بالأسباب التي أمرنا الله أن نتّخذها لتحقيق مآربنا مع التّوكل عليه، والثقة بفضله، فيقول كل واحد منا عندما يسعى لتحقيق أمر من الأمور: اللهم، إني سأسعى كما أمرتني لتحقيق مطلبي، فافتح لي أبواب رحمتك، وحقق لي رجائي إن علمت أن فيه خيراً لي، ووفق من شئت لمعونتي، فالأمر كله إليك، وأنت الفتاح العليم.

فإن تحقق الأمل فذاك بفضل الله، وإن لم يتحقق فلا تغضب؛ فإن الله يختار لنا الخير حيث كان، ولو كان في مطلبنا خيرٌ لنا لقدَّرَهُ.

---

(١) الآية : ٥٩.

وقد جاء في الحكم "لو علمتم ما في الغيب لاخترتم الواقع".

فسلّم تسلم، وافهم تَغْنَم.

وقال ابن عطاء الله السكندري في حِكمهِ "لا يكن تأخير العطاء مع الإلحاح في الدعاء أمراً يوجب يأسك، فهو سبحانه ضمن لك الخير فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريده هو لا في الوقت الذي تريده أنت".

٢ـ ومن معانى "الفتاح": الناصر الذي يؤيد بقوته المادية والمعنوية مَن يجاهد في سبيله وابتغاء مرضاته.

يقال: استفتح الجند بالله، أي: طلبوا النصر منه.

قال تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [١] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

وقد سُمِّي النصر فتحاً لما يترتب عليه من فتح الطريق أمام المنتصر إلى دخول البلاد، وإلى الحصول على الغنائم، وغير ذلك مَن المكاسب المادية والمعنوية.

ولذلك سمّى الله صلح الحديبية فتحاً؛ لأنه كان مُقَدّمة لنصر المؤمنين في فتح مكة فقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾.

٣ـ والفتّاح من معانيه: الحاكم الذي يحكم بالعدل، والقاضي الذي يقضي بالحق.

قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [٢].

أي: ربنا احكم بيننا نحن المؤمنين، وبين قومنا الكافرين بحكمك العدل، وقضائك الحق، وأنت خير الحاكمين.

---

(١) الأنفال: ١٩.

(٢) الأعراف: ٨٩.

وبعد، فإني أوصيك ــ أيها الأخ المسلم ــ لكي يفتح الله لك أبواب رحمته، أن تفتح للناس أبواب الخير والأمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى يفتح عليك الفتاح بأكثر مما فتحت به على عباده.

"ومن نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه".

واحرص على أن تنصر الحق على الباطل حتى ينصرك الله، فإن من معاني الفتاح: الناصر، كما عرفت، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ ﴾ (١).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢).

وإذا حكمت بين الناس فاحكم بالعدل، فإن من معاني الفتاح: الحاكم، كما عرفت، واعلم أنك كما تدين تُدَان.

وأختم حديثي عن هذا الاسم العظيم بهذه الدعوة راجياً من الله عز شأنه أن يتقبّلها.

"ربنا افتح علينا فتوح العارفين بك، وهيئ لنا من أمرنا رشداً".

---

(١) الحج: ٤٠.

(٢) محمد: ٧.

العليم "جل جلاله"

عندما يقرأ المتأمل آية من آيات الله ــ تبارك وتعالى ــ فيها اسم العليم يسرح بخواطره إلى هذا الكون العجيب، وما فيه من الآيات الدالة على وحدانيته، وعظيم قدرته، وبديع صنعه ويسأل نفسه هل كان هذا الخلق والإبداع إلا عن علم محيط بحقائق الأشياء ودقائقها ومكنوناتها وأسرارها وآثارها، وصلة بعضها ببعض، وتأثير بعضها في بعض، ومدى ما بينها من تقارب وتباعد، فيدفعه هذا الخاطر إلى تَتَبُّع آيات القرآن كلِّها ليعرف من إشاراتها الجليّة والخفيّة شيئاً مما وسعه علم الله؛ فالقرآن الكريم هو الكون المسطور المنبئ عن الكون المستور، ثم يسأل نفسه سؤالاً يفرضه عليه عقله، ويُمليه عليه ضميره، هل يخفى على الله خافية وهو الذي خلق وبرأ وصوّر، وأعطى كل شيء خَلْقَهُ من غير قصور ولا تفاوت ولا خَلَل، فيجيبه القرآن إجابة يتقبَّلها العقل من غير إشكال، ويرتضيها بأدنى تأمل، ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [1].

ففي هذه الآية خطاب للعقل والقلب معاً بأداة التَّنْبِيه "ألا" ليكون المخاطب متهيئاً لإعمال فكره فيما بعد هذه الأداة من حجة ظاهرة وبرهان ساطع على حقيقة لا خفاء فيها ــ خلاصتها: أن الذي خلق الخلق هو أعلم به، وهو القوّام عليه، والمدِّبر له بعلمه المحيط، وإرادته النافذة وقدرته المُنَفِّذة.

وختام الآية توكيد لمضمونها؛ فهو اللطيف الذي لطف، أي خفي وغاب عن الأبصار والبصائر، الخبير الذي يعلم ما يتطلبه خلقُه من الحفظ والرِّعاية والقَوَامة والتدبير.

وفي آية الكرسي يبين الله لنا أن علمه قد أحاط بما كان وما يكون وما هو كائن، فآية الكرسي قد جمعت في فقراتها العشرة أصول التوحيد كلّها، مَن قرأها بتدبر وكان ضليعاً في اللغة العربية ــ وقف على هذه الأصول، وعرف ما

---

(١) الملك: ١٤.

للوحدانية من خصائص وسمات، وأدرك ما وراء هذه الخصائص والسمات من إشارات لطيفة تعمّق في نفسه معاني الأحديّة في الذات والصفات والأفعال.

فالله جل جلاله هو الواحد "لا إله إلا هو"، أي: لا معبود بحق إلا هو، الحي الذي لا أول لوجوده ولا منتهى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

"القيوم" الذي يدبر أمر عباده، ويكلؤهم بعنايته، ويسوسهم بحكمته، ويصرِّف أمورهم وفق علمه وإرادته.

"لا تأخذه سنة ولا نوم"، أي: لا تقهره غفلة، ولا يغلبه نومٌ؛ فهو جل شأنه القاهر فوق عباده، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، والخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بمشيئته.

"وسع كرسيه السماوات والأرض"، فالملك ملكه، والأمر أمره، والسماوات والأرض جزء صغير في ملك كبير يتسع ويتسع بلا نهاية، كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١). والسماوات والأرض بقبضته .

﴿لا يؤده حفظهما﴾ أي: لا يعجزه إمساكهما على النحو الذي أراد ودبّر، وهو العلي بذاته وصفاته عن سائر مخلوقاته، العظيم في جلاله وجماله وكماله، وكلما سَبَح العقل في هذا الكون الواسع الفسيح لاحت له أسرارٌ عجيبةٌ لم يكن يتطرق إليها الخيال، وانكشفت له أستارٌ من الغيب لم يكن ليعلمها بعقله؛ فالله وحده هو الذي يفيض بالعلم على من شاء من عباده؛ منحة من لدنه ورحمة.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ (٣).

---

(١) الآية: ٤٧.

(٢) البقرة: ٣٢.

(٣) الجن: ٢٦ــ ٢٧.

أي: لا يطلع على غيبه أحداً من خلقه إلا من اصطفاه من الرسل، فإنه يوحي إليه بما شاء من أنباء الغيب، ويلهمه ما شاء مما فيه رشْدُه ورشد أمته، فهو عبده يَتَلَقَّى من ربه العلم ببعض أخبار السابقين، وببعض ما يأتي بعده من الأمور المُغَيَّبَةِ عن الخلق.

والرصد الذي يسلكه الرسول معناه: المعالم التي تقدَّمته، والتي تأتي بعده فيرصدها من قِبَل الله عز وجل، بمعنى: أنه يَطَّلِعُ عليها بالوحي أو بالإلهام.

إن الله عز وجل يفتح أبواب العلم لمن يشاء من عباده، يستوي في ذلك المؤمن والكافر، إلا أن الكافر قد يفتح الله عليه أبواب العلم بالدنيا، ولا يفتح عليه من العلوم الأخروية شيئاً، ولو فتح له باباً منها لأسلم.

قال تعالى في سورة الروم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [١].

أما المؤمن فإن الله يفتح عليه من أبواب العلم ما يوثق صلته به، ويدينه من حضرة قدسه، فيعلم من علوم الدنيا ومن علوم الآخرة معاً، ويجمع له بين الحسنيين.

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [٢].

فمن ذا الذي يستطيع أن يفتح لنفسه باباً من العلم لم يُرد الله عز وجل أن يفتحه له.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [٣].

---

(١) الآية: ٧.

(٢) الأنعام: ٥٩.

(٣) المائدة: ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ يقطع على أدعياء العلم طريقهم المعوج المبني على الظن والتّخمين، ويدحض حجة من يرى أنه يستطيع أن يتنبأ بما هو آت، أو بما هو حاضر من الدَّجّالِيَن والعرّافين وأمثالهم.

﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (١).

وقوله جل شأنه: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ تفصيل لقوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) فالغيب ما خفي واستتر، والشهادة ما لاح وظهر.

وفي وصية لقمان لابنه بيان ساحر لسعة علم الله تعالى بما كان وما يكون وما هو كائن.

اقرأ قوله تعالى بتدبر: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

فهو جل شأنه ــ كما يستفاد من الآية ــ يعلم الذرة من بين الذرات، مهما صغر حجمها وأين كانت، ولو في الصخرة الصماء، وأين كانت هذه الصخرة في الأرض أو في السماء، يعلم كنهها ومقدارها وجميع خصائصها وسماتها، ويميزها عن مثيلاتها، ويأتي بها أينما كانت، ويفعل بها من الأعاجيب ما يشهد له بالعلم التام والقدرة النافذة والكمال المطلق.

ومهما بلغ الإنسان في مجال العلوم والمعارف، فإنه يشهد على نفسه بالجهل المطبق، فإن أدرك شيئاً فاتته أشياء، وإن علم حقيقة علمية فاتته حقائق، فيظَلّ يشعر بالعجز والنقص والجهل إلى الأبد.

---

(١) النمل: ٦٥.

(٢) الآية: ٢٢.

(٣) لقمان : ١٦.

وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وذو العلم ليس كالعليم؛ فبينهما فرق دقيق، فذو العلم هو الذي أوتي شيئاً منه على قدر عقله وطاقته.

والعليم: هو الموصوف بالعلم أبداً، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عددا.

والفوقية في الآية: تعني السيطرة والهيمنة، فلا يحصل المخلوق على شيء من العلم إلا من لدُنْهُ.

وقد تحدى اللهُ بعلمه في كتابه العزيز كل من يدَّعي أنه بلغ في العلم مبلغاً يغترُّ به، ويتعالى به على الناس، فقال فيما قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢).

فهل يستطيع أحدٌ أن يدعي أنه يعلم من هذه الأمور الخمسة شيئاً.

ويقول الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (٣).

فقد يدعي مدع أنه يعلم ما في الرّحم من حمل، فلو سلمنا جدلاً أنه يعلم ذلك في رحم واحد أو أكثر فهل يعلم ما في الأرحام كلها من إنسان وحيوان وحشرات، وغير ذلك من الكائنات الحية التي نعلمها والتي لا نعلمها؟!

ومتى يعلم ما في الرَّحم، هل يعلم أن الأنثى حملت في لحظة التقاء النطفة بالبويضة، وإن علم ذلك ساعتها فهل يعلم أنها أنثى أو ذكر، ولو علم ذلك فهل يستطيع أن يتنبأ بأن هذا الحمل يبقى أو لا يبقى، وهل يعلم على وجه التحديد

---

(١) يوسف: ٧٦.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) الرعد: ٨: ١٠.

متى يخرج من بطن أمه وكيف يخرج، وهل ينزل ميتاً أو حياً، وهل يعيش أو لا يعيش، إلى غير ذلك من المعلومات!!

كلا، إن الله وحده هو الذي يعلم كل شيء بلا استثناء.

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١).

تدبر أيها الأخ القارئ قوله تعالى: ﴿ مِنْ أُنْثَى ﴾ أي: من أي أنثى، فمن ذا الذي يعلم ما تحمله كل أنثى وما تضعه؟!

فليتصاغر هذا الإنسان أمام خالقه ومولاه، وليكفكف من كبريائه وطغيانه وليتواضع كل التواضع لمن له الكبرياء في السماوات والأرض، وليذكر نفسه دائماً كلما شعر بالعُجب والزهو بما حكاه الله عن الملائكة ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

ولكن لا يستطيع الإنسان أن يتخلص من غروره وخيلائه إلاَّ إذا عرف نفسه، فمن عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه لا يسعه إلا أن يخشاه ويتقيه، ويخشع لجلاله، ويشهد بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣).

والمراد بالعلماء في الآية: العارفون بالله عز وجل، فمن لم يعرف الله كيف يخشاه.

والفوز كل الفوز في خشيته وتقواه ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ (٤).

"اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وإيماناً كاملاً وعفواً شاملاً يا رب العالمين".

---

(١) فاطر: ١١.

(٢) البقرة: ٣٢.

(٣) فاطر: ٢٨.

(٤) النور: ٥٢.

القابض الباسط

القابض الباسط اسمان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الذكر، فإذا ذكر أحدهما تبادر إلى الذهن معنى الآخر بالضرورة، وكذلك الضار والنافع، والمعطي والمانع، والمعز والمذل، فهو جل شأنه يقبض ويبسط، ويضر وينفع ويعطي ويمنع، لا راد لقضائه، ولا مُعَقِّب لحكمه، وهو الفعال لما يريد، قهر الجبابرة بجبروته، ونصر المتواضعين لعظمته بقوة بأسه، وقبض المتكبرين بعظمة سلطانه، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فأذلهم ذل الأبد، وبسط للمتواضعين بساط الرحمة فوسعهم فضله، وغمرهم جوده وكرمه، واطمأنت قلوبهم بذكره، فعاشوا أعزاء في كنف عِزّه، محاطين بعنايته، معصومين بحبل مَوَدَّتِه، لا ينالهم من عدوهم ما تنقبض به قلوبهم، ولا يجدون في صدورهم ما يجده غيرهم من حزن على ما مضى، ولا هم لما هو آت، فقد علَّمهم الله كلمة التوحيد وألزمهم إياها، وجمع لهم بها شملهم، وجعل غناهم في قلوبهم، فرضوا بما آتاهم من فضله حتى استوى عندهم القبض والبسط في الأرزاق، فحمدوه في السراء والضراء، واعتبروا المحنة من لدنه منحة حتى لبسوا ثوب النِّعَم، وأمنوا على أنفسهم من غوائل المقام في الأُنس بالله إلى اليقين الصادق بما جاء في قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١)، فكانوا على النهج القويم الذي رسمه الله لهم في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢).

والقبض والبسط ضدان جمعت بينهما قدرته جل شأنه وقضت بهما حكمته، فهو جل شأنه مالك الملك مدبر الأمر، لا يعجزه شيء ولا يشغله شيء عن شيء.

---

(١) الآية: ٢٢.

(٢) الآية: ٢٣.

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [١]. له شئون يبديها، يرفع أقواماً ويخفض آخرين.

نواصي العباد بيده ــ ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه.

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٢].

ونقف هنا عند هاتين الآيتين وقفة قصيرة نتأمل فيهما بعض ما اشتملته كل منهما من الإشارات الدالة على علمه المحيط وإرادته النافذة وقدرته المنفذة، فيطالعنا هذا الأمر: "قل"، ومعناه: اشهد بقلبك ولسانك أيها النّبيّ، أنت ومن معك من المؤمنين في ضراعة وخشوع بأن الملك كله لمبدعه ومُدَبِّرِه، ليس لأحد فيه مثقال ذرة، ولا أصغر منها، وأنه هو القابض والباسط، والمعز والمذل، ليس لأحد سواه الخيرة في شيء، كما قال جل شأنه في سورة القصص: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣].

وأنه المتصرف في شئون خلقه كيف يشاء، فيؤتي من شاء ملكاً؛ إنعاماً أو استدراجاً، وينزع الملك بالقهر والجبروت ممن شاء وكيف شاء، وفي أي وقت شاء، ويعز بالإيمان من شاء، ويذل أهل الكفر بكفرهم فلا ينالهم منه جل شأنه إلا المقت والغضب.

وانظر معي في قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ واسأل نفسك لماذا جعل الخير بيده دون الشر مع أن الأمر كله بيده؟

والجواب على هذا السؤال: أن التأدب مع الله في نسبة الأفعال إليه يقتضينا أن ننسب الخير إليه، وننسب الشر لأنفسنا.

---

(١) الرحمن: ٢٩.

(٢) آل عمران: ٢٦ــ ٢٧.

(٣) الآية: ٦٨.

فنقول: الخير منه وإليه، والشر ليس منه ولا إليه.

فهذه الآية تعلمنا كيف نخاطب الله عز وجل في دعائنا، وكيف نتأدب معه في نسبة الأفعال إليه، ومثلها في ذلك من الآيات كثير، فانظر إلى ما حكاه الله عن إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) ولم يقل: وإذا أمرضني؛ تأدباً مع الله تعالى.

وانظر إلى ما حكاه الله عن الخضر عليه السلام فقد نسب خرق السفينة إلى نفسه؛ تأدباً مع ربه فقال: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا.. ﴾، بينما نسب بناء الجدار وما يترتب عليه من حصول الخير للغلامين اليتمين لله جل شأنه.

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (٢).

وقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فتح لباب الرجاء والطمع في رحمته الواسعة، وطرد لشبح اليأس والقنوط؛ فإن الله عز وجل يرزق من شاء من عباده من غير أن يحسب كل منهم لهذا الرزق القادم إليه حساباً، فقد تأتي الأرزاق فجأة ومن غير عناء؛ إنعاماً أو استدراجاً، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (٣).

وبسط الرزق وقبضه مبني على حكمته البالغة، فلا مشيئة لأحد مع مشيئته، وقد اقتضت حكمته أن يكون في هذه الحياة الدنيا أغنياء وفقراء؛ ليخدم كل فريق الأخر، ويتعاون معه في تعمير الأرض وإصلاحها.

---

(١) الآية: ٧٨ــ ٧٩ .

(٢) الكهف: ٨٢.

(٣) الطلاق: ٢ــ ٣.

يقول الله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].
أي: خدماً ، فلولا هذا التفاوت بين الناس في الرزق لفسدت الأرض، وساء حال من فيها من البشر والإنسان مدني بالطبع يحتاج إلى من يتعاون معه في شئون الحياة، ولن يتم هذا التعاون إلا بوجود هذا التفاوت بينهم في القدرات المادية والمعنوية.

يقول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [2].

والقبض والبسط كما يكون في الرزق، يكون في العلم والذكاء والجسم وسائر الأمور التي تدخل تحت مفهوم الرزق بمعناه الواسع، فكل ما يتعيَّش الإنسان به فهو رزق مقسوم؛ ولذا قالوا: ذكاء المرء محسوب عليه. أي: داخل في النسبة المقسومة، فما من مرفوع في جهة إلا وهو مخفوض في جهة أخرى.

والقبض والبسط مدلولهما يعمّ جميع ما قدره الله على عباده من الإنعام والانتقام.

يقول الله عز وجل في ســـورة البقرة: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [3].

والمعنى: يقبض ما شاء أن يقبض، ويبسط ما شاء أن يبسط بحسب مقتضيات الأحوال، ومجريات الأعمال، وهو الحكم العدل، الذي يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وأصل القبض في اللغة: الإمساك عن الشيء ومن الشيء.

تقول: قبض فلان على الشيء، بمعنى: أمسكه بعد تناوله.

وتقول: قبض فلان عن الشيء، يعني: امتنع عن إمساكه وتناوله.

---

(١) الآية: ٣٢.
(٢) الآية: ٢٧.
(٣) الآية: ٢٤٥.

وأصل البسط في اللغة: النشر والتوسعة.

يقول الله عز وجل: ﴿ والله جعلَ لكم الأرضَ بساطاً ﴾ أي: فراشاً مبسوطاً متسعاً لجميع أهلها، وهو حسي ومعنوي كالقبض، فيقال: بسط الله له في العلم، وفي الخُلُق، وفي المال، وفي العيال إلخ.

وخلاصة القول: أن الله عز وجل قد سمى نفسه بالقابض والباسط؛ ليتوجه العباد إليه بالدعاء الخالص من جميع شوائب الشرك، موقنين بالإجابة؛ ثقة منهم بقوله جل شأنه: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(١)

وبقوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢).

---

(١) النمل: ٦٢.   (٢) البقرة: ١٨٦.

الخافض الرافع

عرفنا فيما سبق معنى القابض والباسط، وقد ذكرتُ أنهما اسمان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الذكر، فإذا ذكر أحدهما تبادر إلى الذهن معنى الآخر بالضرورة، فالقابض الباسط: هو الذي يقبض ويبسط، ويضر وينفع، ويعطي ويمنع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

والخافض الرافع أيضاً: اسمان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ومعناهما قريب من الاسمين السابقين في المعنى العام، كما يتبادر إلى الأذهان، ولكن بين القابض والباسط، والخافض والرافع فروق لغوية تمنع الترادف، بحيث لا يسوغ لقائل أن يقول: إن أحد الاسمين يغني عن الآخر ويسد مسدّه.

فالقبض ليس كالخفض من جميع الوجوه، والبسط ليس كالرفع من جميع الوجوه.

فالقبض معناه: الإمساك والتضييق والتقصير، والحبس والمنع وما في معناه.

والخفض معناه: الوضع والذّل، والإهانة والنقص، والحطّ من علوّ والهبوط من سموّ.

والبسط ضد القبض، والخفض ضد الرفع.

فإذا أردنا أن نعرف الفرق بين القابض والخافض، والباسط والرافع فلابد أن نراعي هذه الفروق اللغوية؛ فإن من تحقق من الفرق بين لفظين مترادفين استطاع أن يفقه الكتاب والسنة كما ينبغي، وعندئذ يكون قد أراد الله به خيراً كثيراً، وفتح عليه في العلم فتحاً مبيناً. "ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" كما قال الرسول ﷺ.

وإليك ــ أيها الأخ القارئ ــ شيئاً مما فتح الله به عليّ في معنى هذين الاسمين العظيمين مع ما ذكرته في معنى الاسمين السابقين.

(١) الخافض جل شأنه: هو الذي دانت له الرقاب جميعاً؛ إذ خفضها بعزة جبروته، وقهرها بسلطان ربوبيته فخضعت لعظمة جلاله، وانقادت لحكمته، وسُيِّرت بقضائه وقدره، فكانت تحت مشيئته ليس لها معه سلطان ولا تدبير.

فقد تبارك الله في ملكه، وتعالى على عرشه، وعزّ في سلطانه، خضعت الإنس والجن لجبروته، وسبح كل شيء بحمده طوعاً وكرهاً.

والرافع: هو الذي نصر جنده، وأعزّ أولياءه، ورفع شأنهم في الأولين والآخرين، وأضافهم إليه تشريفاً وتعظيماً فقال جل شأنه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ (١).

(٢) الخافض: هو الذي يخفض بالجهل أقواماً فيعيشون بجهلهم أمواتاً وهم أحياء، ويرتكبون به من الكبائر والخطايا والأخطاء ما يكون سبباً في انحطاطهم عن مرتبة الإنسانية إلى ما دون مرتبة الحيوان الأعجم.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٢).

وهؤلاء قد عرضت عليهم الهداية فأبوها واستحبوا العمى فأضلهم الله. ولو طلبوا الهدى لهداهم، ولكنهم تمادوا في الضلال فغلبت عليهم شِقْوَتُهُم، فهوت بهم أهوائهم إلى مكان سحيق.

﴿ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣).

والرافع: هو الذي أعز أولياءه بالعلم، ورفع شأنهم بما فتح به عليهم؛ فكانوا سادة وقادة وأئمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعلمون الناس أمور دينهم.

---

(١) الفرقان: ٦٣ــ ٧٥.

(٢) الفرقان: ٤٣ــ ٤٤.

(٣) الحج: ١٨.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١).

ويقول جل شأنه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

ويقول عز من قائل: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٣).

ولست أرى أشد انحطاطاً من الجاهل ولا أعظم رفعة من العالم، فالجاهل لا يدري هل هو جاهل أم لا، فهل بعد هذا انحطاط؟! ولو كان يدري أنه جاهل ما تمادى في جهله.

وقد قالوا: من قبح الجهل أن ينكره من هو فيه، ومن شرف العلم أن يدعيه من ليس فيه.

الجاهل يحيا جاهلاً ويموت جاهلاً ويبعث جاهلاً.

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله   وليس له عند النشور نشورُ

والعالم يصل به علمه إلى أعلى مقامات العبودية؛ فلا ينطفئ نوره، ولا يخمل ذكره، ولا يستغنى الناس عنه، ولا يموت إذا مات؛ بل تبقى ذكراه أمداً طويلاً بقدر ما أفاد البشرية من علمه.

يقول الشاعر:

الناس من جهة التِّمثَال أكْفَاءُ   أبوهمُ آدم والأمُ حواءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرفٌ   يتفاخرون به فالطينُ والماءُ
وما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهمُ   على الهدى لمن استهدى أدلاَّءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنُهُ   والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تَعشْ حيًّا به أبداً   فالناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

---

(١) المجادلة: ١١.
(٢) الأنعام: ٨٣.
(٣) يوسف: ٧٦.

ولذلك قصر الله الخشية عليهم دون غيرهم فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١).

والمراد بالعلماء في الآية: العارفون بالله العاملون بكتابه عز وجل العاملون بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد نفى الله التسوية من جميع الوجوه بين العالم والجاهل، فقال جل شأنه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢).

(٣) والخافض: هو الذي يخفض أهل المعاصي بالانتقام فلا تراهم يرفعون الرأس أبداً، ولا ترى أحداً من الناس يجلّهم أو يحبّهم، ويعتزّ بصحبتهم أو يثني عليهم إلا نفاقاً.

قال ابن المقفع: "من تكبر على الناس ذل ومن أُعْجِبَ برأيه ضلّ"؛ وذلك لأن الكبرياء لله وحده.

﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣).

وقد جاء في الحديث القدسي: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما قصمته"، وفي رواية: "أخذته ولا أبالي".

وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".

والرافع: هو الذي يرفع من تواضع لعظمته، ولم يتكبر على أحد من خلقه. وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: "من تواضع لله رفعه".

وما أجمل قول الشاعر:

تواضع تكن كالنجـــم لاحَ لناظرٍ ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخـــان يعلو بنفســـه ... على طبقاتِ الجو وهو وضيع

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) الجاثية: ٣٧.

(٤) الخافض: هو الذي يخفض الأغنياء بأموالهم إن اغتروا بها ولم يشكروه وعليها، ويسلط عليهم الدنيا فتستخدمهم حتى يصبروا عبيداً لها فيشقون فيها شقاءً لا يذوق مرارته إلا من كان على شاكلتهم.

ويخفض الفقراء إذا ما جزعوا ويئسوا من رحمته، فيكونون مع الأغنياء في الذل سواء، يتكالبون على الدنيا ولا يحصلون من حطامها على شيء.

والرافع: هو الذي يرفع الأغنياء بالمال إذا ما شكروه عليه، وأعطوا حق الله منه، وانتفعوا به انتفاعاً مشروعاً ولم يتعالوا به على أحد.

ويرفع الفقراء بفقرهم إليه، واستغنائهم به عمن سواه، ويمنحهم الرضا فيسعدون بما هم فيه، ويشعرون أنهم أغنى الأغنياء، ويجدون حلاوة العزة في قلوبهم فيتعففون عن سؤال الناس، وترتسم سيما العفة على وجوههم فيحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، وهذا هو الغنى الحقيقي، فمن استغنى بالله أغناه الله عن العالمين.

وقد جاء في الخبر: "من جعل الدنيا مبلغ همّه شتت الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له، ومن جعل الآخرة مبلغ همه جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

والخلاصة: أن هذين الاسمين العظيمين من أسمائه الحسنى متلازمان ــ كما قلنا ــ في الدلالة على إرادته النافذة وقدرته المنفذة وعدله المطلق، فمن استحق الانخفاض خفضه، ومن استحق الرفعة رفعه. ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾.

وما على المؤمن إلا أن يستمد العون والعزة والرفعة منه جل شأنه، وذلك بطاعته في سرّه وعلانيته، والتوكل عليه في جميع أموره، والثقة بفضله في جميع أحواله، والرضا بقضائه وقدره.

وليعلم كل إنسان أن الملك كله لله، وأن الأمر كله له جل شأنه، فمن سلّم أمره إليه ورضي به ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد عليه الصلاة والسلام رسولاً ــ

فقـــد بلغ المنزل، وانتهى إلى أرفع مقـــام، وأنجز الله له ما وعـــده به في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (١).

وفي قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٢).

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) النازعات: ٤٠ـــ ٤١.

المعز المذل

خَلَوْتُ بنفسي يوماً لدعوتها إلى التأمل الدقيق، والنظر الثاقب في معنى هذين الاسمين العظيمين من أسماء الله الحسنى ـ فَوَجَدتُنِي أُطَوِّف بين أسماء الله الحسنى جميعاً؛ لشمولهما لكل ما تضمّنته هذه الأسماء الكمالية من المعاني.

وحاولت جهدي أن أستخلص لهذين الاسمين معنيين لا يشاركهما فيهما اسم آخر فلم أجد.

وذلك لأمور ثلاثة سبق بيانها مجتمعة ومتفرقة عند الكلام على ما تقدم ذكره، منها:

الأول: أن أسماء الله كلَّها في الجلال والجمال والكمال سواء؛ لأن مُسَمَّاها هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فجلالها من جلاله، وجمالها من جماله، وكمالها من كماله.

الثاني: أن جميع الأسماء الحسنى تدل على وحدة الألوهية والرّبوبية ووحدة الذات والصفات والأفعال.

فالله إله واحد، ومعنى الإله في اللغة: المعبود، ولا معبود سواه.

وهو الرّب الذي لا رب غيره، والرب في اللغة معناه: السيد المالك المُرَبِّي، المصلح المدبّر، الخالق الرازق، إلى آخر هذه الأفعال التي ليس لأحد معه فيها شركة.

وذات الله أحدية ليس لها مِثْلٌ ولا شبيه، وصفاته نابعة من ذاته ليس لها انفصال عنها، بل هي عينها.

الثالث: أن الذّاكر بأسماء الله الحسنى إذا ذكر الله باسم فاستعذبه ووجد فيه أنسه وسلواه وأحس بَبَرْدِهِ في قلبه وكوامن حسّه، وجد نفسه مُتَلَهِّفاً إلى الاسم الذي بعده شَغُوفاً بتكراره.

وهكذا حتّى ينتهي إلى الاسم التاسع والتسعين، فيجد نفسه في حاجة ماسة إلى أن يعود لذكر الله تعالى بلفظ الجلالة، الذي هو عَلَمٌ على الذات العلِيّةِ، ثم

الاسم الثاني الرحمن، وهو العَلَم الثاني الذي لا يجوز لأحد أن يَتَسَمَّى أو يتصف به.

وهكذا دَوَالَيْكَ، فكيف يستطيع الباحث في معاني أسماء الله الحسنى أن ينتزع لكل اسم معنى خاصاً به لا ينازعه فيه اسم آخر.

هذا ما خطر لي قبل أن أكتب في هذين الاسمين العظيمين صفحات أبين فيها معنى كل منهما بقدر طاقتي البشرية.

وقبل أن أبدأ البحث أردّد قول الله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (1).

أيها القارئ الكريم: لكي تفهم معنى المعزّ عليك أن ترجع إلى ما كتبته في معنى العزيز؛ فإني قد توسعت في بيان معناه بحيث من وقف عليه عرف معنى المعزّ معرفة تكفيه. لو كان مقتصداً في طلب العلم.

وخلاصة ما ذكرناه هناك: أن العزيز في اللغة يرجع إلى ثلاثة معاني رئيسة:

الأول: العزيز من ليس له نِدٌّ ولا مثيل، من قولهم: عزّ وجود الشيء أي امتنع.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (2).

الثاني: هو الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والقادر الذي لا قدرة لمخلوق مع قدرته.

قال تعالى في سورة ص: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (3). أي: غلبني في الجدل، وقهرني في الطلب.

الثالث: هو القوي الشديد، الممتنع بقوته عن سائر خلقه.

---

(1) البقرة: ٣٢. (2) فاطر: ١٦ــ ١٧. (3) الآية: ٢٣.

قال تعالى في ســورة يس: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾[١]. أي: شددنا وقوينا.

ومن نظر إلى هذه المعاني الثلاثة فقد انفتح له باب المعرفة، فأدرك أن العزيز جل شأنه هو معدن العزة ومنبعها ومصبها، فمنه تنبع العزة وإليه ترد.

وهو الحكيم الذي يضع الأمور في موضعها بعزّته القاهرة وعدله المطلق، فالعزة مقرونة بالحكمة في كثير من آيات الذكر الحكيم؛ لأن العزة بالمعاني المتقدمة لا يظهر كمالها على الوجه الأكمل لأولي الألباب إلا إذا رُوعي فيها الحكمة، التي تفيد أن الآثار المترتبة على هذه المعاني إنما تقوم على العدل المطلق، والنظام الدقيق، والتدبير المحكم.

وإذا عرفت معنى العزيز على النحو الذي ذكرته ـــ فاعلم أن المعز: هو الذي يمنح العزة لمن شاء ممن عباده، وكيف شاء، ومتى شاء.

فمن أعزه الله فلا مذل له، ومن أذله فلا مُعَزَّ له.

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢].

وللعزة سُبُل، ووسائل، ومواطن، ومقاصد، وغايات، ولكن مصدرها واحد هو الله جل شأنه.

فمن أراد العزة فليسلك سبيلها ويطلبها من منبعها ومصبها؛ فهي منه وإليه.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [٣]. أي: فلله العزة مجتمعة عنده ليس لأحد فيها نصيب إلا من لدنه، فلا يطلبها طالب مِنْ سواه.

فمن ذا الذي يحتويها حتى يسديها؟!

---

(١) الآية: ١٤.　　(٢) الآية: ٢٦.　　(٣) الآية: ١٠.

والسبل التي يحصّل العبد من خلالها العزة كثيرة ترجع كلها إلى صراط الله المستقيم، وهو الدين القيّم الذي فطر الله الناس عليه، وبيّنه لهم في كتبه السماوية، وعلى ألسنة رسله الكرام البررة، ووضع معالمه كلّها في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي: لنهدينهم إلى ما يوصلهم إلينا بحسب قدرة كل واحد منهم.

ويقول جل وعلا في سورة الأنعام: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

ونفهم من هاتين الآيتين أن للخير سبلا هي لله وحده، وأن للشر سبلا هي للشيطان، سواء كان هذا الشيطان من الإنس أم من الجن.

وسبل الله جميعاً يفضي بعضها إلى بعض، وتصب كلها كما أشرت ــ في سبيل واحد أو صراط واحد، وهو سبيل الله المستبين وصراطه المستقيم.

فمن أراد العزة من الله عز وجل ــ فليكن مطيعا له خاضعا لعظمته، مخلصاً له في العبادة متوكلا عليه، واثقاً بفضله لا يعتمد على أحد سواه.

فالمعز هو الذي يعز من أعز دينه بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية، وكان جندياً من جنده يجاهد في سبيله، ولا يخشى فيه لومة لائم، ويتعاون على البر والتقوى في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء، ويكون مثلا صادقاً للمسلم الحق، وقدوة حسنة للعبد الصالح، فعندئذ يعزه الله بعزه، ويؤيده بنصره، ويوفقه لما فيه رضاه، ويفتح له أبواب رحمته، ولا يجعله في حاجة إلى أحد سواه.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

---

(١) الآية: ١٥٣.   (٢) المنافقون: ٨.

وفي الصدق مع الله تكون العزة بغض النظر عن المال والحسب والجاه والمنصب.

والذل كل الذل في المعاصي: كبيرها وصغيرها.

فمن بارز الله بالمعصية جعله، في الذل نكالاً لغيره، ولا يجد له من دونه وليًّا ولا نصيرا.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١).

والعاقل من الناس من عرف مواطن العزة فتحرّاها، ومواطن الذل فتوقّاها.

والحكيم من الناس من جعل الآخرة مبلغ همّه ومنتهى أمله، وأخذ نصيبه من الدنيا من غير حرص ولا طمع.

وانظر – أيها القارئ الكريم – إلى طلاب الدنيا وطلاب الآخرة من خلال قصة قارون، فطلاب الدنيا تمنوا أن يكونوا مثله، واعتبروه مَثَلَهُمُ الأعلى في العزة والشرف، بينما وقف طلاب الآخرة منه ومنهم على طرفي نقيض.

قال تعالى حكاية عنه وعنهم: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾ (٢).

والصابرون: هم الراضون بقضائه، الشاكرون لنعمائه، المتوكلون عليه، الذين لا مطمع لهم إلا في رحمته.

جعلنا الله منهم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

---

(١) المجادلة: ٢٠ـ ٢١.

(٢) القصص: ٧٩ـ ٨٠.

السميع البصير

عندما نتكلم عن أي اسم من أسماء الله الحسنى، ينبغي أن نضع في اعتبارنا أنها أسماء جلال وجمال وكمال للذات العلية الأحدية، ونراعي ما بينها من عروة ونقى، تجمعها جميعاً في نسق فريد واتجاه واحد، ليس له شبيه ولا نظير، بمعنى: أن مسماها واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنها في جلالها وجمالها وكمالها وصف واحد للفظ الجلالة، فقد ذكرنا عند الوقوف بين يديه: أنه علم على الذات العلية تُرَدُّ إليه جميع الأسماء والصفات، ولا يُرد هو إليها، فيقال: الله الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار إلى آخر الأسماء الحسنى، ولا يقال: الرحمن الرحيم، الملك القدوس، الله.

والنسق الذي يجمع الأسماء الحسنى جميعها هو أحدية الذات؛ فالواحد في ذاته واحد في صفاته وأفعاله.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (١).

والمعنى: ليس مثل صفته شيء؛ فكاف التشبيه بمعنى: مِثْل، ومعنى: "مثله" في الآية صفته، وصفته جل شأنه هي مجموع أسمائه الحسنى، وهي لا تحصى بعضها نعلمه، وبعضها لا نعلمه.

فما نعلمه منها تسع وتسعون اسماً نددن حولها، ونذكره بها، ونقتدي به جل شأنه فيما يحق لنا أن نقتدي به فيها، فنكون رحماء؛ لأنه رحيم، ونكون حلماء؛ لأنه حليم، ونكون كرماء؛ لأنه كريم، إلى آخر ما هنالك من الأسماء التي لنا فيها أسوة.

والدليل على أن لله أسماء أخرى غير هذه الأسماء التي نعرفها دعاء النبي ﷺ الوارد في بعض كتب السنة، وهو قوله: "اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم

---

(١) الشورى: ١١.

سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك ـ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري وذهاب حزني، وجلاء همي وغمي".

والسميع البصير من أسمائه الحسنى التي أحاطنا الله بها علماً في كتابه العزيز، وذلك في نحو أربعين آية.

وفي كل آية ذكر فيها هذان الاسمان العظيمان تحمل لهما مدلولاً خاصاً يأتلف مع غيره ولا يختلف.

ومجموع هذه المعاني أربعة. فلنبدأ أولاً بذكرها في الاسم الأول فنقول:

المعنى الأول ـ وهو المتبادر إلى الذهن لأول وهلة ـ: أن السميع هو الذي وسع سمعه الأصوات؛ فلا يغيب عن سمعه صوت، ولا يشغله صوت عن صوت، ولا يخفى عليه صوت دبيب النملة أو حركة الذرة، أو ذبذبات الصخور في أعمق أعماق البحار، أو في أعلى أعالي الجبال، بل لا يغيب عن سمعه المعدومات، وهي التي لم تدخل في حيز الوجود بعد، فلا يقولن قائل: إن سمعه وسع أصوات الموجودات كلها، ويكتفي بهذا؛ فإن علم الله عز وجل كما وسع الموجودات والمعدومات فسمعه كذلك، وقد علمت ـ فيما سبق ـ أن أسماءه الحسنى وأوصافه العلى كمالية، وأن له الملك والملكوت. والملك: ما لاح وظهر، والملكوت ما غاب واستتر.

فكل مسموع في الوجود أو في العدم فقد وسعه سمع الله.

ولا تسأل أخي المسلم: كيف يسمع أو بأي آلة يسمع؛. فهذا ليس من شأنك، ولا قدرة لك على تحصيله؛ فهو يسمع بذاته دون آلة أو حاسة، تنزه الله جل وعلا عن ذلك تنزيهاً تاماً.

هذا هو المعنى الأول، ويتبعه المعنى الثاني، وهو: أنه جل شأنه يعلم ما تحمله هذه الأصوات من معان ودلالات، وما وراء هذه المعاني من مقاصد ومرامي، وما وراء هذه الدلالات من أهداف وغايات.

ويتبع هذا وذاك المعنى الثالث: وهو أنه جل شأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عنه بإرادته النافذة وحكمته البالغة وقدرته المنفذة.

ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ في دعائه: "اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع" أي: لا يستجاب ولا يعتد به؛ فكأنه غير مسموع.

وقول المصلي: سمع الله لمن حمده. أي: قبل الله حمد من حمده.

ويتبع هذه المعاني الثلاثة معنى آخر لا ينفك عنها، وهو إثبات هذه الصفة له جل شأنه لتدخل في باب المعتَقَد؛ إذ لولا أنه وصف نفسه بالسميع ما وصفناه به؛ لاعتقادنا أن الوصف بالعلم يشمله؛ فالعليم بالضرورة سميع بصير، خبير محيط.

فنحن إذاً مأمورون بأن نعتقد أن له سمعاً، ولكن ليس كأسماعنا، فهو يسمع بذاته من غير آلة ولا حاسة ــ كما ذكرنا.

ومن استعرض آيات القرآن التي ذكر فيها هذا الوصف ــ وجد أنه لا يخرج عن المعان الأربعة التي ذكرناها.

خذ مثلاً ما جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١).

أي: إنك السميع الذي وسع سمعه الأصوات، والذي يعلم ما تشمله الأصوات من المعاني والدلالات، والذي يقبل الدعاء ويجيب المضطر إذا دعاه بقلب خالص، ويكشف عنه السوء، وهو الذي وصف نفسه بذلك فوجب علينا أن نعتقده ونذكره به.

وكذلك ما جاء في دعاء زكريا ــ عليه السلام ــ من سورة آل عمران:

---

(١) الآية: ١٢٧.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١).

وقد دعاه بقلبه دعاءً لم يسمعه أحد من العالمين، كما قال جل وعلا في سورة مريم: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (٢).

ومن ذلك قوله تعالى في أول سورة المجادلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣).

فقد جاءت خولة بنت ثعلبة إلى النبي ﷺ تجادله في شأن زوجها الذي قال لها: أنت عليَّ حرام كظهر أمي، فلما قال لها الرسول ﷺ أراك قد حرمت عليه، خرجت وهي تقول بصوت خافت: إلى الله اشتكي، فأنزل الله بعد هذه الآية آيات تبين حكم الظهار، وفيها حل لمشكلتها، ومشكلة من هي على شاكلتها.

فقد سمع الله قولها وجدالها، وقضى لها في شكواها بما فيه خير لها ولزوجها.

قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، قد جاءت المجادلَةُ إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناصية البيت ما أسمع ما تقول".

وأما البصير فهو الذي يبصر جميع المرئيات من غير آلة ولا حاسة، فكما أنه يسمع بذاته يبصر بذاته، بل يبصر المعدومات التي هي سوف تكون في حيز الوجود؛ وذلك لأن إبصار الله للأمور المرئية يغاير الإبصار من جميع الوجوه.

وهو الذي يبصر الأشياء على ما ستؤول إليه، ويعلم حقائقها ودقائقها، وما وراءها من المقاصد والغايات، وما لها من الدلالات القريبة والبعيدة.

ويتبع هذا وذاك أنه يقضي بين عباده بما فيه خير لهم، ويحكم بينهم بحكمه العدل بمقتضى سمعه وبصره.

---

(١) الآية: ٣٨. (٣) الآية: ١.

(٢) الآية: ٢.

وقد أثبت سبحانه لنفسه البصر فوجب علينا اعتقاده لكن على النحو الذي عرفناه في الاسم السابق؛ فهو المنزه بذاته وصفاته وأفعاله عن سائر صفات مخلوقاته.

فقد عرفت إذن أن للبصير أربع معانٍ، كالسميع، وهي:

إبصار المرئيات أو التي من شأنها أن ترى، أو المعدومات التي سوف تظهر إلى حيز الوجود من غير آلة ولا حاسة، والعلم بما ستؤول إليه، والإحاطة بحقائقها ودقائقها، والقضاء بين عباده بما فيه خير لهم، وإثبات أن له بصراً ليس كأبصارنا. وفي الإعادة إفادة كما يقولون.

وبعد؛ فإنه من عَلِم عِلْمَ اليقين أن الله يسمعه ويراه، ويعلم سره ونجواه ــ لم يضع نفسه في الموضع الذي لا يريد الله أن يضع نفسه فيه، ولا يتخلى عن موضع أراد الله له أن يكون فيه، وهذا هو التوحيد الخالص في أسمى صوره، وأرقى معانيه.

وقد قالوا: علامة حبك لله ــ ألا يراك حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك.

فالمراقبة: ثمرة من أعظم ثمرات الإيمان، فهي الإحسان الذي بينه الرسول ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

الحكم العدل

عندما يذكر المؤمن ربه باسميه "الحكم العدل" يستشعر من نفسه الرضا بقضائه وقدره، ويستقر في أعماق قلبه أنه لا يضام أبداً؛ ما دام واثقاً في حكمه الذي لا معقب له، وعدله الذي لا ريب فيه، ويتأكد لديه ــ بما لا يدع مجالاً للشك ــ أن الظلم محال عليه، وهو سبحانه منزه عنه تنزيهاً تاماً، فتطيب نفسه بكل ما يصاب به من المحن والنقم، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وعندئذ يتذوق حلاوة الإيمان، ويجد برده في قلبه، فلا يبالي بما فاته من دنياه، ولا يفرح بما أقبل عليه من زهرتها؛ لعلمه أن الآخرة هي خير وأبقى.

وإذا عرف المؤمن معنى هذين الاسمين، لاحت له أنوارهما فأشرق بهما فؤاده، فرأى به ما لا يراه الناظرون بأبصارهم، وسمع به ما لا يسمعه السامعون بآذانهم، ومشى بهذا النور بين الناس موفقاً في أقواله وأفعاله، ينطق بالحكمة، ويتصرف وفق ما يمليه عليه دينه وضميره، فيكون موافقاً شرع الله في حكمه ومنهجه.

فما معنى الحَكَمُ؟

الحكم: صفة ذاتية لله ــ تبارك وتعالى ــ لا يماثله فيها ولا في سائر أسمائه وصفاته أحد؛ فهو الذي قد أحكم كل شيء صنعه وأبدعه، وهو الذي يفصل بين الحق والباطل بحكمه العادل، المجازي كل نفس بما كسبت، وهو الذي لا يقع في وعده ريب، ولا في فعله عيب.

وهو الذي ينصف المظلوم من الظالم من غير توان ولا إهمال، وقد نظرت في هذا الاسم نظرة تأمل واستبصار فوجدت أن هذا الاسم يتضمن أربعة أمور متلازمة:

الأول: العلم التام بما كان وبما يكون وبما هو كائن؛ إذ لا حُكم بجهل.

الثاني: الإرادة النافذة التي لا تُرَدُّ ولا يعارضها معارض؛ إذ لا حكم لمن لا إرادة له.

الثالث: القدرة المنفذة؛ إذ لا حكم لمن لا قدرة له على التنفيذ.

الرابع: العدل التام؛ وإلا لم يكن الحكم مقبولا.

لهذا قرن العلماء بين هذين الاسمين عند التحدث عنهما.

وإذا علمت ذلك فهل ترى حكماً غير الله عز وجل؟!

فمن ذا الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون؟، من هو القادر القاهر الذي يجير ولا يجار عليه؟ ومن هو الذي تمت كلمته صدقاً وعدلاً؟! .. إنه الله وحده.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾، بلى، وإنا على ذلك لمن الشاهدين، فلا حكم مع حكمه، ولا عدل بعد عدله.

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[١].

أي: أفغير الله تريدون أن يكون حكماً بيني وبينكم أيها المشركون، وقد أنزل إليكم الكتاب بالحق قولاً فصلاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يعتريه تناقض ولا اختلاف، ولا زيغ ولا انحراف.

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ﴾ أي: ما الحكم لأحد كائناً من كان إلا لله وحده، فهو الحكم بلا منازع، وهو العدل بلا مدافع.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢].

وقال جل شأنه في سورة غافر: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [٣].

وقال عز وجل في أول سورة المائدة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [٤]

---

(١) الأنعام: ١١٤.

(٢) الآية: ٥٠.

(٣) الآية: ١٢.

(٤) الآية: ١.

والحُكم والقضاء والأمر بمعنى واحد.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ ﴾؛ فهو الحاكم والقاضي، والآمر والناهي، والمدبر والمسيطر والفعال لما يريد. هذا هو معنى الحكم، فما معنى العدل؟

أقول: العدل: هو من تمت عدالته، ومضى في الخليقة حكمه، وقامت السماوات والأرض وما بينهما على ميزانه الدقيق المحكم، الذي لا يعتريه خلل ولا قصور ولا تفاوت.

قال تعالى في سورة الملك: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١).

وقال جل وعلا في سورة النمل: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (2).

وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٣) أي: وضع العدل بينها وبين الأرض في الخلق بحيث لا يبدو بينهما تفاوت ولا نشاز.

ولذلك قالوا: "العدل أساس الملك" يعنون أن ملك الله عز وجل قام على أسس ثابتة وموازين دقيقة ليس فيها أدنى انحراف؛ إذ وضع الحكيم الخبير كل شيء في موضعه بعناية وتقدير، لا يصل إلى كنهه أحد من العالمين؛ فبالعدل قامت السماوات والأرض.

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٤).

---

(١) الآيات: ٣ــ ٤.
(٢) الآية: ٨٨.
(٣) الرحمن: ٧.
(٤) الآيات: ٥٣ ــ ٥٤.

وقد نظرت في هذا الاسم أيضاً نظرة تأمل واستبصار، فوجدت أنه يتضمن أربعة أمور متلازمة أيضاً:

الأول: وجود قضية تستدعي حُكماً، والحكم يستدعي حكماً، والحَكَمُ من شأنه أن يكون عدلاً، والعدل لابد أن يكون منزهاً عن الظلم تنزيهاً تاماً، ومن هو إلا الله؟!

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾. أي: وما ربك بمنسوب إلى الظلم أصلاً، فظلام صيغة تدل على النسب كخباز وحداد وبقال... إلخ.

وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [١].

الثاني: وجود ميزان دقيق، يتم به الحكم على وجهه المرضي عند أهل الحل والعقد، من ذوي العقول النيرة، والقلوب المبصرة.

وهذا الميزان يتطلب من يجيد استعماله بدقة بحيث لا يميل عن الوسطية أدنى ميل، ومن يقدر على ذلك إلا الله؟!

نحن إذا وصف الرجل منا بالعدالة، فإنما يكون هذا الوصف بقدر حاله ووسعه، والعدل على الإطلاق هو الله .

ولهذا قال النبي ﷺ: "إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا".. أي: الزموا السداد في أقوالكم وأفعالكم على قدر طاقتكم، فإن فاتكم السداد، فقاربوه.

وللكون ميزان قد عرفناه على وجه التقريب لا على وجه التحديد، وللشريعة الغراء ميزان قد أنزله الله في كتابه العزيز وهو أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [٢].

---

(١) النساء: ٤٠.   (٢) الآية: ٢٢٨.

ويقول جل شأنه في سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١).

الثالث: معرفة الحكَم بما يضر وينفع عاجلاً وآجلاً، حتى يكون حكمه على الأشياء صحيحاً، يتجلى فيه العدل في أسمى صوره وأرقى معانيه، ومن هو إلا الله؟!

يقول الله عز وجل في سورة الملك: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

ويقول في سورة النجم: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (٣).

الرابع: وجود القدرة للحكم العادل في الأرض والسماء، والقادر ـــ على الحقيقة ـــ هو الله وحده، فهو إذا حكم عدل بكل ما يشتمله هذان الاسمان من المعاني المتلازمة. وعلى المؤمن ألا يرى في الوجود حكماً عدلاً إلا الله.

وحكام الأرض إن عدلوا أحبهم الله ورزقهم محبته، ورضي عنهم ورضوا عنه، وآتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٤).

وبعد: فإن أسماء الله الحسنى ما هي إلا مصابيح تنير الطريق إلى من تسمى بها، فمن دعاه بها فقد وصل واتصل وبلغ المنزل إلى ساحة القرب وحضرة القدس، فكان عبداً ربانياً إذا دعاه، أجابه.. وإذا بلغ هذه المنزلة، لا يدعوه إلا بخير، ولا يسأله إلا الرحمة والمغفرة.

﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٥).

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٦).

---

(١) الآية: ٥٨.
(٢) الآية: ١٤.
(٣) الآية: ٣٢.
(٤) الرعد: ٨ ـــ ٩.
(٥) الإسراء: ١١٠.
(٦) آل عمران: ٨.

اللطيف "جل جلاله"

الله لطيف في ذاته، وصفاته، وأفعاله، فسبحان من لا يعلم ذاته إلا ذاته، وسبحان من لم يحط بصفاته إلا هو، ولا يعرف كنه أفعاله وأسرارها أحد سواه.

يقول الله عز وجل: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1].أي: لا تراه الأعين المبصرة ولا البصائر النيرة، فالأبصار: جمع بصر، والبصر: حاسة الإبصار، وهي نوعان: حسية ومعنوية، فالحسية هي العين، والمعنوية هي القلب، فالعين لا تراه؛ لأنه ليس كمثله شيء، والقلب لا يراه؛ لأنه فوق تصوره، ولكن يشعر بآثاره فيحكم بوجوده، ويشعر بافتقاره إليه، ويشهد بجلاله وجماله وكماله بمقتضى فطرته التي فطره عليها؛ فهو اللطيف الذي احتجب بقوة ظهوره عن جميع خلقه.

وهذا هو المعنى الأول من معاني اللطيف. يقال: لطف الشيء أي: خفي ودق واستتر.

فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ فهمت هذا المعنى، وفهمت معه معنيين آخرين سيأتيك بيانهما بعد أن نشير إلى ما في هذه الآية من اللطائف التي تمهد لهما.

فنقول: الإدراك إنما يكون بالعقل أو بالحس أو بهما معاً.

أما العقل فإنه يتصور الأشياء التي لها وجود في الخارج فيصدق ما يدركه أو يكذبه، وتصوره لها يكون على نحو ما، والحواس تدرك الماديات إدراكاً يزيل الخفاء ويرفع الإشكال إلى حد ما، فكيف يدرك العقل والحس ذاتاً ليست كالذوات؟! وصفات ليست كالصفات؟! وأفعالاً لا يتصور العقل ولا الحس كنهها، ولا يحيط بأسرارها وآثارها، وأبعادها ومقاديرها؟! إلى غير ذلك مما يطول أمده ولا يحصى عدده.

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

فالله إذن لطيف بمعنى: أنه جل شأنه قد احتجب عن جميع خلقه بقوة ظهوره وبنوره الذي عم الوجود كله:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فكل من في السماوات والأرض مغمورون بنوره، فكيف يرونه بأبصارهم أو ببصائرهم في الدنيا، ولكن المؤمنين منهم يرونه في الآخرة من غير آلة ولا جهة ولا بعد معين.

والله وحده هو الذي يعلم كيف يرونه حين يتجلى عليهم بنوره فينسون حين يرونه نعيم الجنة؛ لأن نعيم الرؤية أسمى وأجل، وفي نفسي خواطر إيمانية تريد أن تنبعث من قلبي إلى هذه الصفحات، ولكني أحجر عليها مخافة التطويل، فلننتقل سريعاً إلى المعنى الثاني من معاني اللطيف فنقول:

اللطيف: هو الذي يرى ما خفي واستتر من الأمور الظاهرة والباطنة، فكل ظاهر لدينا ندركه بعقولنا وحواسنا، فيه ـ ولا شك ـ أشياء وأشياء مغيبة عنا قد تكشف الأيام عن بعضها، ويظل بعضها الآخر مجهولاً عنا مع أننا نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا، فلا يقولن قائل: إن هذا الشيء ظاهر نعرف حقيقته وأبعاده ومقداره إلي آخره؛ فإن وراء الحقيقة الظاهرة حقائق كثيرة مستترة وراءها، لا يعلمها إلا اللطيف الخبير، فكيف بالأمور الباطنة التي لا يتصور وجودها عقل؟!

إن الإنسان محصور في حدود نفسه ودائرة أرضه، لا يعلم من أمره شيئاً إلا إذا علمه الله؛ فعلمه محدود وعلم الله بلا حدود.

وهذا المعنى الثاني يحمله قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١).

فاللطيف في هذه الآية معناه: الذي يعلم ما لطف من الأمور الحسية والمعنوية، أي: ما خفي واستتر ودق فهمه على الخلق جميعاً.

---

(١) الآية: ١٦.

فهو يعلم الذرة الكامنة في الصخرة الصماء، ويحيط بحقائقها ودقائقها وأحجامها وأوزانها، وآثارها وصلتها بغيرها وتفاعلها مع ما يماثلها، ويقدر على إخراجها من بين ما لا يحصى عدده من الذرات المتجانسة وغير المتجانسة، ويقدر على الإتيان بها سواء كانت هذه الصخرة في السماوات أم في الأرض؛ فلا يغيب عن علمه شيء.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

والمعنى الثالث لهذا الاسم العظيم: هو اللطيف بعباده؛ فقد أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأفاض عليهم من واسع رحمته ما لا يعلمونه على الوجه الذي يستطيعون شكره عليه كما ينبغي.

وهذا المعنى يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (٢).

ومظاهر لطفه بعباده لا تنحصر، وما على الإنسان إلا أن يتتبع آثار رحمته. ولو في خاصة نفسه؛ فإنه سيرى حتماً أنه مغمور في نعمه، وعندئذ لا يسعه إلا أن يسبح بحمده ويقدس له، ويشهد أنه أرحم بعباده من أنفسهم على أنفسهم.

ثم عليه أن ينظر في المحن نظرة إيمانية؛ فإنه سيرى فيها شيئاً لا يستهان به من لطف الله عليه؛ فكل محنة فيها منحة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

فاليسر يصحب العسر ولا يأتي بعده في الحقيقة، وإن تبادر إلى الأذهان أن العسر يأتي وحده، واليسر يأتي بعده؛ فالمعية تقتضي المصاحبة، فإن وقع المرء في محنة، فليتصور فيها المنحة وليتوقع ظهورها، وقد لا تقع ساعة وقوع

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الشورى: ١٩.

المحنة وتظهر بعدها، فيظن أن اليسر جاء بعد العسر، وليس كذلك في الحقيقة، كما ذكرنا.

يقول رسول الله ﷺ توكيداً لهذا المعنى في الحديث الصحيح: "واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً ".

ولطف الله تبارك وتعالى عام وخاص، فهو عام لجميع خلقه بلا استثناء؛ إذ دبر أمورهم تدبيراً محكماً يحفظ لهم وجودهم، ويضمن لهم ما يحتاجون إليه في يسر من غير مشقة تخرج بهم عن طاقتهم، فهو جل شأنه قد أعطاهم قدر الكفاية وكلفهم دون الطاقة.

قال تعالى ــ حكاية عن جواب موسى على سؤال فرعون ــ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾، أي: أعطى كل شيء ما يناسبه وألهمه ما يحفظ به نوعه، ويحقق به حاجته.

وقال جل شأنه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾. وقال عز شأنه: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا ﴾. وهذا لطف من الله بعباده جميعاً.

وأما لطفه الخاص فلا يعرفه إلا الخواص؛ لأنه دقيق في معانيه ومراميه، ودقيق في كل شيء هو فيه، فهم يرون الخير كل الخير فيما يختاره الله لهم لا فيما يختارونه لأنفسهم؛ وقوفاً عند قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ ﴾ (١).

وعند قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢).

فهذا يوسف عليه السلام قد اعتبر كل ما أصابه من المحن منحاً ساقها الله إليه بلطفه الخفي، حتى صار ملكاً متوجاً بعد أن كان طريداً مشرداً. حبيسَ جب ونزيلَ سجن، لقد أعزه الله بعزة النبوة والرسالة قبل عزة الملك والسلطان، وجمع عليه أبويه وإخوته بعد طول التنائي على الحب والوفاء والصفاء، فلولا

---

(١) القصص: ٦٨.   (٢) الأحزاب: ٣٦.

أن إخوته كادوا له ما وصل إلى مصر، ولولا مراودة امرأة العزيز له ما دخل السجن، ولو لم يدخل السجن ما عرف الساقي أنه يحسن تعبير الرؤى، ولو لم ير ملك مصر ما رأى في منامه ما خرج من السجن، ولو لم يكن يوسف عليه السلام يحسن التعبير ما بوأه الملك هذه المنزلة التي أتاحت له أن يتصرف في أرض مصر كيف يشاء، ــ ولولا الجدب الذي حدث في الشام ما جاء إخوته إليه في مصر، إلى آخر هذه الأحداث التي رتب الله بعضها على بعض، والتي كان من آثارها هذا التلاقي المهيب؛ الذي عبر عنه يوسف عليه السلام بقوله: كما حكى الله عنه: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: إن ربي يدبر لما يشاء تدبيره بلطف خفي يغيب فهمه عن أولي الأحلام والنهى.

وهذا تعبير صادق عن منتهى الرضا بقضائه وقدره، وعن عظيم شكره له جل شأنه على وافر نعمه. وتغطية لكل ما بدر من إخوته من أفعال دفعهم إليها الشيطان دفعاً، وإزالة لآثار هذه الأفعال، وترضية لأبويه وإخوته وأهله جميعاً، وإشارة منه إلى تغليق أبواب العتاب وطي صفحات الماضي المعتم.

والمسلم الحق من ينظر إلى لطف الله تعالى بعباده بوجه عام فيلهج بأسمائه الحسنى التي تحمل هذه المعاني، وهي: الرءوف والرحيم والغفور والبر والعفو والحليم... إلى غير ذلك من أسماء الجمال والجلال والكمال.

ثم ينظر إلى لطف الله به بوجه خاص حتى يتعرف على نعم الله عليه، فيشكر ما وسعه الشكر، ولن يستطيع أن يوفي الله حقه في ذلك، ولكن حسبه من الشكر أن يعترف لخالقه ومولاه بعجزه عن الشكر؛ فالاعتراف بالعجز عن الشكر عين الشكر، كما يقول العارفون بالله، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه ولطفه.

واعلم ــ أيها الأخ المسلم ــ أنه ما من مسلم تصيبه مصيبة إلا ولله فيها عليه ثلاث نعم:

الأولى: أنها لم تكن في دينه، وكل ما سوى ذلك هين.

قال القشيري رحمه الله: "واعلم أن ما فاتك سوى الله قليل..".

وقال أبو الفتح البستي رحمه الله:

وكل كســـر فإن الله يجبُرُهُ   وما لكسر قناة الدين جُبْرَانُ

والثانية: أنها لم تكن أكبر من ذلك؛ فإنه من نظر في مصائب الناس هانت عليه مصيبته.

والثالثة: أن الله عز وجل يلهمه الصبر عليها؛ لأنه مؤمن، والإيمان نصفه صبر ونصفه شكر؛ ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.. ﴾ أي: لكل مؤمن متسلح بالصبر والشكر؛ فهما صنوان يعبر بهما المؤمن عن الرضا التام بقضاء الله وقدره.

وإذا شعر المسلم بلطف الله تعالى في جميع أموره، واستوعب الدرس استيعاباً جيداً من القرآن الكريم والسنة المطهرة ــ صار لطيفاً بنفسه لا يغضب ولا يثور لأتفه الأسباب، ولا يجزع لما أصابه، ولا ييأس مما ينتظر وقوعه، ولا يتفوه بألفـــاظ تعبر عن تبرمه بما أراده الله له وقـــدّره عليه؛ إيماناً بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وإذا شعر بلطف الله عليه ينبغي عليه أيضاً أن يكون لطيفاً بإخوانه وجيرانه ومن يسوسهم أو يتولى أمرهم: "والراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" كما قال رسول الله ﷺ.

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق.

الخبير "جل جلاله"

لا يعرف المرء معنى من معاني أسماء الله الحسنى على وجه الحقيقة إلا إذا استفتح بالذي هو خير، واستعان بمن له هذه الأسماء الحسنى وتلك الأوصاف العلى، فإن جلالها يتأبى على الكشف لمن ليس له نور من ربه يكشف به تلك المعاني السامية، التي تسمو بمن عرفها إلى الآفاق الرحبة من العلم اللدني المشرق.

وذلك لأن للجلالة مهابة تحول بين العبد وقلبه، إذا لم يكن لقلبه نور قد اكتسبه من كثرة الذكر والفكر؛ فإن القلوب هي التي تعقل عن الله بأمر الله، وتتلقى منه العلم والخبرة.

فإذا سلم القلب من الآفات التي تقدح في العقيدة، وتؤثر في جوها الصافي تأثيراً يكدّر جلوته ــ أبصر حقائق الأشياء على ما هي عليه، ولاح له من المعاني ما يعمق جذور الإيمان فيه.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [١].

إن العقل مصباح القلب، وهذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة متألقة الضياء أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي كلمة التوحيد، فلا يكون المرء عاقلاً بمعنى الكلمة إلا إذا غرست هذه الشجرة في قلبه، واتصل هذا القلب بمقلب القلوب وعلام الغيوب جل جلاله، وعندئذ يكون لهذا القلب المبصر جلال يعرف به كنه الجلال الإلهي على قدر طاقته البشرية، وبحسب قوته الإيمانية.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٢].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [٣].

---

(١) الحج: ٤٦.   (٢) النور: ٣٥.   (٣) النور: ٤٠.

وبنور الله عز وجل يخرج المرء من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وللأسماء الحسنى مع الجلال جمال، يتجلى لأصحاب البصائر النيرة؛ فيخفف عنهم ما يجدونه في أنفسهم من مشاعر الخوف والرهبة فيعتدل حالهم مع الله عز وجل؛ إذ يتقلبون بين الخوف والرجاء في بحبوحة من الجلال والجمال، ويكونون من الذين قال الله فيهم: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (١).

ولقد وقفت طويلاً أتأمل في معنى هذا الاسم العظيم، وقلت في نفسي: ما الفرق بين العليم والخبير؟ واستعنت بالله عز وجل وسألته الهداية والرشد والتوفيق إلى فهم معنى واحد أو معنيين من معانيه، ومعرفة الفرق بينه وبين العليم، وغيره من الأسماء المتشابهة، كاللطيف والسميع والبصير.

ففتح الله عليّ في ذلك فتحاً أبوح به على هذه الصفحات، وأنا أعترف بعجزي مسبقاً عن التعبير الذي يجعل القارئ يشاركني هذا الفهم الذي منَّ الله به عليَّ. لكن ما لا يدرك كله لا يترك كما يقولون.

أقول ـــ وعلى الله قصد السبيل ـــ: الخبير هو الذي يعلم ما يحفظ به خلقه على النحو الذي أراده وقدره، علماً يدبر به شئونهم تدبيراً محكماً في غاية اللطف والدقة، ويخبر من شاء من عباده بما شاء من أمور ملكه، ويلهمه ما شاء أن يلهمه. لحفظ نوعه وتدبير شئونه، ويهدي جميع الخلق إلى تحقيق ما أراده منهم على النحو الذي قدَّره لهم، وبحسب الميزان الذي وضعه بينهم؛ من أجل أن يرتبط الكون كله بعضه ببعض من غير خلل أو تفاوت.

ومن هذا يتبين لنا أن لهذا الاسم العظيم معنيين:

الأول: الخبير بشئون خلقه إيجاداً وتدبيراً، وهداية وتنسيقاً، وتوفيقاً لا يعتريه أدنى تفاوت، ولا يغيب عن علمه ما لطف من الماديات والمعنويات.

---

(١) الإسراء: ٥٧.

قال تعالى: ﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

وقال عز من قائل: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣).

فهذه الآيات وكثير أمثالها تدل على العلم المقرون بالخبرة، والخبرة أخص من العلم بمعنى: أن العلم هو الإحاطة التامة بجميع ما كان وما يكون وما هو كائن، والخبرة هي العلم ببواطن الأمور التي يتم بها التدبير والتصريف وإعطاء كل ذي حق حقه من الخلق والتكوين والعناية والحفظ، وتيسير كل مخلوق لما خلق له وفق هذا العلم المحيط، والإرادة النافذة، والقدرة المنفذة.

يقول الله عز شأنه: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٤).

لقد أجاب موسى عليه السلام فرعون حين سأله عن ذات ربه بما يدل عليها من صفاته؛ فالذات لا يدرك كنهها، فسبحان من لا يعلم ذاته إلا ذاتُه فقال: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أي: ما يناسبه في تأدية وظيفته التي خلقه من أجلها، ومنحه القدرة المادية والمعنوية على إثبات ذاته وتحقيق رغباته فيما أراده ربه وقدره.

---

(١) الملك: ٣.

(٢) الملك: ١٣ــ ١٤.

(٣) سبأ: ٢ــ ٣.

(٤) طه: ٤٩ــ ٥٠.

ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ هداه إلى طريق الخير وطريق الشر، وخيره بينهما. فمن شاء ضل عن السبيل السوي، ومن شاء اهتدى.

هذا هو المعنى الأول، وهذا هو الفرق بين العليم والخبير، على ألا يغيب عن ذهنك أن مسمى هذه الأسماء واحد وأنها توحدت بتوحيد الذات. فهو ــ جل شأنه ــ كما قال المحققون ــ واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهنك ــ أيضاً ــ أن أسماء الله كمالية بمعنى أنها ليست مترادفة ولا متغايرة، وإن بدا فيها التغاير لغير المتأمل.

فاللطيف مثلاً هو الذي يعلم ما لَطُفَ أي: ما دقَّ وخفي مما كان ومما يكون ومما هو كائن، وهو الخبير الذي يحيط خُبْراً بهذه الدقائق كلها، وهو العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وهو السميع الذي وسع سمعه الأصوات، وهو البصير الذي أحاط بجميع المبصرات. وكلها تتعاون على إثبات الكمال المطلق لله جل شأنه.

فلا يمكننا أن نفهم معنى اسم من أسمائه الحسنى، وهو مقطوع الصلة عن سائرها. فإذا ذكرت الله باسم وأنت تفهم معناه ــ تبعك الذي قبله والذي بعده، وطالبك طلباً حثيثاً أن تذكر الله به، وأن تضيف معناه إلى معنى الاسم الذي ذكرته به من قبل. فتأمل ذلك وبالله توفيقك.

أما المعنى الثاني من معاني الخبير فهو المُخْبِر.

قال جل شأنه: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [1]. أي: ولا ينبئك أحد عما تريد معرفته مثل مخبر، والمخبر الحق هو الله عز وجل.

تقول سألت خبيراً عن كذا وكذا فأخبرني بما سألت عنه. إذاً فالخبير هنا هو المُخْبِر.

والعرب تستعمل صيغة "فعيل" بمعنى مُفْعِل، فيقولون: سميع بمعنى مسمع، وبصير بمعنى مبصر، وبديع بمعنى مبدع، وأليم بمعنى مؤلم.

---

(١) فاطر: ١٤.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم نحواً من أربعين مرة مفرداً تارة، ومقروناً بالعليم تارة، وبالحكيم تارة، وباللطيف تارة، وبالبصير تارة أخرى. لما بين هذه الأسماء من تشابه في المعنى.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾(١).

ويقول الله جل شأنه: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

ويقول عز من قائل: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾(٣).

ويقول سبحانه: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٤).

وجاء مفرداً في مثل قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ (٥). ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ (٦).

وبعد: فهذا ما وسعني أن أسطره في هذه الصفحات من المعاني التي احتواها هذا الاسم العظيم، وما علينا إلا أن نستلهم رشدنا في معرفة أسمائه الحسنى من القرآن الكريم، مستعينين بالله عز وجل على فهم ما يستعصي علينا فهمه، ضارعين إليه، خاشعين له، مكثرين من ذكره وشكره والصلاة على نبيه محمد: خاتم الأنبياء وأكرم المرسلين.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) الأنعام: ١٨.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) التحريم: ٣.
(٤) الإسراء: ١٧.
(٥) الفرقان: ٥٩.
(٦) العاديات: ١١.

الحليم "جل جلاله"

الحلم بالنسبة للبشر هو: كظم الغيظ، وضبط النفس عند الغضب، وحملها على العفو والصفح، وصرفها عن التفكير في الانتقام ممن أساء وظلم وتعدي حدود اللياقة والأدب، ومعالجة الأمور في تؤدة واتزان، ودرء السيئة بالحسنة، واحتمال المكروه في تَصَبُّرٍ وجلد، والتماس العذر للجاهل، والتبسط معه في الحديث، والبشاشة في وجهه، واستدراجه إلى الحق، وحمله على فعل ما ينبغي أن يفعل بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار الهادئ الهادف.

هذا هو الحلم بالنسبة للبشر في أسمى مظاهره وأرقى معانيه، وهو أحسن ما يتعامل به الناس فيما بينهم؛ فبه يتعارفون، وبه يتحابون ويتآلفون، وعلى أساسه يتعاونون على كبح جماح الشر ونشر السلام في ربوع الأرض كلها.

وهذا الحلم الذي وصفناه ذرة من بحار حلم الله على عباده.

ونحن عاجزون ــ لا محالة ــ عن إدراك كنهه ومعرفة أسراره وآثاره؛ وذلك لأمرين:

أحدهما: قصور العقول عن إدراك الجلال والجمال والكمال في أسمائه الحسنى على الحقيقة.

وإن كان هناك إدراك لمعانيها، فإنما هو على قدر نور بصائرنا وسلامة قلوبنا.

الثاني: أن أسماء الله الحسنى متداخلة متلازمة، كل اسم له مع غيره صلة وثيقة؛ فهي كل لا يتجزأ.

وقد علمنا ــ من خلال دراستنا للأسماء السابقة ــ أن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومن هنا صعب علينا أن نجعل لكل اسم من الأسماء معنى يخصه ولا يتعداه إلى غيره.

فقد يقال: ما الفرق بين الحليم والرحيم، والرءوف، والعفو، والغفور، والبر، والتواب، واللطيف، والكريم؟ فنحاول جادين أن نلتمس الفرق هنا وهناك، ومع ذلك يبقى القاسم المشترك بين هذه الأسماء وغيرها من أسماء الله الحسنى قائماً يتحدى الراسـخين في العلم، فلا يسـعهم إلا أن يقولوا كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وإن حاولنا أن نلتمس الفرق بين هذه الأسماء المتشابهة واجهتنا مسألة أخرى لا تقل أهمية عن هذه المسألة، وهي التوفيق بين الأسماء التي تبدو لغير المتأمل أنها متضادة، كالحليم والمنتقم؛ فإن الحلم ينافي الانتقام عند من لا علم له بحقيقة الأسماء الحسنى.

ولكني بعد هذا البسط أقرر ــ وأنا مطمئن القلب ــ أن حلم الله على عباده وصف يشمل بعمومه جميع الأسماء التي فيها معاني اللطف والرحمة والرأفة والعفو والبر.

فهو جل شأنه يمهل عباده بعد إنذارهم بانتقامه منهم بسبب ذنوبهم ليتوبوا، فإن تابوا قَبِل توبتهم وعفا عنهم وبَدَّل سيئاتهم حسنات، وإن عادوا إلى الذنب أمهلهم أيضاً، فإن تابوا قَبِلهم وغفر لهم، ولا يزال جل شأنه يمهل عباده ليتوبوا، ولا يغلق باب التوبة عنهم أبداً ما داموا يخلصون له فيها.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢).

والغفار هو الذي يعفو ويصفح ويتجاوز عن عبده التواب.

والعفو معناه: ترك العقاب، والصفح ترك العتاب، والغفر محو آثار الذنب بالكلية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السـيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَـلُونَ﴾(٣).

ومن حلمه على عباده أنه هو الذي يَمُنّ عليهم بالتوبة ويوفقهم إليها، وهي

---

(١) البقرة: ٣٢. (٢) طه: ٨٢. (٣) الشورى: ٢٥.

نعمة من نعمه الكبرى على من عصاه وأساء الأدب معه، فأي حلم هذا، وكيف نستطيع أن ندرك أبعاده وهو لا يُحَدُّ بحد.

ومن حلمه بعباده أنه يرزق الكافر من رحمته الواسعة وفضله العظيم وهو على ما هو عليه، فلا يقطع عنه المدد ولا يمنع عنه الرِّفد والعطاء.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ (١).

وليس معنى الحلم ترك العقاب بالكلية، فهذا أمر يتنافى مع العدل السماوي ومع سنن الله الكونية، فهو يمهل ولا يهمل؛ لأن من العدل وضع الأمور في موضعها.

فالحلم لمن يستحقه، والانتقام لمن لم يُجْدِ فيه الحلم.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾(٢).

وقد جرت سنة الله في عباده أن يرسل إليهم المرسلين مبشرين ومنذرين، فإذا عصوا الرسل ولم يظهر منهم قبول للهداية أخذهم فلم يفلتهم.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٣).

وقال جل شأنه: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤).

فالله عز وجل يَحْلُم على قوم ويغضب على آخرين وفق حكمته البالغة وتقديره الدقيق لكل شيء، فلا يُسأل لماذا عفا عن فلان وانتقم من فلان؛ فإن السؤال عن ذلك ذنب يعاقب العبد عليه ما لم يتب منه.

---

(١) فاطر: ٣٥.
(٢) مريم: ٧٥.
(٣) هود: ١٠٢.
(٤) العنكبوت: ٤٠.

﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (١).

ومن هذا البيان نستطيع أن نعرف التلازم بين حلم الله وغضبه؛ فهو جل شأنه حليم على من يستحق أن يحلم عليه، ومنتقم من كل من يستحق الانتقام.

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٢).

وإن أردت ــ أيها القارئ الكريم ــ أن تتعرف على بعد من أبعاد حلم الله عز وجل فانظر في قصص القرآن الكريم كيف وسع حلمه كثيراً من الأفراد والأمم من الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد.

انظر مثلاً: كيف أمهل الله قوم نوح عليه السلام فلم يعذبهم بالطوفان إلا بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً، حين أصروا واستكبروا استكباراً ومكروا بنوح ومن معه.

وانظر إلى فرعون وقومه كيف أملى لهم ومَدّ لهم حبال الحلم مَدًّا؛ حتى ظنوا أنهم لا يهلكون أبداً، وأعلنوا أنهم لن يستجيبوا لله ورسوله مهما كان الأمر ولو ضاقت بهم الأرض بما رحبت.

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

فعندئذ أخذ الله في الانتقام منهم بمحن كثيرة يتلو بعضها بعضاً، فما استقاموا لله وما خضعوا لله فكانت آخر محنة هي الغرق في البحر الخضَم.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ (٤).

إن قصص القرآن الكريم منهجٍ تربوي حكيم، يحمل إلينا قصة البشرية كلها بخيرها وشرِّها، نتعرف من خلاله على بصيص من حكمة الله في خلقه وحلمه على عباده وتجاوزه عن سيِّئاتهم على كثرتها.

وما علينا إلاَّ أن نتدبر القرآن كما ينبغي أن يكون التدبر، فإننا لو أحسنا

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) الحجر: ٤٩: ٥٠.

(٣) الأعراف: ١٣٢.

(٤) الزخرف: ٥٥: ٥٦.

تدبره ــ لعرفنا أن حلم الله عز وجل قد سبق غضبه، وأن عافيته قد سبقت عقابه، وأنه من رحمته أن أرسل إلينا الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب التي تهدينا سواء السبيل، والقرآن أعظمها؛ فهو المهيمن عليها، فلنستلهم منه رشدنا، ولْنَحْتَكِمْ إليه في جميع أمورنا، ولنتعلم كيف يكون الحلم؛ فإنه من الواجب علينا أن يكون لنا من الحلم نصيب؛ فإنه من تعامل مع الناس بالحلم، عامله الله بالحلم. والجزاء من جنس العمل.

والمؤمن ــ كما قال النبي ﷺ: "بطيء الغضب سريع الفيء" وذلك لقوة إيمانه وصدق يقينه ورجاحة عقله.

ولقد قالوا: إن الحلم هو العقل، ومنه قوله ﷺ: "وليليني منكم أولوا الأحلام والنهى"، أي: ليكن خلفي في الصلاة أصحاب العقول النيِّرة والقلوب المبصرة.

فالأحلام جمع حِلم ــ بكسر الحاء ــ وهو العقل ــ كما ذكرنا ــ والنهى جمع نُهْيَة، وهو القلب الذي تنتهي إليه الحكمة وتتبع منه.

وبعد: فكأني بعد هذا البيان لم أقل شيئاً في معنى الاسم العظيم، ولكن هذا جهدي، وهو جهد المُقِلّ، والله هو الفتاح العليم، يفتح على عباده بما شاء متىَ شاء وكيف شاء.

﴿ مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

---

(١) فاطر: ٢.

العظيم "جل جلاله"

كل اسم من أسماء الله الحسنى محور تدور حوله سائر الأسماء، حتى لَيَبْدُو لنا عند النظر إليها مجتمعة كأنها اسم واحد، وذلك لأن كل اسم منها يدل بمفرده على منتهى الجلال والكمال، بحيث لو ذكرنا الله بأي اسم من أسمائه الحسنى استدعى ذكره جميع الأسماء والصفات، واستحضرها في ذهن الذاكر وقلبه؛ فالاسم عين المُسمَّى بالنسبة للذات العلية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (١).

فالعظيم اسم من أسماء الله الحسنى، يشعرنا بأنه جل جلاله ليس لعظمته بداية ولا نهاية، فهو العظيم في ألوهيته، تَعبَّد الخلقَ جميعاً طوعاً وكرهاً، ودانوا لعظمته وكبريائه، وخضعوا لقهره وجبروته، فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا حول لهم مع حوله، ولا قوة لهم مع قوته.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

فهو العظيم في رحمانيته، يتجلى على عباده بواسع رحمته، ويَعُمُّهم بعظيم فضله وإحسانه، ويكون أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

وآية العظمة في رحمانيته أنه يرزق من عصاه، ويتجاوز عن كثير وكثير من ذنوبه وهفواته، ويؤخر عقوبته على بعض ذنوبه لا على جميعها إلى يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً. ولولا رحمته بعباده لأهلكهم جميعاً بذنوبهم، وهو الغني عنهم، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم. قال جل شأنه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(٣).

---

(١) الإسراء: ١١٠.　(٢) الإسراء: ٤٤.　(٣) فاطر: ٤٥.

وهو عظيم في ملكه، يُدَبِّرُ الأمر فيه تدبيراً دقيقاً محكماً لا تناقض فيه ولا اختلاف، حسب علمه المحيط بما كان وما يكون وما هو كائن، ووفق إرادته التي لا تُرَدُّ، وبقدرته التي لا تُحَدُّ بِحَدّ.

فالمُلك كله بيده، ليس فيه عوج ولا تفاوت ولا أدنى خلل، قائم عليه بذاته، ليس معه إله غيره، وليس لأحد فيه ذرة ولا أدنى منها.

وهو العظيم الذي ذلت لعظمته جميع الكائنات، وتلاشت أمامها عظمة العظماء من الإنس والجن؛ فكانوا ولا يزالون في أتم الافتقار إليه جل شأنه، وكان هو في أتم الغنى عنهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (١).

وهو العظيم في حكمه بين عباده؛ فقد تنزه عن الظلم بكافة صوره تنزيهاً تامًّا، وجعله بين عباده مُحَرَّمًا، فلا يعاقب إلا بذنب، ولا يؤاخذ الناس بذنوبهم إلا بعد أن يقيم عليهم الحجة ويعطيهم المهلة الكافية للتوبة والاعتذار.

وهو العظيم في لطفه بعباده في جميع أحوالهم، يُقدِّرُ لهم الخير حيث كان، ويُغيثهم برحمته كلما لجأوا إليه بأكف الضراعة وخالص الدعاء.

وهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٣).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٤).

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (٥).

---

(١) فاطر: ١٥: ١٧.
(٢) البقرة: ١٨٦.
(٣) غافر: ٦٠.
(٤) الشورى: ٢٥ــ ٢٦.
(٥) الشورى: ١٩.

وهكذا نرى عظمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ماثلة في جميع أسمائه الحسنى وأوصافه العُلَى، مستعلية على كل عظيم، قائمة بالحجة على كل نفس، مهيمنة بالقدرة والقهر على كل شيء، يشعر بها المؤمن في قلبه وفي كيانه كله، فيخشى جبروته، ويخضع لجلاله، ويستجيب طوعاً وكرهاً لإرادته النافذة وقضائه الذي لا يُرَدُّ.

ومن المعروف في اللغة أن العظيم هو السيد، الذي يفوق قومه ويتميز عليهم بخُلُقه الفاضل أو بماله الكثير أو بقوته في العلم والجسم أو ما إلى ذلك من مؤهلات السيادة، فيقال: عظيم القوم أي: سيدهم، كما جاء في الحديث: "من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم" يعني: ملكهم ورئيسهم.

ولا شك أن العظيم في شيء تراه هزيلاً في شيء آخر، والكمال لله وحده؛ فهو صاحب العظمة التامة في كل شيء، وأسماؤه الحسنى شاهدة على ذلك، فأنت ـ أيها القارئ الكريم ـ حين تقرأ هذه الأسماء تشعر بالعظمة فيها جميعاً، كما أشرت إليك بذلك من قبل.

وقد جمعت آية الكرسي مظاهر العظمة كلها، ولهذا ختمت بهذا الاسم؛ للدلالة على أنه فلك تدور حوله وتنطلق منه، وتنتهي إليه جميع الأسماء والصفات والأفعال الربانية.

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

فقد بدأت هذه الآية بالعَلَم على الذات العلية، وهو الاسم الذي ترد إليه جميع الأسماء والصفات، واقترن هذا الاسم بإثبات الأحدية على أكمل وجه وبأبلغ بيان. ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو. ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾

(١) البقرة: ٢٥٥.

الذي لا أول لوجوده ولا منتهى لأبديته، القائم على كل شيء، المدبر لكل شيء، الذي لا تقهره سنة ولا يغلبه نوم، وانتهت هذه الآية بهذين الاسمين للدلالة على كمال الأحدية في الذات والصفات والأفعال، فهو عَلِيٌّ منزه عما لا يليق بذاته، عظيم في صمديته، له الحمد كله في الأولى والآخرة، لا يعرف كنه عظمته إلا هو جل شأنه.

وكل عظيم من المخلوقات يُدرك مداه ويُعرف منتهاه بالبصر أو بالبصيرة، فإن لم يعرف مداه ومنتهاه كان في الإمكان أن يُقَدّر ذلك على وجه التقريب أو التخمين والادعاء؛ لأن عظمته محدودة بقدر حجمه المادي أو المعنوي.

أما الخالق جل شأنه فعظمته لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها البصائر والأفهام، ولا تُحَدُّ بحد، ولا يعتريها نقص؛ إذ لو اعتراه نقص لم يكن خالقا بل كان في عِداد المخلوقات.

يقول الله ـــ عز وجل ـــ: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

والمراد بالأبصار في الآية جميع المبصرات والمُدرِكات، وهي الأبصار التي ترى الشيء في جهة محدودة، وعلى بُعْدٍ مُعَيَن، وبقدر مَا، وفي وقت ما.

والبصائر التي ترى بنور الله ويدخل فيها سائر الحواس كالأذن واليد وغيرها، فالله عز وجل لا تدركه العيون الناظرة، ولا الأسماع الواعية، ولا القلوب المشرقة، ولكن القلوب تعرف شيئاً ما من آثار جلاله وجماله، فتشهد له بالوحدانية المطلقة والعظمة التامة، وتَسْلَمُ بهذه الشهادة من نزوات الشرك ونزغات الهوى، وتتعلق بخالقها بقدر ما فيها من إيمان وخشية.

وإذا سلمت القلوب من الشرك والهوى ارتقت في سُلَّم الكمال البشري إلى مقامات القرب، ودنت من حضرة القدس، فامتلأت حُبًّا وخشية، وأمنت من

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

الغفلة، وأنست بالذكر والفكر، وطَوَّفت في ملكوت السماوات والأرض، ورأت من آيات العظمة الإلهية ما رأت، وأدركت بثاقب الفكر وحلاوة الذكر وقوة اليقين أنه لا إله إلا هو العَلِيُّ العظيم، وهذا هو التوحيد الخالص في أسمى حقيقته وأرقى معانيه.

فالله – عز وجل – قد نصب الأدلة الكونية على وحدانيته في العظمة، فمن نظر أبصر، ومن أبصر عرف، ومن عرف وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل بالله أغناه الله عن النظر في الآيات الكونية، وأشهده على نفسه بالعبودية فلزمها ودان له بها، وعرف أنه جل شأنه هو الدليل على وجود الخلق، وليس الخلق هم الدليل على وجوده.

فالناس في معرفة الله فريقان: فريق يعرف الله بالنظر إلى مخلوقاته، فيشهد أنه الواحد الأحد؛ إذ هو الذي خلق فسوى وقَدَّر فهدى، وهذا الفريق هم عامة الخلق من العارفين.

والفريق الآخر: يعرف الله عز وجل بقلبه دون النظر إلى خلقه، ويسبح بحمده دون حاجة إلى من يأمره بذلك؛ لأنه على الفطرة التي فطره الله غليها، لم يعكر صفوها شيء من الشبهات المغرضة ولا شيء من النزوات الطائشة.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وقد بين الله مقام كل من الفريقين في قوله جل شأنه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢).

فالفريق الأول: يعرف الله من خلال النظر في آيات الله المنشورة في الآفاق والأنفس.

والفريق الثاني: يعرف الله بالله، وبالله يُعْرفُ المخلوقات.

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) فصلت: ٥٣.

يقول قائلهم: عجباً لمن يستدل عليك بمخلوقاتك، وأنت الأول ليس قبلك شيء، والآخر ليس بعدك شيء، والظاهر في كل شيء، والباطن عن كل شيء، فكان الأولى بهم أن يستدلوا بك عليك، وأن يستدلوا بك على خلقك.

والعارفون بالله على درجات، أعظمهم درجة أولئك العلماء، الذين عَلِمُوا وعَمِلُوا، ونظروا فأبصروا الحق فلزموه، وكان الله معهم حيث كانوا، وكانوا مع الله بقلوبهم حيث حلُّوا، فوقعت عظمته في قلوبهم موقعاً جعلتها في كمال الخشية والحضور.

وبعد: فإنه من عرف بقلبه شيئاً من عظمة خالقه ومولاه ـــ لم يسعه إلا أن يتواضع له جل شأنه، ويخشع ويخضع ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه؛ فمن تواضع لله رفعه، ومن تكبر خفضه، ومن اعتزَّ بشيء سواه ذل، ومن طلب الهدى من غيره ضل، ومن توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن اشتغل بذكره فهو في نعيم مقيم.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١).

---

(١) آل عمران: ٨.

الغفور "جل جلاله"

حين يتجه المسلم بمشاعره نحو هذا الاسم، ويتوجه بقلبه نحو من تَسَمَّى به ـ يخالجه إحساس عميق، يناديه من وراء حجاب، يقول له: أقبل بكيانك كله على من عظم فضله لمن لاذ به، وتوكل عليه واحتمي بحماه، اتجه فوراً إلى من وسعت رحمته كل شيء، واتسع حلمه لمن ضاقت عليه نفسه، فلم يجد ملجأ منه إلا إليه، فقال لسان حاله ضارعاً: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا منجاة منك إلا إليك، فتباركت ربنا وتعاليت، ولك الحمد على ما أنعمت به وأوليت.

وهل هناك نعمة بعد الإيمان أعظم من المغفرة؟!

إنها النعمة الكبرى التي يتزحزح به العبد عن النار ويفوز بالجنة، التي فيها من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقول الله عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١).

والمغفرة: هي ستر الذنب ومحوه والتجاوز عنه، والعفو عن صاحبه وتبديل سيئاته حسنات، فهل هناك فضل أعظم من هذا الفضل؟!

فالله عز وجل يغفر لعبده ذنبه كله: صغيره وكبيره، إذا تاب إليه توبة نصوحاً، وبرهن على صدقه في توبته بالعمل الصالح والسلوك النبيل.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّـارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢).

ويقول جل شأنه: ﴿ إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣).

---

(١) آل عمران: ١٨٥. (٢) طه: ٨٢. (٣) الفرقان: ٧٠.

والغفور اسم له دلالات لا تقتصر على المعنى الظاهر المتبادر إلى الذهن، وهو مغفرة الذنوب جميعاً، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

ولكنها دلالات أوسع من ذلك بكثير، تلوح لنا من خلال الآيات التي ذكر فيها هذا الاسم العظيم، فعلى من أراد أن يتعرف على سعة هذا الاسم في معانيه ومراميه، أن يتتبع الآيات التي ذكر فيها هذا الاسم وحده، أو ذكر فيها مقروناً باسم يلازمه كثيراً وهو "الرحيم".

واقرأ ــ على سبيل المثال ــ هذه الآيات وانظر فيها، بتأمل؛ فإنك تجد في كل آية معنى من معاني هذا الاسم يضاف إلى المعاني التي نعرفها من الألفاظ من غير تأمل ولا إنعام نظر.

١ ــ ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢).

فالغفور في هذه الآية: هو الذي يعذر عباده فيما سبقت إليه ألسنتهم من الحلف به دون أن تنعقد عليه قلوبهم، فقد سماه لغواً، أي: لا مؤاخذة عليه ولا لوم ولا عتاب، وهذا تخفيف منه ورحمة، ولو شاء لعاقبنا على هذا الذنب الذي اقترفته ألسنتنا على حين غفلة من قلوبنا.

فمن دلائل هذا الاسم أنه يتجاوز عن عباده فيما لا قدرة لهم على توقيه.

٢ ــ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣).

من هذه الآية نفهم أن الغفور هو الذي يحب من أطاعه وأطاع رسوله، فإذا أحبه غفر له ما تقدم من ذنبه وتولاه برحمته، فرحمته لا تنفك عن مغفرته. فالمغفرة هي عين الرحمة؛ لأن الله عز وجل يهلك الناس في الدنيا والآخرة

---

(١) الزمر: ٥٣.   (٢) البقرة: ٢٢٥.   (٣) آل عمران: ٣١.

بذنوبهم، فإذا غفرها لهم رفع عنهم العذاب كله، ومتعهم في الدنيا متاعاً حسناً وأثابهم في الآخرة ثواباً كريماً.

٣ ـ ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

ومن هذه الآية نعلم أن الغفور هو الذي يكشف الضر عن عباده بغفران ذنوبهم؛ لأنها السبب في هلاكهم، فإذا زال السبب زال المسبب. والمسببات مرتبطة بأسبابها.

ونعلم أيضاً أن الغفور هو الذي إذا أراد بعبده خيراً فلا راد لفضله الناشئ عن غفران ذنوبهم، فالله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً وفقه لطاعته، وعصمه من الذنوب: صغيرها وكبيرها، وغفر له ما سقط منه من هفوات إذا تاب منها واستغفر.

فالغفور إذاً هو الذي يدفع عن عباده الضر، ويبدل عسرهم يسراً وخوفهم أمناً إذا تابوا إليه وأنابوا؛ لأن التوبة سبب في المغفرة، والمغفرة سبب في دفع الضر وجلب الخير.

٤ ـ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٢).

والغفور في هذه الآية هو الذي يعطي عطاء جزلا، ولا يحاسب عليه عباده إن آمنوا به وشكروا له؛ فالإيمان يشتق منه الأمن، فلا أمن لمن لا إيمان له، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾(٣) أي: لهم الأمن وحدهم ليس لأحد سواهم.

والأمن يتبعه الرخاء حتماً، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤).

---

(١) يونس: ١٠٧.
(٢) سبأ: ١٥.
(٣) الأنعام: ٨٢.
(٤) قريش: ٣: ٤.

فإذا آمن العبد بربه وقام بواجب الشكر على نعمه بقدر طاقته البشرية، كان الله غفوراً لذنبه. وإذا غفر ذنبه لم يعذبه في دنياه ولا في آخرته.

ومما ذكرناه يتبين أن المغفرة هي أكبر نعمة بعد الإيمان بلا ريب، وأن الغفور هو الذي لا يدع ذنباً إلا غفره، ولا عيباً إلا ستره، ولا كرباً إلا كشفه، ولا همّا إلا فرجه. لكن لمن تاب إليه توبة نصوحاً مستوفية لشروطها، وهي الندم على الذنب، وعدم العود إليه، وقضاء ما فات من الطاعات، ورد المظالم إلى أهلها أو طلب السماح منهم فيها.

ولعلك تسألني عن الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة: غافر وغفار وغفور. فأقول لك أيها الأخ القارئ:

الغافر: هو الذي يغفر الذنب لمن تاب ولم يداوم على التوبة؛ فإنه إذا فعل ذنباً فاستغفر الله منه بقلبه ولسانه غفر له هذا الذنب، ولم يغفر له الذنوب التي لا يستغفر منها؛ لنسيانه إياها، أو لتهاونه بها، أو لعدم اعتبارها من الذنوب.

وهو غفار أي: كثير المغفرة لمن أكثر من الاستغفار والندم على ارتكاب الذنوب.

وغفور على الدوام لأهل الصلاح والتقى، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولم يصروا على ذنب اقترفوه، ولم يستخفوا به لعلمهم أن الذنب مهما كان صغيراً فإنه يغضب الله عز وجل.

وهؤلاء هم الذين يوصي بعضهم بعضاً بالحق والصبر على الطاعات، ويقول الرجل منهم لأخيه: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر من عصيت، ويقول له: اعلم يا أخي: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

وصفوة القول في الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة: أن غافر يدل على استمرار الغفر، وهو الستر والمحو لمن يتوب من الذنب ويرجع عنه.

وأما الغفار فهو من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة والاتساع.

كما قال جل وعلا :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (١).

والغفور من صيغ المبالغة أيضاً، ولكنه أبلغ من الثاني في الدلالة على دوام المغفرة لمن دوام على الطاعة حتى انتهت به الطاعة إلى مقام الحب والقرب.

والدليل على أن هذا الاسم يفيد دوام المغفرة لهؤلاء المقربين ـــ ما جاء حكاية عنهم إذا دخلوا الجنة وأقاموا فيها ورأوا ما أعده الله لهم من النعيم. اقرأ قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢).

فهو غفور؛ لأنه لم يدع لهم ذنباً إلا غفره.

وشكور؛ لأنه يُشكر على وافر نعمه ويَشكر عباده على طاعتهم له، كما قال جل شأنه في شأن هؤلاء الأبرار في سورة الإنسان: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ (٣).

وعلى المسلم أن يتعرض لعفو الله ومغفرته ورحمته بالطاعة والانقياد والضراعة وكثرة الاستغفار.

ومن تاب تاب الله عليه، وأنسى الحفظة ذنوبه، وأنسى كذلك معالمه وجوارحه، ورزقه رزقاً حسناً وآتاه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

فاضرع ـــ أيها الأخ المسلم ـــ إلى الله في ليلك ونهارك بسيد الاستغفار الوارد في صحيح البخاري وغيره وهو: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت؛ خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) الآيات: ٣٣ ـــ ٣٤.

(٣) الآية: ٢٢.

فمن قال هذا الدعاء من النهار موقناً به فمات قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قاله من الليل وهو موقن به فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام.

وبعد: فإن لهذا الاسم العظيم نفحات وبركات لمن ذكر الله ودعاه به، وعفا عمن أساء إليه وأصلح ما بينه وبين الناس، كما أصلح ما بينه وبين ربه عز وجل.

والله هو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الشكور "جل جلاله"

١ ــ الشكور: هو الله الذي يبادل عباده حباً بحب وقرباً بقرب، فإن أطاعوه أثابهم، وإن أحبوه أحبهم، وإن اقتربوا من ساحة قدسه شبراً، تقرب إليهم بفضله ورحمته ذراعاً، وإن أنسوا بذكره آنسهم بشكره؛ فهو جل جلاله مع من أخلص إليه قلبه، وأسلم إليه مقاليد أمره، وفَرَّ منه إليه، واستعاذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقوبته، وقال بلسان حاله: لا منجاة منك إلا إليك، والخير كله منك والشر ليس إليك.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذَكَرَني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تَقَرَّبَ إلي بشبرٍ، تَقَرَّبْتُ إليه ذراعاً، وإن تَقَرَّبَ إليَّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هَرْوَلَةً".

٢ ــ والشكور هو الذي يجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها أضعافاً مضاعفة لمن أتى بها على وجهها؛ تثبيتاً من نفسه وابتغاءً لمرضاته.

وقد ضرب الله المثل لهذه المضاعفة في سورة البقرة حيث قال وقوله الحق: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١).

وروى النسائي في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: "حدثهم أن عبداً من عباد الله قال: يا ربِّ، لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالمَلَكَيْن، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، وقالا: يا ربنا، إن عبدك قال مقالةً لا ندري كيف نكتبها! قال الله عز

---

(١) الآية: ٢٦٥.

وجل ــ وهو أعلم بما قال عبده ــ: ماذا قال عبدي؟، قالا: يا رب، إنه قال: يا رب، لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله عز وجل لهما: اكتباها كما قال عبدي؛ حتى يلقاني فأَجْزِيَهُ بها".

٣ ــ الشكور: هو الذي يعفو عن عباده إن سألوه العفو، ويقبل توبتهم إن تابوا إليه، ويذهب عنهم الهم والحزن إن أكثروا من ذكره وشكره وتلاوة كتابه بتدبر وفهم، وأنفقوا من أموالهم سراً حيث يكون السر أفضل، وعلانيته حيث تكون العلانية أفضل.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١).

فقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ توكيد لما تضمنته الآية الثانية وتعليل لها، والمعنى: يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة؛ لأنه غفور شكور.

وهذا الجزاء ليس مقصوراً على الدار الآخرة، بل هو جزاء دنيوي وأخروي؛ يدل على ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

وقوله جل وعلا في سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

والذين يتلون كتاب الله بتدبر وفهم ــ لابد أن تؤدي بهم هذه التلاوة إلى العمل به عاجلاً أو آجلاً، وهم بتلاوته يذكرون الله بكل أنواع الذكر: من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير؛ لأن القرآن مشتمل على هذا كله مع إتاحة الفرصة للقارئ المتدبر أن يفكر في خلق الله عز وجل، وهو من أعظم أنواع الذكر، وقد جاء في الحديث الصحيح: "التفكر في مخلوقات الله ساعة خير من عبادة سنة".

---

(١) فاطر: ٢٩ــ ٣٠. (٢) الآية: ١٤٨. (٣) الآية: ٩٧.

وفي القرآن أدعية كثيرة فيها غنى عن الأدعية الأخرى إلى حَدٍّ كبير.

من هنا كانت تلاوة القرآن بمثابة شكر لله عز وجل على هذه النعمة الكبرى، والله عز وجل يقابل هذا الشكر بشكر أعظم منه، فيجزل العطاء له ويحقق رجاءه من غير أن يسأله.

روى الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الرب عز وجل: "من شَغَلَهُ القرآن وذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه".

٤ ــ والشكور: هو الذي يفتح أبواب جنته لمن مات على التوحيد الخالص وإن قَلَّ عمله تفضلاً منه ورحمة؛ فإن الموحد شاكر لأنعمه على قدر وسعه وطاقته، والله يشكره على قدر جلاله وكماله، وشكره له يتمثل في إدخاله الجنة برحمته لا بعمله.

يقول الله عز وجل في سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[١].

وقد قُرِن الشكور بالغفور في هذه الآيات والتي قبلها ــ للدلالة على تلازمهما في الفعل، فَالَّذي من شأنه أن يشكر من شأنه أن يغفر؛ لأن الغفران مصاحب للشكران ومقدم عليه في الفعل؛ فإن العبد إذا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وعمل عملاً صالحاً ــ بادره ربه أولاً بمحو خطاياه؛ لأن الحسنات تذهب السيئات، كما عرفنا من كتاب ربنا عز وجل، ثم يمن عليه بدخول الجنة برحمته لا بعمله كما أشرنا من قبل، فقد قال رسول الله ﷺ: "لن يُدْخِلَ أحدَكم

---

(١) الآيات: ٣٢ــ ٣٥.

الجنة عملُهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا حتى يتغمدني الله برحمته".

إن ربنا غفور لمن تاب إليه وأناب، وشكور لمن شكره على وافر نعمه.

وشكر الله يحتاج إلى شكر؛ لأنه هو الذي وَفَّقَ عبده للشكر، فإن شكره على نعمة التوفيق للشكر، احتاج الشكر الثاني إلى شكر... إلى ما لا نهاية، فكيف نشكره إذن؟!

قال بعض العارفين: اعترافك بالعجز عن الشكر هو عين الشكر.

فإن كنت لله شاكراً كان الله لك شكوراً، أي: كان شكره لك أعظم بكثير وكثير من شكرك له.

ونحن على كل حال لم ولن نستطيع أن نوفيه معشار ذرة من حقه في الذكر والشكر، وهذا الاعتراف منا كاف في المعذرة ونافع لنا في الآخرة.

٥ ــ ومن معاني الشكور: أنه هو الذي يبارك الحسنة القليلة وينميها لصاحبها ويتقبلها منه قبولاً حسناً، وهي قد لا تساوي شيئاً في أنظار الناس؛ لتفاهتها عندهم.

وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [1].

فهذه مغفرة الله الواسعة مبسوطة لمن يجيئون إليه، تائبين من ضلالهم، متبرئين من شركهم، حيث تشملهم الرحمة والمغفرة، وحيث يشكر الله لهم ما صنعوا بأنفسهم من إحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

وإنه ليس أخسر صفقة، ولا أضل سبيلاً ــ ممن يرى ــ وهو المذنب الغارق في الذنوب ــ يدَ المغفرة مبسوطة له ويد الإحسان ممدودة إليه، ثم يَجْمُدُ حيث هو، متلطخاً بآثامه، غارقاً في ضلاله.

٦ ــ ومن هذا الاسم نتعلم الأدب مع الله تعالى والاستحياء منه؛ إذ يشكر

---

(١) الآية: ٢٣.

لعباده أعمالهم الصالحة وهو مستغنٍ عنهم وعنها، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: أنتم الفقراء فقراً تاماً إليه، نواصيكم بيده، ماض فيكم حكمه، عدل فيكم قضاؤه، وهو الغني بذاته عن سائر مخلوقاته، الحميد الذي يحمد عباده ويحمده عباده؛ فهو حميد بمعنى حامد وحميد بمعنى محمود.

وقال الله عز وجل في الحديث القدسي، الذي رواه مسلم وغيره: "يا عبادي، إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تَظَالَمُوا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسُكُمْ، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ــ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ــ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ــ ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما يَنْقُصُ المخْيَطُ إذا أدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكُمْ إياها، فمن وجد خيراً، فليحمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه".

لك الحمد يا ربنا على ما أنعمت به وأوليت، ولك الثناء الحسن الجميل، ولك منا العتبى حتى ترضى.

---

(١) فاطر: ١٥.

العلي الكبير

حين يسرح المرء بخواطره الإيمانية في هذين الاسمين الجليلين تعلوه هيبة مهيبة تجعله يتضاءل ويتضاءل حتى لا يرى نفسه شيئاً في الوجود يستحق الذكر، ويتصاغر أمام المعاني التي تتزاحم على لبّه، فلا يكاد ينطق بمعنى منها حتى يرى أنه لم يقل شيئاً يليق بذاته تعالى في هذين الاسمين المقدسين.

فماذا نقول في معنى العلي، ومعنى الكبير، وماذا نقول في الفرق بين العلي والمتعالي، وبين الكبير والمتكبر، وماذا يعني قولنا في كل صلاة عشرات المرات: الله أكبر؟

إننا عاجزون كل العجز عن التعبير الصادق كل الصدق عن إبراز المعنى الذي ينبئ بوضوح عن عظيم جلاله وجماله، وكماله المطلق، ولكننا نحاول بقدر طاقتنا البشرية أن نقول ما شاء الله أن نقول، مستعينين به في فهم صفاته وأفعاله على النحو الذي يريد منا أن نفهمه ونفقهه.

وفهم اللفظ شيء سهل ولكن فقهه أمر آخر، وقد قال علماؤنا: إدراك المعاني فهم، وإدراك المرامي فقه.

والمرامي هي: المقاصد المستكنة في المعاني، لا يستطيع استنباطها إلا الراسخون في العلم من أولي الألباب.

فتعالوا بنا نفهم المعاني فحسب وعلى الله قصد السبيل:

١ ــ العلي: الذي لا تدرك ذاته ولا تتصور صفاته، فسبحان من لا يدرك ذاته إلا ذاتُه، ولا يحيط الخلق متفرقين أو مجتمعين بصفة من صفاته.

فكيف يدرك الناقص كمال من له الكمال؟!.

٢ ــ وهو الذي تتيه الألباب في سرادق جلاله، وتتحير الأرواح في ريحان جماله، فهو الروح والريحان في جنة الذكر والفكر.

ولا يستمتع بهذا الروح والريحان إلا من شغلت قلوبهم بدوام ذكره، وترجمت ألسنتهم ما في قلوبهم فشغلت هي الأخرى به عما سواه من القيل

والقال.

فإذا سيطر الحب الإلهي على القلب، لا يترك فيه ذرة لحب من سواه.

وعندئذ يعاين بنور الله شيئاً من نور الله، بقدر مقامه في العبودية، فإذا عاين ما شاء الله أن يعاين وجد هناك جنة الخلد في دنياه، فقال بلسان حاله ما قاله الصالحون من قبله:

فليتك تحلو والحيــاةُ مريــرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينــك عامرٌ ... وما بيني وبين العالمين خَرَابُ

إذا صح منك الوصلُ فالكل هينٌ ... وكل الذي فوق الترابِ تــرابُ

والعبد الذي يصل إلى هذه المرتبة هو الذي يعلم معنى العلي، فيعبر عنه بلسان الحال لا بلسان المقال، فيتواضع لعظمته حتى يرى أنه أقل من التراب شأناً؛ لعلمه أن الله ما خلقه إلا لعبادته، ولشعوره بتقصيره عن الوفاء بحقه في شكر نعمه، وتأدية وظيفته على النحو الذي يحبه ويرضاه.

ولهذا جعل الله التواضع أول صفة من صفات عباده الصالحين على الإطلاق، فقال جل شأنه وعز جاهه وقوي سلطانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (١).

أي: هينين لينين متواضعين بجلاله، خاضعين لعظمته، مستسلمين لقضائه وقدره.

٣ ــ العلي: هو الذي يعلو أن يحيط به وصف الواصفين، وعلم العارفين، فتعالى الله علواً كبيراً في ذاته وصفاته وأفعاله؛ إذ لم يجعل للخلق سبيلاً لإدراك أوصافه العلية ولا أفعاله المبنية على العلم المحيط والحكمة البالغة، والإرادة النافذة، والقدرة المنفذة.

فسبحان من لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وتبارك الله في ملكه، وتعالى على عرشه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء

---

(١) الفرقان: ٦٣.

بحمده، وهو القاهر فوق عباده، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

٤ ــ العلي هو الذي لا يزيده تعظيم العباد علواً؛ إذ هو عالٍ بذاته وصفاته على سائر مخلوقاته، غني عنهم وهم الفقراء إليه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

٥ ــ وهو المتعالي عن الأنداد والأضداد ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾، فلا يدانيه أحد مهما علت رتبته؛ فهو الذي يمنع عباده ما شاء من فضله، ويضع من شاء في أي رتبة شاء، وهو ولي النعم كلها، تعالى بفضله ورحمته عن الوجود كله.

٦ ــ وعلوه منزه عن المكان والزمان، فلا يقال: هو الموجود في كل الوجود ــ إلا على سبيل المجاز.

ولا يقال: إنه في السماء، إلا إذا أردنا بالسماء العلو المطلق؛ فقد كان الله ولا شيء معه، فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية ــ أراد أن يُعرف فخلق الخلق وعرفهم بنفسه، فبه عرفوه، فعبدوه طوعاً وكرهاً.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١).

٧ ــ والفرق بين العلي والمتعالي من حيث المعنى ظاهر، فالعلي قد تقدمت معانيه، والمتعالي هو الذي يتعالى عن إفك المفترين وغرور المغترين، فيقهر بجبروته كل من تحدثه نفسه أن ينازعه في صفة من صفاته، أو يدعي لنفسه شيئاً من المكانة في هذا الوجود، اكتسبها بقدرته، كقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾.

وكفرعون الذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾، وكالنمروذ الذي قال: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾.

---

(١) الإسراء: ٤٤.

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (١).

٨ ــ وأما الكبير فهو الذي لا عز إلا عزه، وذلك لأنه يقال للسيد الشريف العزيز في قومه: إنه الكبير.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾ (٢).

وَعِزُّ الكبراء مؤقت وناقص وقاصر، وغالباً ما يكون مختلقاً ليس له وجود، وعز الله دائم أبدي سرمدي.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (٣).

٩ ــ والكبير أيضاً هو الحي الدائم أزلاً وأبداً، أخذاً من قولهم: فلان كبير، أي قد عمَّر طويلاً، إلا أن الخالق كامل في ذاته ووجوده، والمخلوق ناقص في ذاته ووجوده.

وهذا الاسم نلهج به في صلواتنا وخلواتنا كثيراً، ولكن بصيغة تعلمناها من الكتاب والسنة، وهي "الله أكبر"، ومعناها: الله أكبر من كل كبير.

قال تعالى: ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٤).

فهو العلي الكبير الذي له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم والأمر.

وأعظم الذكر على الإطلاق أن يقول العبد في صباحه ومسائه: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد جمعتُ بين هذين الاسمين في التفسير والتحليل لأن الله قد جمع بينهما في آيات كثيرة.

---

(١) الإسراء: ٤٢ــ ٤٣.

(٢) الأحزاب: ٦٧.

(٣) فاطر: ١٠.

(٤) الإسراء: ١١١.

فقال جل شأنه في سورة الحج: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (١).

وقال في سورة لقمان: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٢).

وقال في سورة غافر: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (٣).

فعظم ربك في نفسك — أيها الأخ المسلم — وارض بقضائه وقدره واشكره على وافر نعمه بقدر طاقتك البشرية.

وقل في صباحك ومسائك: إلهي أنت العلي الذي تعاليت عن كل ما لا يليق بذاتك، وأنت الكبير الذي ذلت لكبريائه جميع مخلوقاتك، أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا منجاة منك إلا إليك.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) الآية: ٦٢.

(٢) الآية: ٣٠.

(٣) الآية: ١٢.

الحفيظ المقيت

عندما يذكر المسلم ربه ـ عز وجل ـ بهذين الاسمين العظيمين ـ يشعر بالطمأنينة تغمر قلبه، وتلمس سائر جوارحه لمساً يريح النفس من عناء الفكر والتدبير، وشدة الحرص في حماية الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وهي من الضروريات الخمسة التي أوجب الله علينا حفظها بعنايته وتوفيقه.

إنه عندما يقول بقلبه ولسانه: يا حفيظ يا مقيت، يجد أسباب الحفظ والغوث قد لاحت له من بعيد ومن قريب، ويجد نفسه أمام هذه الأسباب موفقاً غاية التوفيق لتحصيلها والأخذ بها على وجهها الصحيح، فقد ربط الله المسببات بأسبابها.

والدعاء من جملة الأسباب ولكنه لا يغني عن سائرها، فمن دعا ربه فعليه بالسعي في تحقيق ما يرجوه من ربه تبارك وتعالى.

وكل اسم من أسمائه الحسنى له معنى وله سر، فما معنى الحفيظ وما معنى المقيت؟

أما الحفيظ: فهو الذي أحاط عباده بكمال علمه وعنايته، ولم يفته شيء في ملكه وملكوته، ولم يغفل عن تدبير شيء من أمور خلقه.

فما من ذرة في صخرة أو في السماوات أو في الأرض ـ إلا وهو يعلم مكانها ومكوناتها وخصائصها، فيقوم بحفظها وصيانتها وفصلها عما يفسدها أو لا ينفق مع جنسها وخاصيتها.

فالحفيظ إذن هو البالغ الحفظ، القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فهذا الاسم المقدس يوحي بكمال الذات والصفات والأفعال.

وقد تنوعت أقوال العلماء العاملين في فهم معنى هذا الاسم الجليل، وعبر كل منهم عنه بأسلوبه الخاص على قدر علمه القاصر ونظره المحدود، وعلى قدر صلته بربه عز وجل.

فقد قيل: إن معناه: هو الذي حفظ أولياءه من مسالك الضلال بتوفيقه إلى مسالك الهدى، وصان خواطرهم عن السياحة في غير ميادين الذكر والفكر، وحماهم في حال المحنة من الشكوى، وفي حال النعمة من البلوى.

وقيل: هو الذي حفظ أولياءه عن ملاحظة الأغيار، وصان ظاهرهم عن موافقة الفجار. أي صان نظرهم وفكرهم عن ملاحظة غير الله عز وجل، فلم يسألوا أحداً سواه، وصان أعمالهم الظاهرة كلها عن الرياء والسمعة ونفاق أهل النفاق.

وخلاصة هذا المعنى: أن الله تبارك وتعالى قد صان عباده المقربين بتطهير ظواهرهم وبواطنهم من الشرك الجلي والخفي، فلم يَعُدْ لهم سبيل إلا إليه، ولا هوى إلا في طاعته، ولا طلباً إلا في ابتغاء مرضاته.

وهم الذين آمنوا بالله إيماناً كاملاً، واستقاموا على الطريق السوى حتى اطمأنت قلوبهم بذكره وشكره.

وفيهم نزل قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١).

فهم قد حفظوا الله فحفظهم، وتواضعوا إليه فرفعهم، واستقاموا له فكان هو وليهم في الدنيا والآخرة، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت؛ لتدخل السكينة والطمأنينة في قلوبهم، وتبشرهم بما وعدهم به ربهم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة". أي: احفظ دين الله يحفظ الله عليك نفسك ونسلك ومالك، وقدم لنفسك في زمن الرخاء شيئاً

---

(١) فصلت: ٣٠ ــ ٣٢.

تدخره عند ربك ينفعك وقت الشدة؛ فإن الله لا تضيع عنده الودائع ولا يذهب المعروف لديه سدى.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١).

وأما المقيت فقد اختلف العلماء اختلافاً يسيراً في معناه:

فقال بعضهم: هو بمعنى الحفيظ.

وقال بعضهم: هو بمعنى المقتدر.

وقال بعضهم: معناه: الشاهد، من قولهم: أقات على الشيء، أي: شهد عليه.

وهذه المعاني هي من جزء معناه.

وقيل معناه: الذي يعطي أقوات الخلائق حيث كانوا، فهو بمعنى الرزّاق، إلا أن هذا الاسم يوحي بأنه جل شأنه يمنح عباده ما هم في حاجة إليه في الوقت الذي يريد، وهو غني عنهم، ويحفظ عليهم بقدرته أقواتهم من التلف والفساد، بالوسائل الدقيقة التي يعجز الخلق عن معرفتها فضلاً عن تقليدها.

فانظر مثلاً إلى الحبوب في سنابلها كيف أحاطها الله بغلاف سميك يمنع عنها دخول الهواء المفسد لها، وتأمل فيما قاله يوسف عليه السلام للملك وحاشيته عندما عَبَّرَ لهم الرؤيا التي رآها الملك وعجز الملأ عن تأويلها.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (٢).

إنك تعلم من خلال التأمل والنظر في هاتين الآيتين أن حفظ الله لأقواتنا أعظم وأرقى وأجل من حفظنا لها، مهما أوتينا من العلم والخبرة، وسيظل حفظ الله للكون كله قائماً إلى ما شاء الله جل جلاله.

---

(١) النساء: ٤٠.   (٢) يوسف: ٤٧ـــ ٤٨.

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (١).

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢).

وقد ورد هذا الاسم المقدس في القرآن مرة واحدة، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ (٣).

وسياق الآية يدل على أن معنى المقيت: هو الحفيظ الذي لا يضل ولا ينسى، والشهيد الذي يشهد لأهل الفضل بفضلهم، ويشهد على أهل السوء بسوء فعالهم، ويجزي المحسن بإحسانه، ويجازي المسيء بإساءته.

وختام الآيات يكون توكيداً لمضمونها دائماً، والمضمون أيضاً يدل على الختام أو يوحي به.

وقد وردت مادة القوت جمعاً مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ (٤).

ويذكر بعض الصالحين: أن الأقوات أنواع مختلفة: فمنهم من جعل الله قوته المطعومات، وهم عامة الخلق.

ومنهم من جعل قوته الذكر والفكر، والتدبر والنظر.

وهذا كلام نفيس فيه الحقيقة وفيه المجاز، فالجميع يقتات بالأطعمة والأشربة، إلا أن الأولياء يجعلون مبلغ همهم ومنتهى بغيتهم ذكر الله والتفكر في خلق السماوات والأرض، فيشغلهم ذلك كثيراً عن التطلع إلى الأقوات المادية.

وقد عَبَّرَ النبي ﷺ عن الحالة الثانية بقوله في الحديث الصحيح: "أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني".

---

(١) هود: ٥٧.

(٢) يوسف: ٦٤.

(٣) النساء: ٨٥.

(٤) فصلت: ٩: ١٠.

ويذكر القشيري للقوت تقسيماً آخر فيقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل أقوات عباده مختلفة.

فمنهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة، على اختلاف أنواعها وأوصافها، وهم الآدميون وغيرهم من الحيوانات.

ومنهم من جعل قوته الذكر الدائم والطاعة المطلقة، وهم الملائكة.

وبعد: فإننا لو أردنا أن يبارك الله في أقواتنا، ويوسع لنا في أرزاقنا، ويحفظ علينا نعمه الظاهرة والباطنة ـ فعلينا أن نضرع إليه بهذين الاسمين العظيمين، فنقول في دعائنا: يا حفيظ، كن لنا عوناً ومعيناً على طاعتك، ووفقنا لحسن عبادتك، واكلأنا بعين رعايتك، واعصمنا من الوقوع فيما يغضبك، ويا مقيت، اجعل قوتنا حلالاً طيباً، وَمَتِّعْنَا به متاعا حسناً، وَجُدْ عَلَيْنَا بما يغنينا عن سواك ويدنينا من حضرة قدسك.

إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الحسيب الجليل

إذا استحضر المؤمن في قلبه معنى هذين الاسمين المُقَدَّسين، شعر من أعماق نفسه بأنه بين يدي رب كريم لمن يستحق الإكرام، وربٍّ منتقم ممن يستحق الانتقام، واستجابت نفسه الأمارة بالسوء إلى خالقها وبارئها، وخضعت لعظمته؛ خوفاً من عقابه وطمعاً في رحمته.

وينبغي على المؤمن أن يعرف معاني الأسماء الحسنى معرفة واسعة بقدر طاقته البشرية من خلال التأمل والنظر في اللغة العربية، ثم في الآيات القرآنية والآيات الكونية معاً.

وذلك لأن اللغة العربية هي الكاشفة عن المعاني بألفاظها التي نطق بها القرآن، فكان من الواجب على المتأمل في الكتاب والسنة أن يحيط علماً بأسرارها ولطائفها ودلالاتها على المعاني، حتى يفتح لنفسه آفاقاً واسعة في فقه هذا الدين عقيدة وعملاً.

فتعالوا بنا نكشف عن معاني هذين الاسمين العظيمين من خلال اللغة أولاً

ونبدأ بالحسيب فنقول ــ وبالله التوفيق ــ: الحسيب يتضمن ثلاثة معان متلازمة، وإن بدا لغير المتأمل أنها متغايرة.

الأول: أنه الكافي؛ لقول العرب: نزلت بفلان فأكرمني، أي: أعطاني ما كفاني حتى قلت: حسبي.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي: كافيه ما هو في حاجة إليه.

والثاني: أنه المحاسب على كل صغيرة وكبيرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١).

---

(١) الأنبياء : ٤٧.

وقوله جل شأنه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (١).

والثالث: أنه صاحب الحسب الأعلى والكمال المطلق.

يقال: فلان حسيب. أي: ذو شرف رفيع بين الناس.

وانطلاقاً من هذه المعاني الثلاثة نستطيع أن نجملها في معنى واحد يحيط بها فنقول: هو الذي يكفي بفضله، ويصرف السوء بحوله وقوته، ويحاسب عباده في وقت واحد، ويجزي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته وفق علمه المحيط وإرادته النافذة وقدرته التامة وسلطانه العظيم.

فمن علم أن الله كافيه لم يرفع حوائجه إلا إليه؛ ثقة بفضله وتوكلا عليه.

ومن علم أن الله معه في سرِّه وعلانيته، وأنه أرحم به من نفسه على نفسه لم يستوحش من إعراض الخلق ولم يستأنس بقبولهم؛ مكتفياً بأنسه بالله، وهذا مقام فوق مقام الحب، كما ذكر الغزالي في كتاب المحبة من إحياء علوم الدين، فإذا دامت هذه الحالة أرضاه مولاه بما يختاره له، فيؤثر الفقر على الغنى.

ومن أيقن بأن الله سيحاسبه على ما قدَّم وأخر، لا يغفل عن هذا الحساب المنتظر أبداً، ولو غفل ساعة تاب واستغفر.

وقد جاء في حِكم الأولين: عجباً لعبد يؤمن بالموت كيف يضحك ــ أي كيف يضحك على نفسه بطول الأمل ــ وعجبا لعبد يؤمن بالقدر كيف يغضب، وعجباً لعبد يؤمن بالرزق كيف يتعب ــ أي: كيف يُتعب قلبه وعقله في انتظاره وعجباً لعبد يؤمن بالحساب كيف يغفل.

ويتعمق الإمام القشيري في فهم المعنى الأول من معاني هذا الاسم العظيم، ويترجم فهمه له بقوله: "إن كفاية الرب لعبده أن يكفيه في جميع أحواله وأشغاله، وأجَلّ الكفايات أن لا يعطيه إرادة الأشياء، فإنّ حِفْظه عن إرادة الأشياء أتم وأكمل من قضاء حاجاته بعد الإرادة".

---

(١) البقرة: ٢٨٤.

ومعنى كلامه هذا: أن الله عز وجل يرزق عبده القناعة بالكفاف من العيش والرضا بقضائه وقدره، فلا يطلب منه شيئاً إلا إذا كان هذا الشيء موافقاً لمراده جل وعلا؛ لعلمه أن الله أقام العباد فيما أراد لا فيما يريدون.

وهذا هو العارف بالله حقاً؛ إذ جعل هواه تبعاً لرضاه جل في علاه، وذلك بتوفيقه عز شأنه.

وإذا تعمقنا نحن في المعنى الثاني: وهو المحاسبة، حاسبنا أنفسنا أولاً بأول على كل كبيرة وصغيرة، قبل أن نحاسب فنعتذر فلا يُقبل عذرنا، ونعمل عملاً صالحاً ينفعنا في دنيانا وآخرتنا، يكون برهاناً صادقاً على صحة إيماننا وسلامة يقيننا.

ونستعين على ذلك بالإكثار من ذكر الله بأسمائه الحسنى بوجه عام وباسمه "الحسيب" بوجه خاص؛ حتى لا نغفل عن مصيرنا المنتظر. والموت يأتي بغتة، والحساب عسير، وليس بعد هذه الدار من دار إلا الجنة أو النار.

هُمَا مَحِلاَّنِ ما للناس غَيْرُهُمَا فاختر لنفسك أَيَّ الدارِ تَخْتَارُ

وفي الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وقاية من الحرص والطمع، اللذين هما سبب في الغفلة عن الحساب والجزاء. "ومن نوقش الحساب هلك".

ومراقبة الله عز وجل مقام من أعظم المقامات، كما يقول أولوا العلم والنهى.

وتكون هذه المراقبة ناشئة عن الذكر والفكر والخوف والرجاء.

فمن ذكر الله عز وجل وتفكر في مخلوقاته وخاف عذابه ولم ييأس من رحمته، فهو المراقب حقًّا لخالقه ومولاه.

وأما الجليل فهو اسم اجتمعت فيه آيات العظمة والمهابة والجمال والكمال، فهو الذي تنزه تنزيهاً تاماً عن الشريك والشبيه والمثيل، وتعالى علواً كبيراً عن كل ما لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله. وهو الذي يعز من قصده بإغنائه عن سائر خلقه، ويذل من سأل غيره واعتقد أنه ينفعه ويضره.

وهو الذي جَلّ قدره في قلوب العارفين، وعظم خطره في نفوس المحبين ففرغوا قلوبهم لذكره وشكره، وشغلوا أنفسهم بحسن عبادته، فعاشوا مُنَعَّمِينَ بما هم فيه من النظر إليه والتواضع لعظمته.

وهو الذي جل أن تدركه الأبصار، أو تحيط بكنه ذاته وصفاته الأفهام.

ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، ولكن وردت مادته في سورة الرحمن مرتين.

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (١).

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٢).

ولكن لماذا اقترن الإكرام بالجلال؟

أقول: ليعتدل الميزان بين خوف العبد من عذابه ورجائه في مغفرته؛ فإن هذا الاسم يوحي بالمهابة والخوف، فكان من رحمة الله بعبده أن قَرَنَ عفوه بعقوبته، فجعل هذا الوصف ملازماً؛ فهو ذو الجلال والإكرام معاً.

وهذا كقوله جل وعلا: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٣).

والجليل من معانيه: أنه يُجِلُّ أولياءه ويعظمهم بين عباده في الأرض وفي السماء، ويكرمهم برفع درجاتهم في الجنة، ويتجلّى عليهم بنوره فيهتدون به إلى ما يريده منهم في الدنيا وفي الآخرة.

أما في الدنيا فإنهم يعرفون بهذا النور الحق حقاً فيتبعونه، ويعرفون الباطل باطلاً فيجتنبونه.

وأما في الآخرة فيهتدون به إلى المواقف التي خصصت لهم، ثم يهتدون بعد الحساب اليسير إلى مقاماتهم في جنات النعيم، وهم يقولون: "ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير".

---

(١) الآية: ٢٧.

(٢) الآية: ٧٨.

(٣) الحجر: ٤٩ـــ ٥٠.

والجليل اسم يشعر المحبين بعظمة مقام الحب الإلهي في نفوسهم فَيَتَمَنَّوْنَ من أعماق قلوبهم أن يروا محبوبهم في الدنيا قبل أن يروه في الآخرة ببصائرهم النَّيِّرة من غير كَيْفٍ ولا مثل؛ لأنه جل شأنه منزَّهٌ عن الكيف والمَثل تنزيهاً تاماً يليق بذاته.

ولقد طلب موسى ــ عليه السلام ــ من ربه أن يمنحه النظر إليه في الدنيا، فأخبره ربه أنه لن يراه في الدنيا كما يحب؛ لأمر يعلمه سبحانه، وأمره أن ينظر إلى جبل الطور، فلما تجلّى للجبل تَدَكْدَكَ الجبل من هذا التجلِّي، فخرَّ موسى عليه السلام صعقاً من رؤية الجبل وهو يتدكدك فكيف لو تجلى عليه هو في هذه الدنيا ولم يكن فيها مهيأ لذلك لا بطبعه ولا بوضعه!

يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

والمؤمن إذا استحضر عظمة الله وكبرياءه وجلاله في قلبه، لم يسعه إلا أن يستجيب له ويؤمن به إيماناً غير إيمان العوام، إيماناً ناشئاً عن علم وبصيرة لا عن جهل وتقليد، ويخشاه خشية تَحُولُ بينه وبين معصيته والغفلة عن ذكره، وتجعله دائم الفكر في ملكوته متدبراً في أمارات جلاله وجماله وكماله، فيتقلب بما أدركه من معرفة في مواطن العز والشرف والسمو بين الخوف من عذابه والطمع في رحمته.

وعندئذ يقول بلسان حاله ومقاله: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك؛ لا منجاة منك إلا إليك.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢).

---

(١) الأعراف: ١٤٣.   (٢) فاطر : ٢٨ .

الكريم "جل جلاله"

عندما يذكر المسلم ربه بهذا الاسم يشعر أنه مغمور بفضله العظيم ورحمته الواسعة من كل جانب، وأينما توجه وحيثما كان، فلا يسعه إلا أن يتوجه بقلبه إليه، معترفاً بعجزه عن شكره. والاعتراف بالعجز عن الشكر عين الشكر.

ولا سيما إذا كان المسلم على علم بما يجب لله عز وجل من أوصاف الكمال والتنزيه، وكان على معرفة بسننه الكونية في أرضه وسمائه وسائر مخلوقاته، واقفاً عند حدوده ومعالمه.

وقد سمى الله جل جلاله نفسه الكريم؛ ليشعر عباده بأنه أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم، فهو ربهم، والرب من شأنه أن يكون كريماً على من يربيه ويصطفيه لعبادته.

وهذا الاسم المقدس جامع لمعاني البر كلها في أسمى صورها وأرقى معانيها، ومحيط بنواصي العظمة جميعها.

بهذا وصف نفسه في أول آيات أنزلها على خير خلقه محمد عليه الصلاة والسلام فقال جل شأنه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

والأكرم: هو صاحب الكرم المطلق ليس لأحد من خلقه فيه شيء، فالخير كله منه وإليه، والشر ليس منه ولا هو راجع إليه.

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

---

(١) آل عمران: ٢٦ــ ٢٧.

ومالك الملك من شأنه أن يكون كريماً بلا حدود على كل موجود، لأنه مستغنٍ بذاته عن جميع مخلوقاته.

والإنسان إذا خلا بنفسه وحكم عقله وسبح به في الوجود سبحات، وعاد بعد هذه السبحات إلى نفسه يعدد عليها ما أولاها مولاها من النعم ــ أدرك أنه محاط بعنايته عز وجل مغمور بكرمه الواسع، فلا يسعه إلا أن يشكر له حسن صنيعه به، وعظيم مننه عليه.

وعندئذ يتلاشى عن نفسه الشعور بنقصان النعم عنده، والإحساس بالحرمان مما يراه عند غيره، فلا يسعه إلا الرضا بقضائه وقدره، والإيمان الكامل بعدله في حكمه وقسمته، والعلم بأن النعم مقسومة بنسبة متساوية بين العباد جميعاً، فما من مرفوع في شيء إلا وهو مخفوض في شيء آخر.

فهذا لديه علم غزير، وذاك لديه مال كثير، إلى آخر ما هنالك من وجوه العطاء والحرمان. وتلك سنة الله في خلقه قد بينها بقوله في محكم آياتـــه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١).

فالرفع والخفض قائمان على الحكمة والعدل المطلق؛ إذ لولا تفاوت الناس في النعم ما استطاع أحد أن يسخر أحداً لخدمته، فلابد من أن يكون لهذا من القدرات المادية والمعنوية ما ليس لذاك، والكرم يقضي بذلك أيضاً؛ فإن الكريم من شأنه أن يدبر شئون عباده تدبيراً تاماً ليتحقق لهم من وراء هذا التدبير المحكم ما يحتاجون إليه من شئون الدين والدنيا.

ومن شأن المدبر الحكيم أن يضع الأمور في موضعها بفضله وكرمه فيعطي كل امرئ ما ينفعه، ويمنعه مما يضره. وهو أعلم به من نفسه.

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٢).

والإنسان لجهله يطلب من الله أحياناً ما يضره ولا ينفعه، فلو استجاب الله

---

(١) الزخرف: ٣٢. (٢) الملك: ١٤.

له لهلك، فكان من كرمه وجوده أن يجود عليه بما فيه صلاح أمره في دنياه وآخرته إذا كان هذا الإنسان أهلاً لذلك.

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ (١).

ومما تقدم يتبين لنا بوضوح أن هذا الاسم المقدس يشمل بمعناه كثيراً من الأسماء الحسنى، كالفتاح والرزاق والباسط والبر والرحيم، وغيرها من الأسماء الدالة على مادة الكرم.

فالكريم: هو العزيز الذي يعطي بغير حساب ومن غير مسألة وبلا مقابل، ويعفو عمن أساء وظلم، ولا يحوج عباده إلى الوسائل التي تعينهم على تحقيق حوائجهم، إذا ما توسلوا إليه بالدعاء والتقوى، فهو لا يضيع من توسل به والتجأ إليه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

والوسيلة التي يبتغيها المسلم للتقرب من خالقه ومولاه: هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. عملا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣).

ومن الوسائل التي أمرنا الله باتخاذها في قضاء الحاجات ودفع الملمات الدعاء الخالص الصادر من الأعماق، فإن بالدعاء يتحقق الرجاء من الكريم الذي لا تفنى خزائنه ولا تزول سحائب رحمته.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٤).

والرشد: معناه صلاح الحال والمآل. وهو يتحقق بالدعاء مع الخضوع والتيقن من الإجابة.

---

(١) الإسراء: ١١.

(٢) المائدة: ٣٥.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) البقرة: ١٨٦.

ومن مظاهر كرمه التي قد تخفى على كثير من أهل العلم والمعرفة: أنه جل شأنه قد آنس عباده في هذه الآية بإظهاره التقرب منهم والتودد إليهم وإضافتهم إليه والتعبير بالضمائر المفردة، وغير ذلك مما يشتمله الأسلوب من اللطائف البيانية التي يدركها من فتح الله عليه فيها فتوح العارفين به والسائرين إليه في منازل الحب والقرب.

فمن كرمه أنه فتح لنا أبواب الإجابة في أي وقت، ورغبنا في الضراعة إليه في جميع الأحوال، ووعدنا بالإجابة. إما فيما طلبناه إن كان فيه خير لنا، وإما بخير مما طلبناه لحكمة يعلمها، وإما بادخار ذلك في يوم نكون أحوج إليه في رفع درجاتنا في الجنة.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

ولو علم العبد الغيب ما اختار إلا ما اختار الله له.

ومن مظاهر كرمه: أنه يجزل لعباده الثواب على الأعمال الصالحة مع أنهم لو عبدوه الدهر كله ما وفّوه حقه وما قاموا بواجب العبودية نحوه.

أليس هذا من أعظم مظاهر الكرم والبر؟! بلى فهو البر التواب الرحيم الذي عظمت آلاؤه وتوالت نعماؤه بلا انقطاع، فكان منها ما عرفناه وما سنعرفه بعد في حياتنا، وما لم نعرفه أبدا لقصور عقولنا.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٢).

والنعم الباطنة أكثر بكثير من النعم الظاهرة.

وجميع النعم الدنيوية والأخروية قد جمعها الله لنا في الإيمان به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ نبياً ورسولاً.

فليس في الوجود نعمة أجمع لخيري الدنيا والآخرة منها.

---

(١) القصص: ٦٨. (٢) لقمان: ٢٠.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

واعلم أن نعم الدنيا محصورة في نعمتين: هما الأمن والرخاء.

والأمن يتبع الإيمان، والرخاء يجئ مع الأمن، فلا أمان لمن لا إيمان له.

يقول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢).

ولو آمن الناس جميعاً لعمهم الرخاء حتى يملوه، ولكن شاءت حكمته أن يكون في الناس مؤمن وكافر؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (٣).

والعلم نعمة من أعظم النعم أيضاً بعد الإيمان، وإن كان هو السبب في حصوله، بدليل أن الله عز وجل قد جعله صفة من صفات كرمه، وخصوصية من خصوصياته في أول ما أنزله من كتابه العزيز حيث قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وقد جعله الله من أول النعم في سورة الرحمن، فقال: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

والبيان: هو الإفصاح عما في النفس بالوسائل التي علمها الله للإنسان.

وقد قدم الحق ــ جل شأنه ــ نعمة تعليم القرآن على خلق الإنسان وتعليمه البيان تنبيهاً على عظمة شأنه، وبيان أنه خير نعمة أنعمها على خير أمة أخرجت للناس، ولأنه هو الهادي بإذن الله تعالى إلى الإيمان، ولأنه كلامه العزيز فكان أحق بالتقديم على جميع النعم.

---

(١) الحجرات: ٧ــ ٨.　　(٢) الأنعام: ٨٢.　　(٣) المائدة: ٦٥ــ ٦٦.

وبعد: فإن الإنسان هو المقصود بهذه النعم، وهو المراد بهذا الكرم، فقد خلق الله السماوات والأرض وما فيهن لأجله؛ ليقوم بواجب العبودية، ويؤدي وظيفته التي خلق لها.

والكريم عز وجل في غنى عنه لا تنفعه طاعته ولا تضره معصيته.

وكرمه دائم سرمدي لا ينقطع ولا يزول، فهو وصف من أوصاف ذاته الكمالية، فعطاؤه غير مجذوذ، ورفده غير ممنوع، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، ولا ينقص بالإنفاق شيء من ملكه.

يقول الله عز وجل في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: "يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، وكلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسُكُمْ". إلى أن يقول عز شأنه: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص من ملكي إلا كما يأخذ المخيط من البحر" [1].

اللهم، اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

(١) انظر الحديث بتمامه في اسم الله: "الشكور".

الرقيب "جل جلاله"

إذا ذكر المؤمن ربه بهذا الاسم المقدّس، استحضر في قلبه الخشية منه، واستحيا مما هو عليه من فتور في الهمة وتقصير في الواجب، وركون إلى الدنيا وميل إلى الشهوات الفانية والملذات الواهية، واستشعر الخوف منه جل شأنه، وغاب عن وعيه الرجاء في عفوه فترة ذكره لهذا الاسم، حتى يستحضر معه من الأسماء الحسنى ما يعيده إليه على وجه السرعة، كالكريم والرحيم والغفار والتّواب، ونحوها من الأسماء الدالة على قرب عفوه ورحمته من ساحة عباده.

فكل اسم من أسمائه الحسنى له في قلوب المؤمنين وقع خاص، وفهم خاص، ومذاق خاص، لا سيما الذين لهم في العلم باع طويل، وفي العمل الصالح قدم راسخ.

وللعلماء في فهم هذا الاسم الجليل معان لاحت لهم من خلال تَبَيُّنِهم لعرف اللغة الموافق لأصول الشرع، فصاغوا هذه المعاني في قوالب لفظية تُعَبِّرُ عن خواطرهم الإيمانية المصحوبة بالمعاني اللغوية.

ونحن لا نتقيد بذكر هذه المعاني نصًّا، ولكننا نأخذ منها الخلاصة فنصوغها بأسلوب يناسب عامة الناس في هذا العصر، على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفهم.

فالرقيب: هو الذي لا يغفل عن شيء في ملكه، ولا يغيب شيء عن علمه وسمعه وبصره، ولا يعجزه إحصاء أنفاس خلقه، ولا يفوته تقدير ما لهم وما عليهم في دنياهم وآخرتهم، وهو المطلع على الضمائر والشاهد على السرائر.

والرقيب: هو الذي يسبق علمه جميع المحدثات، وتتقدم رؤيته جميع المكونات.

وترجع هذه المعاني كلها إلى اسمي العليم والحفيظ، ويرجع كذلك إلى بعض معاني الحسيب والجليل.

والأسماء الحسنى بعضها متداخل في بعض، كما سبق بيانه أكثر من مرةٍ.

وهذه المعاني التي ذكرناها استوعبها قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾.

فهو الله الذي لا إله سواه، الحي الدائم القائم على شئون خلقه بالتقدير والتدبير، الذي لا تقهره سنة عن إدراك ما في الوجود من مكونات أسراره، ولا يعتريه نوم يعوقه عن مراقبة أفعال عباده ومعاينة ما في ضمائرهم من أسرار أودعها فيها.

وإذا عرف المؤمن أن الله رقيب عليه، لا تخفى عن علمه شاردة ولا واردة من أمره ــ وجب عليه أن يراقبه في جميع أحواله وأفعاله الظاهرة والباطنة، ويشغل نفسه بإصلاحها وتقويمها وتزكيتها والترقي بها في درجات الحب ومراتب القرب في ساحة خالقه ومولاه، حتى يصل إلى أعلى مراتب الإيمان، وهي مرتبة الإحسان.

والإحسان هو كما قال الرسول ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

أي: فإن لم تكن تراه على الحقيقة، فإنه يراك على الحقيقة، ويعلم سرك ونجواك، فأخلص إليه العمل ما استطعت؛ فإن الله طيب لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

ومراقبة الله في السر والعلانية هي عماد التوحيد وجوهره الصافي ومعدنه النقي، فإذا ما أحسن العبد مراقبة الرب تبارك وتعالى، فقد استوجب معية الله له.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [1].

وقد عرفنا أن الإحسان يتمثل في المراقبة.

---

(١) النحل: ١٢٨.

وهذه المعية معية خاصة، فهو جل شأنه يكون مع أوليائه بتوفيقه وحفظه، يدلهم على الخير ويهديهم إلى مسالكه، ويرشدهم إلى مراعاة حقوقه وحقوق عباده فيه، وحفظ حقهم في ما تفضل به عليهم من ثواب عاجل وآجل.

وانظر في هذا المقام إلى ما وعظ به لقمان ــ عليه السلام ــ ابنه؛ فإنك تجد أنه بعد أن نهاه عن الشرك أمره بمراقبة ربه بأسلوب علمي بليغ شيق، حكاه عنه القرآن بتعبير معجز فقال: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

وفحوى هذه الوصية ــ كما هو ظاهر من ألفاظها ــ يدعو إلى مراقبة الله عز وجل مراقبة يَعِزُّ وجودها عند كثير من أولي العلم والمعرفة؛ فضلاً عن غيرهم من عامة الخلق.

وإذا علم المسلم علماً بلغ حد اليقين أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واستحضر ذلك في قلبه عند الإقدام على معصية الله ــ لم يعصه.

فالعامل مثلاً في مصنعه، والتاجر في متجره، والمعلم في معهده ــ لو علم أن الله يراه ما قصر في واجبه ولا خان أمانته.

وقد أعجبني ما قاله رجل من علماء الاقتصاد: إن لدي قانوناً لو عملتم به لوفرتم كثيراً من الجهد المبذول في مراقبة العمال والصناع وغيرهم ممن تسند إليهم الوظائف الكبرى والصغرى هنا وهناك، ويوفر الكثير والكثير من الأموال الطائلة التي تضيع سدىً بسبب الإهمال وسوء التصرف.

فقال الحاضرون: ما هو هذا القانون؟ ومن أين أتيت به؟ من أوربا أو من أمريكا!

فقال: ليس من هنا ولا من هناك، وإنما هو يتمثل ببساطة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾. لو غرسنا مفهوم هذه الآية في نفوس العمال

---

(١) لقمان: ١٦.

والصناع والتجار وغيرهم، ما احتاجوا إلى رقيب يتفقد أحوالهم ويتتبع آثارهم السلبية، وعندئذ تجري الأمور على ما يحبه الله ويرضاه، وعلى ما نحب نحن ونرضى، ويسود الأمن ويعم الرخاء، وتهدأ الأحوال وتطمئن القلوب.

أما إذا لم يكن هذا القانون الإلهي مفهوماً ولا معمولاً به، فإن القيم تتلاشى وتذهب الأخلاق، وتضيع المعالم ويظهر الفساد في البر والبحر.

وعندئذ يفتقد الناس الأمن في حاضرهم ومستقبلهم، ويَعُمُّ الكساد في مناحي الاقتصاد كلها.

روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مَرَّ بعبد من العبيد يرعى غنما، فأشار إلى إحدى الشياه وقال: بعني هذه الشاة يا غلام. فقال الغلام: إنها ليست لي. فقال عمر: قل لصاحبها: إن الذئب أكل واحدة منها.

فقال الغلام: فأين الله؟! فأعجب به عمر واشترى هذا الغلام وأعتقه، واشترى الغنم ووهبها له.

وبعد ذلك كان عمر يردد في كثير من الأحيان قوله: فأين الله.

ويروى أن شيخاً جليلاً كان يحب تلميذاً من تلاميذه أكثر من حبه لهم، فحسده بعضهم، فأراد أن يريهم فضله عليهم والسبب الذي من أجله أحبه حبًّا متميزاً عن حبه لهم، فأعطى كل واحد منهم طائراً وقال له: اذهب به فاذبحه في مكان لا يراك فيه أحد، فذهب كل منهم بطائره فذبحه، وجاء هذا التلميذ بطائره حيًّا، فسأله الشيخ أمامهم: لِمَ لم تذبحه يا بني، كما أمرتك؟، فقال إني كلما هممت أن أذبحه في مكان لا يراني فيه أحد، وجدت الله يراني: فعرف التلاميذ لماذا كان الشيخ يحبه ويقربه منه في مجلسه ويخصه بمزيد من حفاوته وتقديره.

إن من راقب الله عز وجل أمكنه أن يحاسب نفسه أولاً بأول، فتسره حسنته وتسوْؤه سيئته، فيشكر ربه على نعمة التوفيق إلى فعل الحسنات، ويستغفره من اقتراف السيئات، ولم يحّدث نفسه بارتكاب المزيد منها.

ويكون حاله كحال المتقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا

فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

فهؤلاء المتقون يراقبون ربهم في السر والعلانية، ويخشونه حق خشيته بقدر طاقتهم، ويتقونه حيثما كانوا، ويدعونه رغبا ورهبا، ويتهمون أنفسهم بالتقصير في حقه جل شأنه دائماً، لا سيما إذا وسوس لهم الشيطان بأنهم قد وفوا بما عاهدوا الله عليه؛ فهم في حذر دائم من عذاب الله تعالى وطمع دائم في عظيم فضله وواسع رحمته.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

المجيب "جل جلاله"

خلق الله الخلق بقدرته، وسيَّرَهم وفق مشيئته، ودَبَّرَ شئونهم بحكمته، واستغنى عنهم بذاته، فكانوا الفقراء إليه فقراً تاماً من أول أمرهم إلى آخره، فمنه وجودهم، وإليه مردُّهم، وعليه اعتمادهم في جميع أحوالهم وتصرفاتهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (١).

لهذا كان الدعاء من أفضل الوسائل التي يضرع بها العبد إلى ربه؛ لقضاء حوائجه وتحقيق مطالبه الدينية والدنيوية.

وذلك لأنه تعبير صادق عن العبودية الخالصة، ووفاء بحق الربوبية بقدر طاقة العبد ووسعه؛ فإنه لا يستطيع ــ قطعاً ــ أن يؤدي للربوبية حقها مهما بذل في ذلك من جهد.

قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

أي: ما عرفوه حق معرفته، وما عبدوه حق عبادته، وما شكروه حق شكره، لكنهم عرفوه وعبدوه وشكروه بقدر طاقتهم، فقبل الله منهم ما بذلوه وعذرهم فيما قَصَّرُوا فيه.

وبالدعاء يستدر العبد رحمة الله عز وجل، ويستجلب رضاه، فإذا قال العبد: يا رب، قال له الرب جل شأنه: لبيك يا عبدي، بشرط أن يكون العبد مؤمناً به مخلصاً له، صادقاً معه في توكله عليه وثقته بفضله.

والعبد إذا انقطع عن الدعاء، يشعر بالكرب قد ألَمَّ به من كل صوب وحَدَبٍ، ويُخَيَّلُ إليه كأنه يعيش وحده في غربة موحشة، ويجد نفسه في دوامة من الهموم والأحزان، فيضيق صدره ولا ينطلق لسانه بخير، فإذا دعا الله عز وجل بقلبه ولسانه واجتهد في الدعاء والضراعة، وجد نفسه قد أُلهمت رشدها،

---

(١) فاطر: ١٥ـــ ١٧.　　(٢) الحج: ٧٤.

وأونيت تقواها، واستردت رَوْحَهَا ورَيْحَانَها، واستعادت ثقتها بخالقها، وعاد إليها ما فقدته ــ بسبب الغفلة ــ من نور كانت تمشي به في الناس.

إن الدعاء الخالص هو الطريق إلى الله عز وجل؛ لما فيه من إظهار الخضوع والذل، والتمسكن والتواضع، وكمال الافتقار إلى الله الواحد القهار، فيه يكون القرب، وله يكون الحب، وبه يكون الفلاح في الدنيا والآخرة.

اقرأ بإمعان قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١).

وقد وَحَّدَ الله الضمائر في هذه الآية لإشعار عباده بالإيناس والقرب والحب والرحمة، فهو قريب منهم قرب إجابة، وهم قريبون منه قرب عبادة.

وهذه الضمائر تفيد الاختصاص بالدعاء والضراعة، فهو سبحانه جدير بأن يتوجه العباد بقلوبهم إليه.

وكأنه يقول: إذا سألك عبادي أنا، عني أنا، فإني أنا، أجيب أنا، دعوة الداعي إذا دعاني أنا، فليستجيبوا لي أنا، وليؤمنوا بي أنا، لعلهم يرشدون.

أي: لعلهم يبلغون الرشد، وهو الفلاح في الدنيا والآخرة، إذا ما خصُّوني بالدعاء.

وفي التعبير "بإذا" ما يشعرنا بتمام الافتقار إليه، فنحن لا محالة داعون وضارعون؛ لأن "إذا" أداة شرط لما يتحقق وقوعه أو يغلب على الظن تحقيقه، بخلاف "إن" الشرطية؛ فإنها يؤتى بها لما يشك في وقوعه.

ولما كان الدعاء بهذه المنزلة، تكرر الأمر به والترغيب فيه بأساليب الوعد بالإجابة والإثابة، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢).

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٣).

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) طه: ١١٤.

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (١).

﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢).

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٣).

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤).

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥).

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ ﴾ (٦).

﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧).

ومن فوائد الدعاء أنه يربي في النفوس ملكة الحياء من الله تبارك وتعالى؛ فإن العبد إذا دعا ربه تبارك وتعالى وهو على معصيته، استحيا منه، فإذا استجاب له اشتد حياؤه، والحياء شعبة من الإيمان، وهو خير كله، كما جاء في الحديث الصحيح.

كما أنه يغرس في نفوس العباد العزة؛ إذ يلجأ العبد في أوقات الشدة إلى الله وحده، ولا يلجأ إلى أحد سواه، وهذه هي العزة في أسمىَ مظاهرها وأرقى معانيها، فهم بهذه العزة ملوك يغبطون على ما هم فيه من نعمة، فهل هناك أعز وأكرم، وأقوى وأمنع، وأغنى وأعظم ــ من عبد استغنى بخالقه فلاذ به ولم يَلُذْ بسواه!

قال قائلهم وهو في نشوة العزة التي مَنَّ الله بها عليه:

الله قل وذَرِ الوجودَ وما حوى إن كنت مرتـاداً بلوغ كمـال

---

(١) الإسراء: ٨٠.
(٢) الإسراء: ١١٠.
(٣) الأعراف: ١٨٠.
(٤) الأعراف: ٥٥.
(٥) الأعراف: ٢٠٠.
(٦) الأعراف: ٢٠٥.
(٧) غافر: ٦٥.

فـــالكـــل دون الله إن حقَّقْتَـــهُ   عَدَمٌ على التَّفْصيل والإجمـــالِ

ومن فوائد الدعاء أيضاً أنه ينقل الداعي من صخب الحياة وضوضائها إلى رحاب المناجاة وصفائها، ويقطعه ولو لفترة محدودة عن شهوات الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل، ليصله بالملأ الأعلى، ويجعله يشعر باللذة الروحية، والطمأنينة القلبية، والسعادة النفسية، وفي ذلك ما فيه من الاستعداد القوي، والتهيؤ الفعَّال، لحسن التحول إلى المداومة على ما يرضي الله، والعزم الأكيد على مخالفة الهوى والشيطان.

وبعد: فإن هذا الاسم المقدس من الأسماء الحسنى التي تنزع من نفوس المؤمنين ما قد يصيبها من يأس وجَزع وخوف وهلع وضعف ووهن، ويشعرهم بأن الله قريب من عباده، يجيب المضطر إذا دعاه وهو موقن بالإجابة، ويكشف عنه السوء بما شاء وكيف شاء؛ فهو نعم المولى ونعم النصير ونعم المجيب.

وعلى العبد حين يدعو ربه عز وجل أن يستحضر في قلبه الشعور بأنه مفتقر إليه افتقاراً تاماً، فإن هذا الشعور يُوَلِّدُ شعوراً آخر، وهو تعظيم نعم الله عليه، فيدعو وهو شاكر، ودعاء الشاكرين لا يرد. قال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٢).

وبهذا الشعور المزدوج يدعو العبد ربه من غير إحساس بالجزع، الذي قد يعوقه عن الإخلاص فيه.

فإذا قال العبد: يا رب، شعر بادئ ذي بدء بأنه عبد فقير يدعو ربًّا بيده ملكوت كل شيء، وهو يقدم بين يدي دعائه أنه مغمور بالنعم الظاهرة والباطنة، وإنما يدعوه إلى ما يحتاج إليه طمعاً في المزيد من واسع رحمته ليس إلا.

وهذا المعنى قد يخفى على الكثير من طلاب العلم والمعرفة.

فأنا حين أقبل على ربي، أقبل عليه وأنا راض بما قسم، غير جازع مما

---

(١) آل عمران: ١٤٥.   (٢) إبراهيم: ٧.

وقع، فيرفع الله دعائي مع هذين الشعورين: الشعور بالافتقار، والشعور بما قضى وقدَّر.

ولكن لا يقوى العبد على ذلك إلا إذا غذَّى قلبه وعقله وروحه بذكر الله عز وجل؛ فبذكر الله تطمئن القلوب، وتسلم من هواجس النفس ووساوس الشيطان.

يقول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١).

ومن أجل ذلك أمرنا جل شأنه بالإكثار من ذكره؛ حتى يشملنا برحمته ويَعُمَّنَا بفضله في الدنيا والآخرة، فقال جل شأنه في سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٢).

أي: هو الذي يرحمكم ويعفو عنكم ويغفر لكم، ويسخر الملائكة بالدعاء لكم زيادة في صحائف أعمالكم، كلما أكثرتم من ذكره وتسبيحه. فإذا أكثر العبد من ذكر ربه ربَا الإيمان في قلبه، فصدر منه الدعاء نوراً يتلألأ في سماء الإجابة والقرب.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الأحزاب : ٤١ ــ ٤٣.

الواسع "جل جلاله"

عندما يذكر المسلم ربه عز وجل باسمه الواسع، يشعر بأنه أمام سعة في الفضل والرحمة، والعفو والعلم، وسائر النعم الظاهرة والخفية، فيتسع طمعه في كل نعمة تخطر في ذهنه، فيسأل الله إياها وهو موقن بالإجابة موغل في الرجاء؛ ثقة بأنه ما سمى نفسه جل شأنه بهذا الاسم إلا ليعرف عباده أنه لا يردّ سائلاً سأله، ولا يخيِّب رجاء من ارتجاه.

والمؤمن الحق إذا فهم معنى هذا الاسم كما ينبغي أن يكون الفهم، لم ييأس من روح الله، ولم يقنط من رحمته أبداً. فما معنى هذا الاسم العظيم في اللغة، وما مدلوله عند الراسخين في العلم، وما حظ العبد منه في الدنيا والآخرة؟

أقول: الواسع: اسم مشتق من السَّعة في كل شيء، وهي ضد الضيق.

يقال: فلان واسع العلم، أو واسع الرزق، أو واسع الفضل ونحو ذلك.

والواسع من أسماء الله: هو الذي وسعت رحمته كل شيء، وأحاط علمه بما كان وما يكون وما هو كائن، وهو الذي لا نهاية لسلطانه وغناه، وإحسانه وعطاياه، ولا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأن عن شأن، ولا حدود لمدلول أسمائه وصفاته؛ لأن أسماءه دالة على صفاته، وصفاته لا تنحصر، وهي صفات كمالية بكمال الذات، وسبحان من لا يحيط بذاته إلا ذاته، ولا يعرف كنه صفاته إلا هو جل جلاله.

وهذه المعاني وغيرها مما يتسع له مدلول الاسم في اللغة والشرع مبسوط في القرآن الكريم؛ توكيداً لمضمون الآيات، وبياناً لما تميزت به الشريعة الإسلامية من اليسر والسماحة ورفع الحرج ودفع المشقة، وما إلى ذلك من خصائص هذه الشريعة الغراء ومميزاتها.

فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

ففي هذه الآية يثبت الله جل جلاله عظمة ملكه وسعة فضله على عباده في تيسير أمر الصلاة عليهم في السفر، فأباح لهم عند الضرورة أن يتوجهوا في صلاة النافلة إلى أي جهة يسهل عليهم التوجه إليها، فهو يلقاهم بفضله وعفوه حيث كانوا وأينما توجهوا، ويوفِّيهم أجورهم كاملة يوم القيامة؛ لأنه واسع الفضل والرحمة، عليم بما في السرائر من حب وإخلاص.

وكما وعد المصلين بسعة فضله عليهم، وعد المنفقين بإجزال العطاء لهم فقال جل في علاه: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

وكم تكون هذه المضاعفة؟ إنها مضاعفة بلا حدود ولا قيود؛ لأن فضل الله العظيم لا يتناهى، وثوابه غير مقطوع.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (٣).

ولذلك رغَّب الله المنفقين في هذا العطـاء الذي لا يحُول ولا يزول فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤).

فقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيه توكيد لوعده الكريم بالمغفرة والفضل، وهو دخول الجنة في أعلى علِّيِّنَ. و"الفضل" أيضاً في الآية هو: الرزق

---

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) البقرة: ٢٦١.

(٣) هود: ١٠٨.

(٤) البقرة: ٢٦٧ـــ ٢٦٨.

الواسع في الدنيا خلفا لما ينفقه المؤمن في سبيل الله وابتغاء مرضاته، كما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١).

وقد يكون المرء فقيراً لا مال له، وضعيفاً لا نسب له ولا حسب، وفجأة ومن غير مقدمات يصير ذا ملك وجاه. ولا حرج على فضل الله، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد، وفي ذلك عبرة للمؤمن ونكاية للكافر.

وقد ضرب الله لنا المثل في ذلك بطالوت رضي الله عنه وأرضاه، فقد حسده اليهود حين اصطفاه الله ملكاً عليهم وقالوا: كيف يستحق الملك من لا مال له ولا نسب يعتز به، فبيَّنَ الله لهم ولغيرهم ممن هو على شاكلتهم أن الملك ملكه والأمر أمره، وهو أعلم بمن يستحق ومن لا يستحق فقال جل وعلا:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

والحسد داء الأمم الكافرة؛ فما كفر مَنْ كفر إلا بسببه، فقد حسد أهل الكتاب والمشركون محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله، واستكثروا عليه أن يكون خاتم المرسلين ولا مال له ولا ولد، فألزمهم الله الحجة وبَيَّن لهم المحجة بقوله جل شأنه: ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

---

(١) سبأ: ٣٩. (٢) البقرة: ٢٤٦ـــ ٢٤٧. (٣) آل عمران: ٧٣.

أي: واسع الهداية لمن شاء له الهداية، وواسع الحجة على من أعرض ونأى بجانبه وتولى كبره وحسد محمداً وأتباعه على ما خُصُّوا به دونهم ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

والمؤمن الحق هو الذي يُسَلِّمُ الأمر لله وحده ويسأله من فضله، ولا يتمنى ما فضَّل الله به غيره عليه، ويسعى جاهداً في عمل ما يقرِّبُهُ من خالقه ومولاه، فعندئذ يجده قد بادله حبًّا بحب وقرباً بقرب، ومنحه من فضله ما تقر به عينه وينشرح له قلبه، والله يجزي المحسنين بإحسانهم جزاءً واسعاً في الدنيا والآخرة.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢). والمؤمن الحق من إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا خُيِّرَ بين أمرين اختار أيسرهما وأقربهما إلى العدل؛ ثقة بفضل الله العظيم ورحمته الواسعة وحكمته البالغة.

فإذا استحكم الشقاق مثلاً بين الزوجين واستحال الوفاق، كان الفراق هو أقرب للتقوى وأبعد عن الظلم والمضارة.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ (٣).

واسعاً يؤتي كل ذي فضل فضله، ويجزي كل محسن بإحسانه، وعلى قدر نيَّتِه وثباته في الحق وبعده عن الشطط والغلط.

حكيماً يضع الأمور في موضعها، ويجعل لكل شيء قدراً.

وعندما يكون الرجل ذا مال واسع لا يستنكف أن ينكح امرأة ليس لها مال؛ فإن الفقر ليس عيباً ينقص قدرها إذا ما استوفت شروط الزوجة الصالحة،

---

(١) البقرة: ١٠٥. (٢) المائدة: ٥٤. (٣) النساء: ١٣٠.

فعسى الله أن يغنيها من فضله، أو يوسّع عليه في الرزق أكثر وأكثر. وخزائنه لا تنفض، وجوده لا ينفد.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وعلى المسلم أن يضرع إلى الله عز وجل في جميع أوقاته بدعاء دعت به الملائكة ربها للمؤمنين المخلصين، فيسأل ربه المغفرة والوقاية من عذاب الجحيم، ويسأله دخول الجنة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. هذا مع مراعاة آداب الدعاء المنصوص عليها في كتب السنة المطهرة، كالبدء والختام بحمد الله والصلاة على نبيه مع استحضار القلب والإيقان بالإجابة وإظهار الافتقار إليه جل شأنه.

يقول الله عز وجل حكاية عن حملة العرش ومن حوله: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِي السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢).

وبعد: فإن حظ العبد من هذا الاسم أن يكون رحيماً بالناس؛ اقتداءً بمن له الرحمة الواسعة، وأن يكون عفواً عمن ظلمه؛ فإن من معاني الواسع في اللغة: العَفُوُّ الذي يسع حلمه المذنبين، وأن يطلب العلم بأمور الدين والدنيا ويبذل وسعه في الطلب، مستعيناً في ذلك بمن وسع كل شيء علماً، وألا يفتخر بما أوتى من علم، وليقل ما قالته الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣).

---

(١) النور: ٣٢.　　(٢) غافر: ٧ــ ٩.　　(٣) البقرة: ٣٢.

الحكيم "جل جلاله"

الحكيم من الناس هو الذي يضع الأمور في موضعها، أو هو الذي يصيب في أقواله وأفعاله بقدر طاقته البشرية، أو هو الذي ينطق بالحكمة.

والحكمة: هي القول السديد والعمل الرشيد والتدبير الأمثل.

وهي أيضاً: حبس النفس عن الزيغ والانحراف عن الحق والميل مع الهوى الجامح والتيار المنحرف.

وهذه المعاني مأخوذة من الحَكَمة ــ بفتح الحاء والكاف ــ وهي ما يوضع في فم الفرس ليمنعه من الجموح.

والحكمة أيضاً: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

وتطلق أيضاً على العلم والفقه والخبرة والتجربة الدقيقة ذات المقدمات الصادقة والنتائج السليمة.

وتطلق أيضاً على جوامع الكلم، وهي ما قل لفظه وكثر معناه.

وتطلق على الحكم القائم على العدل.

وتطلق على النبوة أيضاً.

واقرأ في هذه المعاني قوله تعالى حكاية عن يوسف ــ عليه السلام ــ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (١) أي: آتيناه خبرة بشئون السياسة والملك، وعقلاً ذكياً يدبر به أمره، وعلماً بأصول الدين الذي يدين به آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبالحكم والعلم كان محسناً في معرفة ربه بنعوته الكمالية وخبيراً بأحوال الزمان وطبائع البشر، واقفاً على قواعد الإصلاح وملماً بمكارم الأخلاق.

واقرأ أيضاً قوله تعالى عن موسى ــ عليه السلام ــ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٢).

---

(١) يوسف: ٢٢. (٢) القصص: ١٤.

أي: آتيناه حكمة تهديه سواء السبيل، وتعصمه من الخطأ في القول والعمل، وعلماً بأصول التوحيد الخالص الذي دعا إليه يوسف من قبل في مصر، وقد خرج من مصر فراراً من كفر فرعون وطغيانه.

واقرأ قوله جل شأنه حكاية عن داود ــ عليه السلام ــ: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (١). أي: قوينا ملكه بالجند والمال وسعة السلطان، وآتيناه علماً يدبر به شئون هذا الملك، وآتيناه قدرة على التعبير الدقيق عما يجيش في نفسه بأسلوب حكيم.

وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ (٢). أي: علمناه من لدنا علماً جعله ينطق بالكلام البليغ المؤثر في النفوس المؤمنة.

هذا هو الحكيم من الناس، وهذه هي الحكمة المنسوبة إليهم، فما معنى هذا الاسم المقدس الذي وصف الله به نفسه؟

أقول: الحكيم: هو من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، ودبر شئون ملكه تدبيراً لا يعتريه خلل ولا تفاوت، وحكم بين عباده بالعدل المطلق، وهو يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل بالحكمة الباهرة والحجة الظاهرة والسلطان القاهر، ويقضي قضاءً لا يقبل الرد ولا التعقيب.

وهو الذي يُعلِّم من شاء من عباده الحكمة وحسن المنطق، وإحكام التدبير والتقدير، وتحري الصواب في الأقوال والأفعال.

فالحكيم المطلق هو الله وحده لا شريك له، لأنه يعلم أصول الأشياء بعلمه الأزلي الدائم علماً محيطاً مطابقاً لا يتطرق إليه اشتباه ولا خفاء.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن كثيراً مصحوباً بما يشبهه من أسمائه الحسنى، ويعمق مفهوم معناه في قلوب أولي الألباب، كالعزيز والعليم والخبير والواسع والتواب والعلي.

---

(١) ص: ٢٠.　　(٢) لقمان: ١٢.

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الملائكة الكرام: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١). أي: لك الحكمة البالغة في تعليم آدم الأسماء كلها من دوننا، فأفعالك يا ربنا مبنية على علمك المحيط بما كان وبما يكون وبما هو كائن، تنزهت يا ربنا، عما لا يليق بذاتك وصفاتك تنزيهاً تاماً.

وقوله جل شأنه حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ وهما يبنيان الكعبة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢). أي: إنك أنت الذي تهب العزة لمن تشاء من عبادك، وتؤتي النبوة لمن هو أهل لها؛ فأنت أعلم حيث تجعل رسالتك.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣).

أي: الحكيم الذي يقهر بجبروته من طغى وتكبر متى شاء وبما شاء وكيف شاء وفق علمه المحيط وخبرته التامة بكل شيء.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (٤). أي: واسع الفضل والرحمة، حكيماً في حُكمه وتدبيره لمصالح خلقه في عاجل أمرهم وآجله، يختار لهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

وقوله عز من قائل: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (٥). أي: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، لأهلككم بذنوبكم، ولكنه تواب يتوب على من تاب منكم، حكيم يعالج أموركم بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة المقنعة، ويسوسكم سياسة لا عسر فيها ولا حرج.

---

(١) البقرة: ٣٢. (٣) الأنعام: ١٨. (٥) النور: ١٠.

(٢) البقرة: ١٢٩. (٤) النساء: ١٣٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [1]. أي: علي عن خلقه بالعلم المحيط والإرادة النافذة والقدرة المنجزة، حكيم في وحيه بما شاء لمن شاء من عباده.

واعلم أن ختام كل آية توكيد لمضمونها، فيفسر الاسم تفسيراً يوافق هذا المضمون أو ذاك ولا يخرج عن المعنى العام.

وهذا الاسم المقدس يجمع الأسماء الحسنى كلها شأنه في ذلك شأن الكثير منهما، فالحكيم المطلق ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ هو الله وحده لا شريك له، ومن شأن الحكيم أن يكون عليماً بخلقه، رحيماً يرحم، قائماً عليهم بالقسط، مدبراً لشئونهم بالحكمة، عدلاً بينهم في حكمه، إلى آخر ما هنالك مما يتعلق بهذا الاسم من المعاني والمقاصد، والأسرار والآثار.

واعلم أيها الأخ المسلم أن أعظم ما يؤتاه المرء بعد الإيمان هو الحكمة، فإنها جماع الفضائل كلها.

يقول الله عز وجل: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [2]. أي: لا يعرف قدر الحكمة إلا الذين أوتوها، فهي منبع اللب ومصبه. واللب: هو العقل السليم الذي يغوص في لب الأشياء، ويدرك ما وراء المعاني من المقاصد والمرامي، وصاحب هذا اللب لا يكون إلا حكيماً يضع الأمور في مواضعها، ويأتي البيوت من أبوابها، ويعطي القوس باريها.

ولكي تكون حكيماً ينبغي أن تتسلح بالعلم، فإن العلم يدعو للإيمان، والإيمان نور، وبالنور تدرك الكثير من حقائق الأشياء، وتكون على بصيرة من أمرك في أقوالك وأفعالك، وعندئذٍ تكون حكيماً بقدر علمك وإيمانك.

---

(١) الشورى: ٥١.
(٢) البقرة: ٢٦٩.

يقول الله عز وجل: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ﴾ [1]. أي: تعلم كيف تؤمن بالله إيماناً يخلو تماماً من الشرك الجلي والخفي.

تعلم كيف تحبه وتصافيه وتخلص له دينك، وتهب له قلبك وتسلم له أمرك كله.

والإيمان بغير علم لا يكون صحيحاً؛ إذ كيف يؤمن العبد بربه وهو لا يعرف ما يليق بذاته وما لا يليق. ومن لا يعرف ذلك فكيف يقال: إنه حكيم، أو ذو حكمة.

وإن أردت أن تجمع الحكمة من أطرافها فتعرف على منبعها ومصبها من القرآن الكريم؛ فهو كتاب عزيز حكيم غير ذي عوج يهدي للتي هي أقوم، يخلو من التناقض والاختلاف والزيغ والانحراف، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

"فيه نبأ من قبلنا، وخبر من بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه فقد هَدَي إلى صراط مستقيم".

---

(١) محمد: ١٩.

الودود "جل جلاله"

عندما يذكر المؤمن الصادق المخلص ربه بهذا الاسم، يجد نفسه مغموراً بلطفه وعطفه ورحمته، ويشعر أنه متوجه إليه بقلبه، تاركاً ما وراءه من مال وولد وحسب ونسب، ويتعلق بحبال وده رغبة في قربه من حضرة قدسه سائراً إليه في منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين.

لا سيما إذا فهم هذا الاسم كما ينبغي أن يكون الفهم. فما معناه وفقك الله وهداك ورزقك حبه وحلاوة مناجاته؟

أقول: الودود من الناس: من أحبك وأثبت لك بالقول والعمل أنه يحبك ووجدت منه صفاءً ووفاءً وبراً.

أما ربك ــ عز وجل ــ فهو الودود الذي يغمرك بوافر وده، ويعطر قلبك بأنفاس حبه، ويجذبك جذباً حثيثاً إلى ساحة قربه، ويمنحك من نوره ما يفتح لك آفاقاً رحبة من التدبر في آياته القرآنية وآياته الكونية، حتى تصير من العارفين به، فتكون عبداً ربانياً لك عنده شأن عظيم لا يناله إلا من ذكره مثلك بهذا الاسم المقدس.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عادَى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلى ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه".

فقد أوجب الله موالاة أوليائه وحبهم، وحرم معاداتهم وبغضهم، وأعلن الحرب على من آذاهم أو استخف بهم، وهذا من عظيم وده لهم.

وقد وفقهم للتقرب إليه بالفرائض والنوافل حتى أحبهم، وهذا أيضاً من عظيم وده لهم.

فلما أحبهم وهبهم نوراً من نوره في أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، وكان معهم بالإحسان إليهم ودفع العدوان عنهم، وهذا من عظيم وده لهم كذلك.

فهذا الحديث تفسير مفصل لهذا الاسم المقدس.

ومثله في الدلالة ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله إذا أحب عبداً، دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض".

وهذا الحديث تفسير لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [2].

أي: سيجعل لهم في قلوب عباده محبةً وتقديراً خاصاً بهم، لأنهم أحبوا الله فأحبهم، ومن أحبه الله حبب فيه خلقه من الملائكة وغيرهم.

وقد زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، فأبطل الله زعمهم ورد كيدهم في نحورهم بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [3].

إن حب العبد لربه له أمارات تدل عليه، وحب الله للعبد أيضاً له أمارات تشير إليه.

---

(١) الأعراف: ٥٦.   (٢) مريم: ٩٦.   (٣) آل عمران: ٣١.

فمن أطاع الله عز وجل فقد أحبه، ومن عصاه فقد تولاه الشيطان واستحوذ عليه.

تعصي الإله وأنت تُظْهِرُ حبه هذا لَعَمْرِي في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعتــه إن المحب لمن يحب مطيــع

إن الله عز وجل ودود لمن طلب وده وتفانى في طلبه.

فالود معاملة خاصة، بخلاف الرحمة فإنها عامة للطائعين والعصاة، فللعصاة رحمة وللطائعين ود ورحمة، فتأمل ذلك ولا تغفل عنه.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

فهذه الآية تبين من هم أعداء الله ومن هم أحباؤه، ومن هم أحق بوده من غيرهم، فدرجات الحب كثيرة، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات في الآية هم أعلى درجة عند الله وأعظم أجراً؛ لأنهم بادلوه حبًا بحب.

وقد بدأ في الآية بذكر حبه لهم قبل ذكر حبهم له؛ لدلالة على أن الخير منه وإليه، وأن قلوب العباد بين يديه.

ووصفهم بأول وصف يقربهم منه ويدنيهم من حضرة قدسه وهو التواضع للمؤمنين، والتعالي على الكافرين؛ إذلالاً لهم، كما أمرهم بذلك في قوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

فتعاليهم عليهم سلاح من أسلحة الجهاد في سبيل الله، وهم لشدة حبهم لله وحسن ثقتهم بفضله وتوكلهم عليه ــ لا يخافون فيه لومة لائم؛ لأنهم على الحق المبين.

---

(١) المائدة: ٥٤.   (٢) التوبة: ١٢٣.

وقد ورد هذا الاسم المقدس في القرآن الكريم مرتين، مرة جاء مقروناً بالرحيم، ومرة جاء مقروناً بالغفور.

قال تعالى حكاية عن شعيب ــ عليه السلام ــ:

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [(١)].

وقال جل شأنه في سورة البروج:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾.

فهو شديد البطش على أعدائه، غفور ودود لأوليائه، يزحزحهم عن النار بمغفرته، ويدخلهم الجنة برحمته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن معاني الودود أنه يبادل عباده شكراً بشكر؛ تأليفاً لقلوبهم، وشحذاً لعزائمهم، واستنهاضاً لهممهم، ودفعاً لشبح اليأس عنهم.

يقول عز وجل:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[(٢)].

ويقول عز من قائل بعد أن بَيَّنَ ما أعد للأبرار في جنات النعيم:

﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ [(٣)].

ويتودد إليهم ربهم بالوعد الحسن على ما قدموه لأنفسهم من ذكر وشكر فيقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [(٤)].

---

(١) هود: ٨٩ــ٩٠.

(٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) الإنسان: ٢٢.

(٤) البقرة: ١٥٢.

ويقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١).

وتتجلى عظمة وده لعباده على نحو فيه مواساة وأنس وتبشير في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢).

وفي قوله جل وعلا: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣).

وقوله عز من قائل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٤).

ونختم حديثنا عن هذا الاسم المقدس بهذا الدعاء المبارك الذي من دعا به مخلصاً استجاب الله له بفضله وكرمه.

"يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا فعال لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وبقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثني".

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) الشورى: ٢٥ــ ٢٦.

المجيد "جل شأنه"

يشعر المؤمن عندما يذكر الله عز وجل بهذا الاسم المقدّس ـــ بالعزة والشرف؛ لأنه قد آمن به ووثق بفضله، وأحسن التوكل عليه، واعتصم بحبله المتين، واعتز بعبوديته له، وأحس أن مجده من مجده حدث، وعزه من عزه اقتبس.

إنه يفخر بهذه العبودية التي مَنَّ الله عليه بها وهداه إليها، ووفقه للقيام بوظائفهما، ووصفه بأوصافها في كتابه العزيز، وأضافه إليه تعظيماً له وتكريماً، وجعله من خير أمة أخرجت للناس: أمة محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ويقول بلسان حاله:

لقـــد زادني فرحـــاً وتِيهـــا   وكدْتُ بأخْمصِي أَطَأُ الثُّرَيَّـــا
دُخُولي تحت قولك يا عبادي   وأن صَيَّرْتَ أحمـــدَ لي نبِيـــاَّ

وكلما اتسعت مدارك العبد في فهم معاني هذا الاسم المقدس، ازداد له إجلالاً وحُبًا وتفانيا في العبودية، فلا يرى لنفسه شرفاً إلا في طاعته، ولا عزة إلا في رضاه، ولا يجد الأنس إلا به.

وذلك لأن لأسمائه الحسنى أسراراً عامة يجدها العبد المخلص في كل اسم ذكره به، وأسراراً خاصة بكل اسم منها تلوح للأصفياء من عباده، فيرتقون بها في سُلَّم المجد الإلهي بقدر مقامهم في التَّعَبُّد.

ومقامات التعبد ثلاثة، ذكرها ابن عطاء الله السكندري نقلاً عن شيخه أبي العباس المَرْسِيِّ، فقد سمعه يقول:

العباد ثلاثة: عبد عبادة، وعبد عبودية، وعبد عبودة.

أما عَبْدُ العِبادة فهو الذي يتَّجِرُ مع الله فيما يتقرب به إليه؛ خوفاً من ناره وطمعـــاً في جنتـــه، وكلما فعل حســـــنة عدَّها لنفسـه ربحاً عند ربه يرجو الجزاء عليـــه برفع الدرجات في الجنة التي لا يدخلها أحد إلا برحمته.

وأما عبد العُبُوديَّةِ فهو الذي يعبد الله عز وجل؛ رعاية لحق العبودية، ولا يرى لنفسه عملا يُجزى به، ويقول بلسان حاله. يا رب، إن عذبتني فبمحض عدلك، وإن أثبتني فبمحض فضلك.

وأما عبد العُبُودَةِ فهو الذي نظر فأبصر الحق فعرف ربه بنعوت جلاله وجماله وكماله، فلزم بابه ولاذ به، ولم يلذ بأحد سواه، واستغرق قلبُه في حب مولاه، فلم يشغله عن ذكره، وقطع طمعه في كل شيء إلا في رضاه، وقال بلسان حاله:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وَلَيْتَ الَّذي بَيْني وَ بَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَمَا بَيْنِي و بين العَالَمِين خَرَابُ
إن صَحَّ منك الوصل فالكل هَيِّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

وكل عبد من هؤلاء الثلاثة يدرك معنى أو أكثر من معاني "المجيد"، ويبصر شيئاً من أسراره بقدر تعلقه به، ويرى في نفسه بعض آثاره على مشاعره وأخلاقه وسلوكه.

ونحن لقصور هممنا لا نكاد ندرك من معاني أسماء الله الحسنى إلا بالقدر الذي تقتضيه اللغة ويرتضيه الشرع.

فما معنى المجيد في اللغة والشرع إذن؟

أقول: المجيد هو الأعز الأكرم، المنفرد بجميع آيات الجلال والجمال والكمال، المقدس في ذاته وصفاته وأفعاله، الغني بذاته عن سائر خلقه، المتعالي على عرشه، القوي في سلطانه، القاهر فوق عباده، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الأمر كله، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

كل هذه المعاني تتسع لها اللغة ويقتضيها المعتقد الخالي من التشبيه والشبهات.

تقول كتب اللغة: المجدُ: هو الشرف المنيع والحسب الرفيع، والخلق الفاضل والسلوك النبيل.

والمجيد من الرجال: كريم الخصال، حميد الأفعال، كثير الخيرات، عظيم البركات، يشهد له الناس بسعة الفضل والكرم.

والمجد في الشرع: يتمثل في شرف العبودية وعز الطاعة، والمسارعة إلى الخيرات والتعاون على البر والتقوى، فلا يكون المرء ماجداً بكثرة ماله أو بشرف نسبه وحسبه فحسب.

يقول النبي ﷺ: "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١).

إن عزة المؤمن قبس من عزة الله عز وجل، فمن أعزه الله بالإيمان واليقين، فهو العزيز الماجد، ومن أذله الله فلا معز له ولا خير فيه، مهما علا بين الناس شأنه وعظم قدره.

يقول الله عز وجل: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢).

ويقول جل شأنه في تسفيه المنافقين، الذين أخذتهم العزة بالإثم: ﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

أي: لا يعلمون معني العزة، ولا يعرفون مصدرها. ولو عرفوا معناها ومصدرها، ما وصفوا أنفسهم بها ظلماً وزورا.

---

(١) المؤمنون: ١٠١ـــ ١٠٣. (٢) فاطر: ١٠. (٣) المنافقون: ٧ـــ ٨.

وقد وصفهم الله في آية أخرى فقال: ﴿ بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [1].

وقد ورد هذا الاسم المقدس في القرآن مرتين: مرة في سورة هود مؤكداً بشرى إبراهيم ــ عليه السلام ــ وزوجه سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [2].

ومرة في سورة البروج: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [3].

وقد قرن هذا الاسم بالحميد في سورة هود؛ لأن المقام يقتضيه، فهو جل شأنه حميد، يحمده الشاكرون من عباده على ما أولاهم به من نعم، وإبراهيم ــ عليه السلام ــ من أعظم الحامدين الشاكرين، وزوجه سارة من أعظم الحامدات الشاكرات.

وهو أيضاً يَحْمَدُ لعباده حسن صنيعهم بأنفسهم وأهليهم وإخوانهم من المؤمنين وإخلاصهم له في العبادة.

وشأن الحامد والمحمود أن يكون مجيداً، يبادل عباده حمداً بحمد، وحباً بحب، وقرباً بقرب.

وقوله تعالى في سورة البروج: ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ يشعرنا بعظمة مجده، ويوحي بأنه أهلٌ للعفو كما هو أهل للانتقام.

وقد وصف الله كتابه بالمجد فقال: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أي: الشريف في معانيه ومراميه، العزيز في إيجازه وإعجازه، المهيمن على سائر الكتب السماوية، فهو مرفوع عنها بسعة تشريعه وعذوبة بيانه وشموله لمناحي الحياة

---

(١) النساء: ١٣٨ــ ١٣٩.　　(٢) الآية: ٧٣.　　(٣) الآيات: ١٢ــ ١٥.

كلها، يشهد له كل من سمعه بالعظمة والجلال والجمال والكمال؛ لأنه كلام الله العزيز المجيد.

فمن أراد من العباد أن يكون له شيء من المجد، فليكن عبداً لله حقًّا.

بمعنى: أنه يكون ملتزماً قواعد العبودية، واقفاً عند حدودها، مؤدياً لواجباتها المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وقد وصف الله عباده في القرآن بجملة أوصاف من أبرزها ما جاء في أواخر سورة الفرقان بدءاً من قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

ومن أبرزها أيضاً ما جاء في أول سورة "المؤمنون" بدءاً من قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وقد عرَّف النبي ﷺ الإحسان: وهو أعلى المقامات بقوله: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

يعني: أن تعبده عبادة من يراقبه مراقبة تامة في جميع أحواله كأنه يسمعه ويراه.

" اللهم، وفقنا لتمجيد ذاتك وصفاتك وأفعالك في سرنا وعلانيتنا، وهب لنا من لدنك مجداً نتقرب به إليك ونصلُ به إلى حضرة قُدسك في الدارين؛ إنك سميع قريب مجيب".

الباعث "جل جلاله"

عندما يذكر العبد ربه باسمه الباعث تعتريه رجفة من خشيته ومهابته، ويشعر من أعماق نفسه أن وراءه يوماً ثقيلاً يسأل فيه عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، ويحاسب عن كل صغيرة وكبيرة حساباً عسيراً أو يسيراً على حسب حاله في الطاعة والمعصية، فلا يسعه بعد التأمل والنظر في مصيره المنتظر إلا أن يستجيب لربه ويخضع لجلاله وعظمته، ويحاسب نفسه على تصرفاته قبل أن يحاسب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إن الباعث سبحانه يبعث في كيانه كله الروح المبصرة التي تعينه على التمادي في الخشية والخضوع والتمَسكن والتواضع لخالقه ومولاه، وتحيي في نفسه الرغبة في التخلص من أهوائه الجامحة ونزواته الطائشة بقدر طاقته البشرية.

ويجعله قادراً على إحياء نفسه بنور العلم والإيمان وإماتة شهواته وملذاته بالتذكر الدائم في الموت وما بعده، وهو في الدار البرزخية، وفي البعث وما بعده من ثواب وعقاب.

ويجعله سائراً بجدٍ في طريق الهدى فاراً إليه بسفينة العلم من المعاصي إلى الطاعات، بل وفاراً منه إليه، ضارعاً إليه بقوله:

"اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا منجاة منك إلا إليك".

وإذا نظرنا في هذا الاسم نظرة عابرة، وجدنا له أسراراً كثيرة يتكشف لنا بعضها في سياق حديثنا عنه بإذن الله تعالى.

فما معنى الباعث جل جلاله؟

الباعث: هو الذي يبعث الخلق ليوم لا ريب فيه، فينهض المؤمنون على صوت المبشرين لهم باللقاء الحميد وبالجنة التي أعدت لهم جزاءً بما كانوا يعملون.

وينهض الكافرون فيقولون ـ وهم في منتهى الهول ـ: من بعثنا من مرقدنا، فتقول لهم الملائكة: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

والملائكة يشهدون لهؤلاء المؤمنين بأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأخلصوا له في القول والعمل، ويشهدون على هؤلاء الكافرين بكفرهم وإعراضهم عن الحق بعدما تبينت لهم معالمه، فيقضي الله بينهم بالحق، وكفى بالله شهيداً وكفى بالله حسيباً.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١).

وهذا المعنى هو الذي يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذا الاسم، ولكنه يتسع لفظه فيشمل معاني كثيرة تدخل كلها تحت معناه اللغوي، وهو الإثارة والإنهاض، يقال: بعثته من مكانه، أي: أنهضته وأثرته وجعلته يقوم من مكانه أو من نومه على وجه السرعة بهمة ونشاط.

ولذلك سمي الإخراج من القبور بعثاً في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (٢).

وسمي بعثرة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾(٣).

ويقول الله عز وجل في سرعة إخراج الناس من قبورهم: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (٤).

---

(١) المجادلة: ٦.
(٢) الحج: ٧.
(٣) العاديات: ٩.
(٤) ق: ٤١ ـ ٤٤.

ويقول جل شأنه: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ (١) أي: فإذا هم من القبور يخرجون مسرعين إلى أرض المحشر.

ويقول سبحانه: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ (٢) أي: إن خروجهم من القبور يشبه في سرعته خروج الجراد بكثرة هائلة وفي سرعة خاطفة مذهلة من أعماق الأرض فيغطي صفحة السماء في لمح البصر.

ويقول عز من قائل: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (٣) أي: كأنهم إلى أصنامهم التي نصبوها للعبادة يتسابقون، فهم يومئذ يسرعون إلى النار، كما كانوا يسرعون إلى الأصنام. والإيفاض في اللغة: الإسراع.

وتوسع الشيوخ في معنى هذا الاسم وفق المدلول اللغوي الذي سبقت الإشارة إليه فقالوا: الباعث هو باعث الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٤).

وقال عز شأنه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٥).

ولقد كان بعث الرسل نعمة من أعظم النعم على الناس؛ لأنهم أخرجوا الكثير منهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وقالوا: الباعث هو الذي يبعث من كل أمة من يشهد لهم أو عليهم.

قال جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٦).

---

(١) يس: ٥١.
(٢) القمر: ٧.
(٣) المعارج: ٤٣.
(٤) النحل: ٣٦.
(٥) الجمعة: ٢.
(٦) النحل: ٨٤.

وقال عز من قائل: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء ﴾ (١).

وقالوا: الباعث هو الذي يبعث عباده على الأفعال التي تحفظ عليهم حياتهم وتحقق لهم المطالب الضرورية التي لا غنى لهم عنها، وجعل لهم من الغرائز ما يدفعهم إلى ذلك عن رغبة تارة وعن رهبة تارة أخرى.

ويغوص القشيري في معاني الباعث فيقول: هو الذي يبعث الخواطر الخفية الأسرار. فدواع يبعثها إلى الحسنات، ودواع يبعثها إلى السيئات.

وقيل: الباعث من يبعث الهمم إلى الترقي في ساحات التوحيد، والتنقي من ظلمات صفات العبيد.

وقيل: الباعث من يبعثك إلى عليات الأمور ويذهب عنك وساوس الصدور.

وقيل: الباعث الذي يصفي الأسرار عن الهوس، وينقي الأفعال عن الدنس.

ويطلق البعث على القيام من النوم، وهو إحياء مؤقت من موت مؤقت.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وقد كان النبي ﷺ في أوائل بعثته يطوف على بيوت بني هاشم فيدعوهم إلى الإسلام ويذكرهم بالبعث والنشور فيقول: "والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتتحاسبن عما كنتم تعلمون، ولتجزونَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً" وهو كلام حكيم وتصوير بليغ للبعث والنشور يعد من جوامع كلمه ﷺ.

ويصح أن يقال: إن الباعث هو الذي يبعث الجاهل من جهله بالعلم والمعرفة، فالجهل موت والعلم حياة.

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) الأنعام: ٦٠.

ويبعث الكافر من كفره بإلقاء نور الإيمان في قلبه، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وخلاصة هذه المعاني التي ذكرناها تنحصر في بعث الناس من القبور، وإخراج المؤمنين من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وإثارة الناس لتحقيق مطالبهم الضرورية بالغرائز التي أودعها فيهم.

وقد دندن الشيوخ الأجلاء حول هذا الاسم فاقتبسوا منه أسراراً عبروا عنها بأقوالهم التي ذكرنا طرفاً منها نقلاً عن الإمام القيشري.

والمؤمن إذا ذكر الله بأي اسم من أسمائه الحسنى ــ لاح له من أسراره بقدر نوره المشرق في قلبه فيجد لهذه الأسرار حلاوة تشغله عن شهوات الدنيا الفانية وملذاتها الزائلة، وعاش حياته مستمتعاً بتقلبه بين هذه الأسماء القدسية مطمئناً بها قلبه حتى يلقى ربه آمناً من الفزع الذي يلقاه غيره من الغافلين المعرضين.

يقول الله ــ عز وجل ــ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(١).

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأحينا بكلمة التوحيد، وأمتنا عليها، وابعثنا بها يوم القيامة آمنين، وأدخلنا بها جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

---

(١) الرعد: ٢٨ـــ ٢٩.

الشهيد "جل جلاله"

إذا ذكر العبد ربه باسمه الشهيد أشرق قلبه بأنوار العلم والمعرفة، ولاحت له بعض أسرار هذا الاسم، فاستوعبها وسرت في كيانه كله، فأورثته على طول المدى أعظم شعبة من شعب الإيمان، فاستخلصها لنفسه ونجا بها من شرها وأشرها، وهي مراقبة الله عز وجل في السر والعلانية، بحيث لا يسمح لنفسه أن يراه مولاه حيث نهاه، ولا يفتقده حيث أمره.

وعندئذ يكون قد بلغ الدرجة العليا من درجات الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، وينتهي به الأمر إلى ألاَّ يرى في الوجود سواه، فيكون محبوباً عنده محباً له، يشهده الله من آيات قدرته وجلاله وجماله ما تقر به عينه، ويسبق أقرانه من المؤمنين في الخيرات.

إن هذا الاسم المقدس يجعل الذاكرين الله به في حضور دائم لا تعتريهم غفلة ولا تعكر صفوهم شبهة، ولا تكدر جلوتهم شهوة، ويجعلهم على يقين بأن الله عز وجل لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا تأخذه في تدبير شئون ملكه سِنة ولا نوم.

ولهذا الاسم المقدس معانٍ لغوية نستمد منها المعاني اللائقة به جل جلاله فنقول:

١ ــ الشهيد: هو الحاضر بذاته أزلاً وأبداً لا يغيب عن الوجود ولا يغفل عنه، ولا يعجزه حفظ ما فيه.

وهذا المعنى مستمد من قولهم: شهد المعركة أي: حضرها ولم يغب عنها، ويقال لمن حضر الشيء: شاهد عليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [١] أي: من حضر شهود رؤيته وهو مقيم غير مسافر فليصمه.

---

(١) البقرة: ١٨٥.

والشهيد مبالغة في الشاهد، كرحيم بمعنى: راحم، وسميع بمعنى: سامع.

٢ ـ والشهيد أيضاً: هو العليم بظواهر الأمور وبواطنها على أتم وجه وأكمله. يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

والغيب كل ما خفي واستتر، والشهادة كل ما لاح وظهر.

والله عز وجل قد أحاط علماً بالمرئيات والمسموعات والمعقولات والمعنويات، وما وراءها من الأسرار المستكنة في القلوب وفي غياهب الغيوب، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

أي: العليم بما لطف من الأمور الخفية، الخبير بأسرارها وآثارها.

ولعلك تسأل هنا عن الفرق بين العليم والخبير والشهيد، فأقول لك: هي أسماء بعضها من بعض، كل اسم منها يقوم مقام الآخر في المعاني كلها؛ غير أن كل اسم منها يشعرك بشيء من الجلال والكمال لم يشعرك به الآخر أكثر منه؛ نظراً لما يحتويه اللفظ من المعاني اللغوية الزائدة عليه.

لكن إذا جمعت بينها لاحت لك بعض الفروق في التعبير لا في التأثير.

فأنت تقول: الله عليم بحالي وخبير بسري وعلانيتي وشهيد على ما أقول، فيدل كل اسم على ما يدل عليه الآخر مع زيادة هنا وهناك تفهم من التغاير اللفظي.

يقول الإمام الغزالي في كتابه المقصد الأسنى في الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة: إذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

وهذه التفرقة تفيد ما ذكرناه من أن بينها اتفاقاً في المعاني وافتراقاً في

---

(١) الحشر: ٢٢. (٢) الأنعام: ١٠٣.

بعضها بحسب ألفاظها؛ فهو من قبيل قولهم في أصول اللغة: اثنان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

فإذا قيل: الله هو العليم فهو الخبير والشهيد، وإذا قيل: الله هو العليم الخبير فرقت بينهما في المعنى على النحو الذي ذكره الإمام الغزالي. فلا يغيب عن ذهنك ما قررناه. ونسأل الله لنا ولك مزيداً من العلم والفهم.

٣ ــ ويطلق اسم الشهيد على الشاهد المقر بما رأى وسمع، وعليه يكون الشهيد من أسماء الله: هو الذي يسمع ويرى ويثبت لعبده ما علمه منه؛ ليجزيه به.

وهذه المعاني الثلاثة قد وردت في كتاب الله تعالى مبسوطة كل البسط.

وسنذكر هنا بعض الآيات التي تُجلى لنا هذه المعاني الثلاثة وغيرها مما يتصل بها.

يقول الله عز وجل: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

فشهادة الله لنفسه بالوحدانية شهادة علم وتنزيه وتقرير.

والمعنى: علم أنه الواحد الأحد في ذاته وصفاته وأفعاله، ونزه نفسه عما لا يليق بذاته، وقرر ذلك التوحيد الخالص في قلوب أوليائه وأصفيائه فنطقوا بهذه الشهادة بلسان الحال والمقال.

ويقول جل شأنه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢).

والشهيد في هذه الآية معناه: الدليل على ذاته وصفاته بأفعاله، فقد خلق الخلق ونصبهم أدلة على وحدانيته، فكان من الناس من جهل أو تغافل عن هذه الدلائل فأعرض عنها وكفر بموجدها.

---

(١) آل عمران: ١٨.   (٢) فصلت: ٥٣.

وكان منهم من عرف الله بها فقال في نفسه: لابد للخلق من خالق له صفات الكمال والتنزيه، فأقر لله بوحدانيته وأخلص له في عبوديته.

ومنهم من أتم الله عليه النعمة ووهبه شيئاً من العلم اللدنى فعرف الله بالله.

وقد قال قائلهم: عجباً لمن يستدل عليك بخلقك وكان الأولى به أن يستدل بك عليك!!

وهذا كلام في غاية الحسن لمن عقله وتدبره؛ فالشهيد سبحانه قد فطر عباده على وحدانيته، فما من مولود إلاَّ ويولد على هذه الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما جاء في الحديث الصحيح.

يقول الله جل وعلا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ويصح أن يكون معنى الشهيد في الآية الرقيب الذي لا تخفى عليه خافية، والأول في نظري أنسب لسياق الآية.

ويقول عز من قائل: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

أي: محيط بسائر أعمالكم مطلع عليها، أفلا تخافون أن يأخذكم بكفركم ويجازيكم عليه أسوأ الجزاء.

ومثلها قوله تعالى على لسان عيسى ــ عليه السلام ــ يوم القيامة:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٣)

أي: كنت قائماً عليهم، أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون، فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودي بينهم، فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك، وأنت شهيد عليهم، وشهيد بيني وبينهم؛ لأنك الشهيد على كل شيء.

---

(١) الروم: ٣٠. (٢) آل عمران: ٩٨. (٣) المائدة: ١١٧.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1] أي: وكفى بالله شهيداً على أنك رسوله جئت بالهدى من لدنه، ودعوت إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويقول جل شأنه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [2].

فقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يسأل الكفار: أي شيء شهادته أكبر شهادة وأصحها وأعدلها، ثم أمره بأن يجيب أن أكبر الأشياء شهادة شهادة الذي لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا خطأ.

وشهادة الله عز وجل لرسوله ثلاثة أنواع:

الأول: إخباره برسالته في كتابه، بمثل قوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾.

والثاني: تأييده بالمعجزات الكثيرة، وأعظمها القرآن الكريم؛ فهو المعجزة العقلية الدائمة، تحدى الله به الإنس والجن جميعاً فعجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

والثالث: شهادة الكتب السابقة له، وبشارة الرسل الأولين به.

ولنلاحظ كيف ربطت الآية بين وصف الشهيد وأهم ما تكون فيه الشهادة وهو الشهادة بالتوحيد.

فهاهو ذا رسول الله ﷺ يواجه هؤلاء المشركين، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم، وبين توحيده وشركهم، وبين إسلامه وجاهليتهم، وليقرر لهم أنه لا موضع للقاء بينه وبينهم، إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه، وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر؛ لأنه يفترق معهم في أول الطريق!!

وهاهو جل شأنه يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يسألهم سؤال تقرير وتعجيز عن أكبر شهادة تشهد أنه الواحد الأحد، وأنه هو الذي أرسله بالهدى

---

(١) النساء: ٧٩. (٢) الأنعام: ١٩.

ودين الحق ليدعوهم إلى عبادة الخالق وترك عبادة المخلوق. ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ أي: في نظركم.

ولما كان الواقع يشهد بأن الله هو أكبر شهادة، وأنهم لا ينكرون ذلك لَقَّنَهُ الجواب الذي يفرض نفسه على العقول النَّيِّرَةِ، فقال جل وعلا: ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي: الله هو أكبر شهادة، فهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين، وهو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله، فإذا قال فقد انتهى القول وقضي الأمر.

وأكد الله هذا الجواب بقوله في الآية: ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي: هو أكبر شهادة على وحدانيته، وهو أيضاً شهيد بيني وبينكم في قضية الرسالة.

فإذا تقرر هذا المبدأ، وهو مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه قد تضمنها القرآن الذي أوحاه إليه لينذرهم به، وينذر به كل من يبلغه في حياته ﷺ أو من بعده؛ فهو حجة عليهم وعلى من يبلغهم من غيرهم؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، ويقوم عليها الوجود كله، والوجود الإنساني ضمناً.

"اللهم يا شهيد، أشهدنا الحق حيث كان، وارزقنا اتباعه، واجعلنا من خيار الشهداء لك بالوحدانية في الذات والصفات والأفعال؛ إنك سميع قريب مجيب".

الحق "جل جلاله"

إذا ذكر العبد ربه في خلوته وهو خالٍ من شواغل الدنيا، لم يبدُ له في الوجود سوى الله، وعندئذ يكون قد عرف أن موجد الوجود هو الموصوف بالحق؛ لأنه هو الأول الذي لا أولية لوجوده، وهو الآخر الذي لا نهاية لبقائه. كان ولا شيء معه، فأراد أن يُعرف فخلق الخلق وعرَّفهم بنفسه، فعرفوه بأنه الحق المستحق للعبادة دون سواه، فعبدوه طوعاً وكرهاً، وسبحوا بحمده بلسان الحال والمقال.

فهو الحق المتحقق في ذاته وصفاته وأفعاله، والمتجلي بأنوار جلاله وجماله على سائر مخلوقاته.

وهو الحق في ألوهيته؛ إذ لا شريك له في مُلكِهِ، ولا مدبر معه في أمور خلقه.

وهو الحق المتَيقَّنُ وجوده في قلوب أوليائه، لا يلتبس لأدنى شبهة باطل.

وهو الحق الذي أحقَّ الحق وأبطل الباطل، وحكم بين عباده بالحق، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

وهو الحق المطلق الذي يأخذ منه كل شيء حقيقته، فلا وجود لشيء إلا به، ولا حقيقة لشيء موجود في الوجود إلا وهي مستمدة من وجوده؛ فكل شيءٍ بقدرته كان ويكون، وأمره بين الكاف والنون.

وقد سمى الله نفسه الحق؛ ليُعَلِّم عباده أن الحق كلَّ الحق في الإيمان به والتوكل عليه، وتسليم الأمر له والخضوع إليه، والثقةِ في عدله وفضله.

وقد ورد هذا الاسم المقدس في القرآن الكريم عشر مرات، في كل مرة نلمح معنى من معانيه التي ذكرنا بعضها، وذلك من خلال سياق الآية التي ورد فيها؛ فإن أسماء الله الحسنى تتعدد معانيها بتعدد ورودها في القرآن بحسب المعاني التي يؤكدها كل اسم منها.

والمفسر البصير ينظر في الآية التي يريد تفسيرها أولاً، فيقلِّب الفكرة في أوائلها وأواسطها وأواخرها، ثم ينظر في سوابقها ولواحقها، ثم ينظر في موضوعها العام، ثم يلقي نظرة على موضوعات السورة ككل؛ فإنه إذا فعل ذلك كله سيجد لكل حرف من حروف الآية معنى في غيره، وكل اسم ورد فيها له دلالة خاصة قد يبصرها من أول وهلة، وقد يبصرها بعد طول تأمل، وقد لا يبصرها أبداً؛ لقصور فهمه وضعف نور بصيرته.

ونحن ــ بحمد الله تعالى ومشيئته ــ سنحاول أن نَتَلَمَّسَ معاني هذا الاسم المقدس في هذه الآيات العشرة، ونتعرف على ما تنطوي عليه هذه الآيات من عظات وعبر بإيجاز؛ كي لا نخرج عن موضوعنا الذي نحن فيه.

(١) يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمْ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (١).

فالحق في هذه الآية: هو القادر، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقضي بين عباده بالحق، وقد كتب عليهم الحق: وهو الموت، فلا مَفَرَّ لهم منه ولا مما بعده من حساب وجزاء.

وهذا المعنى يؤخذ من هذه الآية ومما قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾. ويؤخذ من الآية التي بعدها أيضاً، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾.

(٢) ويقول تبارك وتعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمْ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢).

والمراد بالحق في هذه الآية: الحقيق بأن يُعْبَدَ ويطاع؛ بدليل قوله تعالى في ختام الآية: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: غاب عنهم ما كانوا

---

(١) الأنعام: ٦٢.

(٢) يونس: ٣٠.

يزعمون من آلهة باطلة، هم يعلمون أنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، فعبدوها من دون الله فباءوا بالخسران المبين في الدنيا والآخرة.

والحق أيضاً في هذه الآية معناه: الشهيد الذي يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل؛ بدليل الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾.

والحق أيضاً في هذه الآية معناه: مُدَبِّرُ الأمر بالحق وفق علمه المحيط بكل شيء، وإرادته النافذة في كل شيء، وقدرته التي لا يعجزها شيء؛ بدليل الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾.

(٣) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [١].

والحق في هذه الآية: هو الرب الذي ينبغي أن يلوذ العباد به، ويعتمدون على ما عنده في خزائن رحمته، لا على ما عند أنفسهم من متاع زائل في دنيا مدبرة.

هكذا نفهم من معاني الحق هنا في هذا الموضع؛ لأنه ورد في سياق قصة الرجل الذي أبى أن يؤمن بالله عز وجل، وأنكر البعث والنشور، واغتر بماله وجنته، واعتز بما له من نسب وجاه.

وتبدأ قصته من قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ... ﴾ إلى هذه الآية التي ورد فيها اسم الحق مصحوباً بأوصاف تُرَجِّي العباد في عظيم فضله وواسع رحمته.

(٤) ويقول جل في علاه: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [٢].

---

(١) الكهف: ٤٤.	(٢) طه: ١١٤.

والحق في هذه الآية معناه: الذي أحقَّ الحقَّ وأبطل الباطل بما أنزله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام؛ بدليل قوله سبحانه في الآية التي قبلها: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾. وبدليل ختامها.

(٥) ويقول عز من قائل: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١].

والحق في هذه الآية: هو الخالق البارئ المصور، القادر المقتدر، الذي يُحْيِي ويميت، والذي يهدي إلى الحق من شاء من عباده.

يدل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي: لنبين لكم أن الكون كله يدل على أنني الحق الذي ينبغي أن يُعبد وأن يُطاع.

والآية التي بعدها أيضاً تدل على ذلك، وهي قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾.

(٦) ويقول جل شأنه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [٢].

والحق في هذه الآية: هو الذي ينصر أهل الحق بالحق، ويرفع من شأنهم في الأولين والآخرين؛ بدليل قوله تعالى في الآية السابقة عليها: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

(٧) ومثلها ما جاء في سورة لقمان آية: ٣٠.

(٨) ويقول الله عز وجل: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [٣].

---

(١) الحج: ٦. (٢) الحج: ٦٢. (٣) المؤمنون: ١١٦.

والحق في هذه الآية: المنزه عن كل ما لا يليق بذاته، المُتَّصِف بالكمال المطلق، الذي يُسبح بحمده كل شيء، ويدين لعظمته جميع الخلائق.

(٩) ويقول عز شأنه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (١).

والحق في هذه الآية: هو الذي يجازي من أساء وظلم واعتدى على المحصنات المؤمنات الغافلات ورماهن بالإفك، كما يدل على ذلك سوابق الآيات ولواحقها.

(١٠) ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ ﴾ (٢).

أي: فذلكم الله ربكم، الذي هو الأحق بالعبادة والتقديس والتوحيد الخالص، وما وراء ذلك ضلال في ضلال.

هذه هي المعاني التي أمكننا استخلاصها من هذه الآيات، وهي في مجموعها تشمل كل ما تضمنته الأسماء الحسنى؛ فالله عز وجل هو الحق المطلق في كل وصف وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد كان النبي ﷺ ــ كما يروي البخاري في صحيحه ــ إذا تهجد من الليل يدعو فيقول: "اللهم، لك الحمد أنت رب السماوات والأرض وما فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك حق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم، لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت".

---

(١) النور: ٢٥.

(٢) يونس: ٣٢.

وبعد: فيا إله العالمين، أنت الحق وكل شيء سواك باطل، وقولك الحق والمتمسك به واصل، وقد تجليت بالحق في الأكوان، فعرفك به أهل الإيمان، وفروا من الباطل وهو كالسراب، ولم يركنوا إلى معدوم تكوّن من التراب.

اللهم، أشرق على قلوبنا بنور الحق، حتى نشهد الحق بالحق، ولا نغتر بمظاهر الخلق، واجعل ذواتنا هائمة في الحق، وألسنتنا ذاكرة للحق، وجوارحنا عاملة للحق، إنك على كل شيء قدير.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الوكيل "جل جلاله"

المؤمن الحق هو من يتفهم جيداً معنى هذا الاسم المقدس، ويحفر له في قلبه مكاناً لا يفارقه أبداً؛ لأن فيه سكينته وراحته وهدايته؛ فهو الاسم الذي يلقي ظلاله على العقل فيمنحه رشده ويوقفه عند حده، ويمنعه من التمادي في التفكير الجارف في يومه وفي غده، ويحول بينه وبين عواصف الهم والغم والحَزَن، ويُنَحِّي عنه أشباح الهواجس النفسية، والوساوس الشيطانية، ويجعله قادراً على تَلَمُّس المخارج من المضائق المحرجة، ويتخذ سبيله نحو مأمن يلجأ إليه ويستريح فيه من عناء الفكر المتواصل في أمور دَبَّرَها له خالقه ومولاه قبل أن يخلق السماوات والأرض.

إن إحساس المؤمن بأن الله عز وجل قد تكفل بتدبير أمره ــ يجعله قادراً على التَّكَيُّفِ مع الظروف التي يعيش فيها من غير جزع أو هلع، ويدفعه إلى مواجهة الحياة بخيرها وشرها بعزم صادق لا يعرف اليأس، وهمَّة عالية لا يعتريها خَلَلٌ أو مَلَلٌ؛ فالله هو الوكيل الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه يَرْجِعِ الأمر كله، يدبر شئون خلقه بحكمته، ويصرِّف أمور عباده بمشيئته، ليس لأحد معه إرادة ولا خيرة.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

فإذا عَلِمَ العبد أنه لا خِيَرَة له في الأمر ولا إرادة له مع الله عز وجل، وأنه سبحانه هو العليم بما يصلح شئون خلقه، المحمود في فعاله، الحكم العدل بين عباده ــ لا يسعه إلا التسليم والرضا بقضائه وقدره. والتسليم والرضا بالقضاء والقدر من أركان الإسلام.

---

(١) القصص: ٦٨ــ ٧٠.

قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه" (١).

ومثل هذا الشعور يريح من عناء كثير، ويزيح هموماً ثقيلة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "من سعادة ابن آدم: رضاه بما قضى الله له، ومن شقاوة ابن آدم: تركه استخارة الله ، ومن شقاوة ابن آدم: سخطه بما قضى الله له" (٢).

والرضا بالقضاء والقدر هو التوكل في أعلى درجاته وأرقى معانيه.

وقد عرفه العلماء بتعريف يكشف عن حقيقته فقالوا: هو الاعتماد على الله والثقة بفضله مع مباشرة الأسباب واتخاذ ما يلزم اتخاذه من الوسائل في درء المفاسد وجلب المنافع.

فالأخذ بالأسباب لا يتنافى مع الإيمان بالقدر؛ بل هو من صميمه؛ لأن لله في خلقه سنناً ينبغي أن تراعى وتُتَّبع، وإلا تعطلت الشريعة الغراء تعطيلاً تاماً، وسُدَّت أمام تطبيقها الأبواب.

إننا يجب أن نعرف أننا مأمورون بتحصيل الأسباب ولسنا مكلفين بتحصيل المطالب، وأن لنا إرادة حرة لا تخرج عن نطاق القدر، لابد أن نسخرها بقدر طاقتنا فيما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وفق علمنا القاصر ونظرنا المحدود، بحيث لو أخطأنا لا نلوم القدر ولكن نلوم أنفسنا؛ فإن الاعتذار بالقدر عند وقوع الخطأ جهل بالعقيدة والشريعة، وسنن الله الكونية.

من دَبَّرَ العَيْشَ بالآرَاءِ دَامَ لـه صفواً وجاءَ إليه الخَطْبُ مُعتـذرا
يَهُونُ بالرأي ما يَجْرِي القضاءُ به ومن أخطأ الرأي لا يَسْتَذْنِبُ القَدَرَا

روى أحمد في مسنده، والنسائي في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه حينما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال النبي صلوات الله وسلامه عليه: "رُدُّوا الرجل عليَّ"

فردوه، فقال له النبي: "ما قلت؟"

---

(١) رواه الترمذي. (٢) رواه الترمذي.

قال الرجل: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس ــ العقل ــ فإذا غَلَبَكَ أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل". أي: إن العقل يستطيع بإرادة الله تعالى أن يفكر ويدبر ويتخذ القرار الحاسم فيما ينبغي فعله وما ينبغي تحاشيه، فإذا جاء تدبيره على غير ما كان يتوقع، وجب عليه أن يستسلم للقدر، ويعلم أن الخير فيما اختاره الله له لا فيما اختاره لنفسه؛ فهو الوكيل على عباده، يختار لهم الخير حيث كان، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

وعلى المسلم إذا عجز عن اختيار ما ينفعه في دينه ودنياه أن يستخير الله عز وجل بالاستخارة الواردة في صحيح البخاري؛ فإنها من خير الوسائل التي تحدد للعبد مساره على هدى من ربه ونور.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن.

يقول: "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم، إني استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم، إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ أو قال: عاجل أمري وآجله ــ فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ أو قال: عاجل أمري وآجله ــ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به. قال: ويسمي حاجته". أي: ويذكر حاجته عند قوله: "... اللهم، إن كنت تعلم أن هذا الأمر... "فيقول مثلاً: إن كنت تعلم أن سفري، أو زواجي من فلانة خير لي في ديني ومعاشي... إلى آخره.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يأخذون بالأسباب في كل شيء، ولا يعتذرون

بالقدر إذا قصَّروا في حق الله أو أساءوا إلى أنفسهم أو إلى غيرهم، وجهادهم في سبيل الله يشهد لهم؛ فقد كانوا يعدون للعدو ما استطاعوا إعداده من قوة مادية ومعنوية، ويضرعون في الوقت نفسه إلى الله عز وجل أن ينصرهم نصراً عزيزاً؛ لعلمهم أن النصر من عند الله وحده، وأن القوة التي يعدونها للقتال إن هي إلا وسيلة من وسائله وسبب من أسبابه.

وهم لحسن توكلهم على الله لا يخشون أحداً من الناس، ولا يخافون في الله لومة لائم.

تذكر كتب السيرة أن المسلمين لما أصابهم ما أصابهم في غزوة أحد حاول المشركون أن يلقوا الرعب في قلوبهم، فسخروا بعض المروجين للشائعات أن يقولوا لهم: إن أهل مكة قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة ليقاتلوكم مرة أخرى، فيوقعوا بكم هزيمة منكرة، فما زادهم هذا القول إلا إيماناً بالله وثقة بنصره، وقالوا كلمة ما قالها عبد إلا كفاه الله شر ما يخشاه، وحقق له من الخير ما يرجوه.

اقرأ في ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

"حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم عليه السلام فنجا من النار، كما جاء في صحيح البخاري، وقد أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام عندما يضيق صدره من إعراض المشركين عن دعوته إلى الدين الذي ارتضاه لعباده وفطرهم عليه.

---

(١) آل عمران: ١٧٢ــ ١٧٤.

فقال جل شأنه: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

وأثلج صدره بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وقد وعد الله من يتقيه ويتوكل عليه بما يريح قلبه ويشرح صدره فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٣).

ولا يتقي الله حق تقواه، ولا يتوكل عليه حق توكله ـ إلا من اكتمل إيمانه وصدق يقينه؛ فالتقوى والتوكل ثمرتان من أعظم ثمرات الإيمان، بل هما برهانان من براهين صحته وسلامته من الشبهات.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤).

وبعد: فإن هذا الاسم المقدس الذي طوفنا حوله في هذا المقال ـ يحفز المؤمن الصادق في إيمانه إلى التوكل عليه، ويحذره من التواكل؛ لما فيه من تعطيل الأسباب التي أمره الله باتخاذها في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام.

فالمتوكل هو الذي يستجمع قواه في طلب الخير والبعد عن الشر، مستعيناً بخالقه ومولاه، غير معتمد على الأسباب؛ لأنها قد تتخلف لأمر يعلمه الله.

والمتواكل: إنسان كسول خمول، يدعي التوكل وليس فيه منه ذرة.

إنه أحمق لا يعلم ولا يريد أن يعلم شيئاً من سنن الله في خلقه، ولا ينظر

---

(١) التوبة: ١٢٩.

(٢) الأنفال: ٦٤.

(٣) الطلاق: ٢ـ ٣.

(٤) الأنفال: ٢ـ ٤.

بعين الاعتبار إلى ما حوله من الكائنات الحية التي تسعى جادة في طلب رزقها فتحصله بسعيها هنا وهناك بحسب ما قدَّر الله لها.

يقول رسول الله ﷺ: "لو تَوَكَّلُونَ [1] على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً".

أي: تخرج مبكرة لطلب رزقها وهي جائعة، ثم تروح إلى أعشاشها وهي مَلأى البطون ومعها رزق أفراخها.

فهي إذن تغدو وتروح، وتجِدُّ وتجتهد، وتتعرض في طريقها إلى المخاطر في سبيل تحصيل أرزاقها. فهل يكون عاقلاً من يترك الأسباب ويطلب من الله أن يرزقه، أو يدفع عنه ضُرَّه؟!

نسأل الله تبارك وتعالى أن يُبَصِّرَنَا بأمور ديننا، وأن يقينا شر أنفسنا، وأن يتغمدنا بواسع رحمته ويكلأنا برعايته؛ إنه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) حذفت إحدى التاءين من "تتوكلون" تخفيفاً جرياً على عادة العرب.

القوي المتين

إذا ذكر المؤمن القوي ربه عز وجل بهذين الاسمين المقدسين، شعر بضآلة الكون كله وتصاغره أمام قوة القادر وشدته وقهره وجبروته، وأحس من أعماق قلبه أنه لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، ولا إرادة له مع إرادته، ولا تدبير له مع تدبيره.

ثم لا يلبث مع تكرار الذكر والفكر في ملك الله وملكوته حتى ينتابه شعور أخر يملك عليه كيانه كله، وهو الشعور بأنه قوي بالله الذي أمده بقوة الإيمان، عزيز بالله الذي أمده بسلامة اليقين وحسن التوكل عليه، ثابت على الحق بالحق الذي هداه إليه، وعصمه به عن جلي الشرك وخفيّه، ووساوس الشيطان وهواجسه، فلا يتحرك حركة إلا في طاعته، ولا يجد في قلبه ركناً لغيره.

وقد سمى الله نفسه القوي ليُعَلِّم عباده ممن يستمدون قوتهم المادية والمعنوية، وممن يبتغون منه العزة.

وسمى نفسه المتين ليعتصم العباد به، ويثبتون على دينهم، وينصرون الحق بالحق، ويدحرون الباطل بشدة وصلابة.

فالاسم الأول: يوحي بالغلبة والمنعة والسلطان التام ونفاذ الأمر في جميع المخلوقات بلا رد ولا معارضة ولا تعقيب، فهو القوي الذي له القدرة البالغة على التدبير والتقدير، والتغيير والتبديل والتحويل، والإيجاد والإعدام، والإشقاء والإسعاد.

والاسم الثاني: يوحي بالصرامة في الحكم، والشدة في العقاب لمن طغى وتكبر، والشدة في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وما إلى ذلك من معاني التنزيه والتقديس.

وهذان الاسمان يؤكد كل منهما الآخر إلا أن الثاني يشعر مع الأول بأنه جل شأنه ثابت دائم سرمدي، واجب الوجود لذاته، يؤثر ولا يتأثر، يغير ولا يتغير؛ لهذا ينبغي أن يذكرا معاً عند الشرح والتحليل. ولا يعني ذلك أنهما

مترادفان، بل هما متفقان في بعض المعاني، مفترقان في بعضهما الآخر على النحو الذي أشرت إليه.

فالقوة: هي الشدة في كل شيء، والمتانة: هي ــ أيضاً ــ الشدة في كل شيء مع الثبات والدوام والترفع عن الضعف والتحول والزوال.

ونستطيع أن نستلهم رشدنا في معنى هذين الاسمين المقدسين من الآيات التي وردت في القرآن الكريم، فهو الكتاب المبين الذي يجلي لنا ما غمض عنا فهمه بأسلوب لا يدع ريبة لمرتاب.

ولنقرأ أولاً قول الله تبارك وتعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (١).

فالخالق من شأنه أن يكون قوياً قادراً، لا يعجزه شيء في ملكه وملكوته، وما دام كذلك وجب على الخلق أن يعبدوه، ويدينوا له بالخضوع والطاعة والذل والانكسار.

وكونه جل شأنه مستغنياً بذاته عن سائر مخلوقاته، يشعر العباد بوجوب إظهار الافتقار إليه.

وكونه عز شأنه يطعِم ولا يطعَم: يدل على المتانة، وهي القوة والثبات والرفعة والتنزه عن المشابهة والمماثلة، كما أشرنا؛ فالذي يطعم لا يثبت حياً من غير طعام، ولهذا لا يوصف بالمتانة إلا مجازاً.

وقد سمى الله نفسه الصمد، وهو الذي لا جوف له، وهو الذي تصمد إليه الخلائق بالضراعة والخضوع والطاعة، وهو غني عنهم لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ يشعر بأن العبد مهما أُوتي من قوة لا يستطيع أن يحصل على شيء مما يحتاج إليه إلا بقوة الله وقدرته.

---

(١) الآيات: ٥٦ــ ٥٨.

وقوله: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ يشعرنا أن القوة منه وإليه، وأن مصير الخلق بين يديه.

وقد ورد اسم القوي في القرآن مقروناً بالعزيز في عدة مواضع، للدلالة على أن قوته عز وجل هي الغالبة القاهرة المنيعة، التي لا يعتريها وهَن، ولا يلحقها فتور.

يقول الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (١).

القوي في لطفه ومعافاته، العزيز الذي يعز أوليائه ويذل أعدائه.

يقول الله عز وجل: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

أي: قوي على عباده بكثرة نعمه عليهم، عزيز باستغنائه عنهم، فما عرفوه حق معرفته، وما شكروه حق شكره، وما عبدوه حق عبادته، فهم غير قادرين على ذلك؛ لعجزهم عن ملاحقة مننه وأفضاله.

ويقول عز من قائل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٣).

أي: قوي على نصرة جنده الذين ينصرون دينه، ويجاهدون في سبيله أهل الشرك والباطل، عزيز غالب على أمره، قاهر بجبروته من كفر وفجر وطغى وتكبر.

ويقول عز جاهه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤).

أي: قوي بعلمه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، عزيز يعز من شاء، ويذل من شاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

---

(١) الشورى: ١٩.
(٢) الحج : ٧٤ .
(٣) الحج: ٤٠.
(٤) الحديد : ٢٥ .

ويقول سبحانه: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [١].

أي: قوي في نفاذ إرادته، وتحقيق مشيئته في خلقه، يقهر من يستحق القهر من عباده، عزيز يعز جنده ويهزم الأحزاب وحده، وهو يجير ولا يجار عليه.

وعلى العبد أن ينظر في مظاهر قوة الله عز وجل في هذا الكون بتدبير وتبصر؛ تقوية لإيمانه، وتصديقاً ليقينه بأن الله هو القوي الخالق لجميع القوى والقُدر، الثابت في وجوده أزلاً وأبداً، مستغنياً في هذا النظر بما جاء في كتاب الله عز وجل؛ فإن فيه تبياناً لكل شيء، وتفصيلاً لما في هذا الكون من عظات وعبر، فهو الكون المسطور المُنْبِئ عن الكون المستور. فمن نظر أبصر، ومن أبصر عرف.

وإذا عرف العبد ربه شهد له بالوحدانية في كل صفات الكمال والتنزيه، واستعان بقوته في تأدية وظيفته التي خلقه من أجلها، وألقى بنفسه في أحضان قضائه وقدره، ورضي كل الرضا بحكمه فيه، وتحنف له، وانقطع لعبادته مخلصاً له الدين.

وكل عبد على قدر طاقته في المعرفة، وبقدر معرفته تكون درجته في القرب من خالقه ومولاه.

وإذا أراد العبد أن يكون له حظ وافر من قوة العزيز القادر، فليعتصم به في أمره كله.

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٢] وليتمسك بكتابه نصاً وروحاً، ويعمل بما جاء فيه بقدر طاقته البشرية، ويتبع في ذلك سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فإن في السنة مزيد بيان لما جاء في القرآن، وعندئذ يكون قوياً بقوة الله، وعزيزاً بعزة الله، ومنصوراً بإذن الله.

---

(١) المجادلة : ٢١ .

(٢) آل عمران : ١٠١ .

وقد علمنا القرآن كلمة نقولها إذا حَزَبَنَا أمر من الأمور ذات الخطر، أو اعترانا خطب جلل، أو أردنا أن يعصمنا الله من الزلل ويحمي أموالنا من الضياع والفساد ــ أن نقول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

نقولها بقلوبنا قبل أن نقولها بألسنتنا، فاللسان ترجمان القلب، وليس القلب ترجمان اللسان.

وقد وردت هذه الكلمة الجامعة لأصول العقيدة والشريعة معاً على لسان الرجل المؤمن الذي وعظ أخاه الكافر، وذكره بالله ودعاه إلى الإيمان به، وحذره من الاغترار بماله ونسبه وكثرة أعوانه، فقال في سورة الكهف: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ ﴾ (١).

وعلمنا رسول الله ﷺ كلمة نتقي بها البأس حيث كان، ونستلهم بها الرشد حيثما كنا، ونستمد بها العون في كل ما يعنّ لنا، وقال هي كنز من كنوز الجنة "لا حول ولا قوة إلا بالله"

إنها كلمة لها سر عجيب في كشف الكرب، ودفع الضُر، وتقوية العزم على فعل ما فيه فلاح العبد وصلاح أمره في الدنيا والآخرة.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

---

(١) الآية : ٣٩ .

الولي "جل جلاله"

ذكر الله بأسمائه الحسنى نعمة متنوعة، يتقلب فيها الذاكرون بين ثمارها وآثارها.

وكل اسم له في القلوب حلاوة وطلاوة وتأثير خاص، يشفي مرضاً من أمراضها، ويُلقي فيها حجة تزيد في إيمانها، فتهتدي بكل اسم إلى سبيل من السبل الموصلة إليه جل شأنه، فيترقى الذاكر منهم في سُلَّمِ الكمال البشري إلى غاية محمودة في الأولين والآخرين.

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

ومجاهدة النفس لا تتأتى للمجاهد إلا مع الذكر بالقلب واللسان؛ فبه يرحم الله عبده من نفسه الأمارة بالسوء، ويُلقي في قلبه السكينة التي تعينه على كبح جماحها وتزكيتها مما لحق بها من الآفات التي تحجب عنها نور الإيمان.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٢).

ويقول جل شأنه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٣).

وقد ذكرت لكل اسم من أسمائه الحسنى بعض ما فتح الله به عَلَيَّ من الأسرار والآثار بقدر طاقتي البشرية ونظري المحدود.

ووقفت مَلِيًّا أمام الولي، فلما أوغلت النظر في معانيه أحسست ببرده المنعش في كِيَانِي كله، وقلت في نفسي: لماذا يحمل العباد جبالاً من الهم والغم والحزن، والله قد تولى أمرهم كله من أوله إلى آخره، فأحصى لهم أرزاقهم

---

(١) العنكبوت: ٦٩.   (٢) الأحزاب: ٤١ــ ٤٣.   (٣) الرعد: ٢٨.

وتكفل بتوصيلها إليهم، دون أن ينال منها أحدٌ سواهم كائناً من كان وبالغاً ما بلغ!! ، فلو ركب أحدهم الريح فاراً من رزقه، لركب الرزق البرق حتى يدركه؛ لأن في الرزق حياته وقوامه، والله أراده أن يحيا آمناً في بيته معافاً في بدنه في ظل رحمته.

وقلت في نفسي أيضاً: لماذا يغضب العبد عندما لا يستجيب له ربه في بعض مطالبه، وهو أرحم به من نفسه على نفسه. ولو كان فيما طلب خير له لاستجاب له فيه، وهو العليم بما ينفعه وبما يضره!!

وأخذت أسأل نفسي عن السر في تعاسة الإنسان في هذه الحياة، فوجدت أن السبب فيها هو إعراضه عن ذكر ربه وعدم استيعابه لمعاني أسمائه الحسنى وأوصافه العلى.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [2].

واعلم ــ أيها الأخ المسلم ــ أن الولاية نوعان: عامة، وخاصة.

فهو يتولى عباده ولاية عامة بعنايته ورعايته ورحمته، ويتولى المؤمنين ولاية خاصة ذات تأثير خاص بَيَّنَهُ الله عز وجل في مواضع عدة من كتابه العزيز.

فقال جل شـــأنه: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُــوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[3].

أي: هو يتولاهم بعنايته الخاصة، ويرحمهم برحمته الواسعة، ويخرجهم بإذنه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4].

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

(٤) آل عمران: ٦٨.

فهو يتولاهم بتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتأليف قلوبهم، ونصرتهم على عَدُوِّهم وتوفيقهم إلى ما يحبه ويرضاه.

وقد زعم اليهود أنهم أَوْلَى الناس بإبراهيم عليه السلام، ولو كانوا أولى الناس به لاتبعوه، كما اتبعه محمد ﷺ والمؤمنون معه.

وقد ورد في توكيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (١).

أي واكتفوا بولاية الله لكم ونصرته إياكم في كثير من مواطن القتال والجدال، وتوكلوا عليه حق التوكل، وأخلصوا له في القول والعمل كما أمركم.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢).

وولاية الله في هذه الآية معناها: محبته للمؤمنين المخلصين، بدليل الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وولاية الرسول ﷺ في الآية معناها: شدة حرصه على إيمانهم ورحمته بهم وعطفه عليهم، يفسره قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(٣).

وولاية المؤمنين بعضهم لبعض تتمثل في حب بعضهم بعضاً وتعاونهم على البر والتقوى، ووقوفهم صفاً واحداً في نصرة دين الله عز وجل.

---

(١) النساء: ٤٤ـــ ٤٥. (٢) المائدة: ٥٥ـــ ٥٦. (٣) الآية: ١٢٨.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: من يتخذه وليًّا يلجأ إليه ويستنصر به ويتخذ الرسول هادياً ومرشداً، فإنه يكون حقّاً من حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون أبداً.

وقد أمرنا الله بالاعتصام به وطلب النصرة منه في آيات كثيرة. منها قوله جل وعلا: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١).

والاعتصام بالله: هو الاتجاه إليه بقلوب واعية مفعمة بالإيمان، والاستنصار به على العدو الظاهر والعدو الخفيّ، واستلهام الرشد منه من خلال التدبر في كتابه العزيز، والنظر الدقيق في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام والسعي في مرضاته؛ طلباً للنجاة من عذابه، وطمعاً في ثوابه، فهو جل شأنه نعم المولى لمن أطاعه ووالاه، ونعم النصير لمن اهتدى بهديه واستنصر به على نفسه وهواه وشيطانه ودنياه.

أما من كفر به وأعرض عن ذكره واتخذ الشيطان وليًّا من دونه، فإن الويل كل الويل له من المنتقم الجبار.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢).

والطاغوت: هم شياطين الإنس والجن؛ فهو اسم جنس يتناول بعمومه كل من طغى وتكبر، فيكون بعضهم أولياء بعض في الباطل، حتى يندحروا جميعاً في نار جهنم وبئس المصير.

يقول الله عز وجل مواسياً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣).

ويقول جل شأنه منذراً ومحذراً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا

---

(١) الحج: ٧٨. (٢) البقرة: ٢٥٧. (٣) الجاثية: ١٨ــ ١٩.

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ (١).

وبعد: فإن هذا الاسم المقدس يوحي بجلاله وجماله إلى المؤمنين بأن يكثروا من ذكر الله به؛ طلباً لما هم في حاجة إليه؛ لإصلاح معاشهم ومعادهم، كما علّمهم ربهم في قوله جل وعلا: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

وما علمنا ربنا هذا الدعاء إلا ليستجيب لنا إذا ما دعوناه به بضراعة وخشوع وتذلل وانكسار.

ويوحي هذا الاسم المقدس للمؤمنين أيضاً بأن يتماثلوا للشفاء من داء اليأس والجزع، والهمِ والغمِ والحَزَنِ؛ فإن الولي من شأنه أن يكون رحيماً بعباده، لا يفعل بهم إلا ما يصلح من شأنهم ويقوِّم معوجهم، ويردهم إلى رشدهم كلما هوت بهم أهوائهم إلى مواطن الشر والهلكة.

وقد أمرنا جل شأنه بالتسليم التام لكل ما جرى به قضاؤه وقدره، فقال جل في علاه: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

نعم. هو مولانا ونحن عبيده، نواصينا بيده، ماض فينا حكمه، عدل فينا قضاؤه، عليه توكلنا وإليه أنبنا، وله العتبى منا حتى يرضى، وله الحمد في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، نستغفره ونتوب إليه، ونسأله من فضله العفو والعافية وحسن الختام.

---

(١) المائدة: ٥١ـــ ٥٣.   (٢) البقرة: ٢٨٦.   (٣) التوبة: ٥١.

الحميد "جل جلاله"

من ذكر الله عز وجل بهذا الاسم المقدس شعر من أعماق نفسه بعجزه عن شكره على وافر نعمه التي لا تحصى، وهذا الشعور بالعجز هو عين الشكر في الحقيقة؛ لأنه اعتراف جازم بكمال الله في ذاته وصفاته وأفعاله. لا يقدره الخلق جميعاً حق قدره ولو اجتمعوا على قلب واحد يجأرون إليه بالحمد والثناء ليل نهار، فسبحان من لا يحمد ذاتَهُ حق الحمد إلا ذاتُهُ.

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١).

فالحميد: هو الذي يستحق الحمد أزلاً وأبداً، ويستوجب الثناء الحسن الجميل من جميع المكلفين، مع استغنائه عنهم وعن عبادتهم وحمدهم له وثنائهم عليه.

وقد علمنا جل شأنه كيف نحمده فأنزل فاتحة الكتاب؛ ليكون حمدنا له صادراً منه وعائداً إليه.

وهي سورة تعليمية خبرية في ألفاظها، طلبية في معانيها بُنِيَتْ على تقدير "قل".

أي قولوا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾. إلى آخر السورة.

فإن قلت ــ أيها الأخ القارئ ــ: لماذا لم يقل: "احمدوني" بصيغة الأمر بدلاً من الصيغة الخبرية؟

قلت: لأن في التعبير بالصيغة الخبرية إشارة إلى استغنائه عن حمد عباده بحمده لنفسه، فكأنه قال: الحمد ثابت لله مستَحَقٌّ له سواء حمدتموه أم لم تحمدوه.

وحمدنا لله لا يتمثل في هذه الكلمة وحدها، ولكنه يقوم على كل ما تضمنته سورة الفاتحة من المعاني والمقاصد.

---

(١) الحج: ٧٤.

ومنبع الحمد ومصبه في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فهي المبدأ والمنتهى للفرار منه إليه، وهي الشكر في أسمى صوره وأرقى معانيه.

إن إفراد الله بالعبادة هو ترجمة عملية للشكر، والاستعانة به تعبير صادق عن عظيم الثقة بفضله وحسن التوكل عليه.

وقد كتب الإمام الهروي كتاباً صغيراً في الحجم غزيراً في العلم، سماه: "منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين" ضَمَّنَهُ كثيراً من التوجيهات التي ينبغي على العباد أن يأخذوها مأخذ الجد في سلوك طريقهم إلى الله عز وجل، بدءاً بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وانتهاء بقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾.

وقد شرحه ابن القيم في كتاب سماه: "مدارج السالكين" في ثلاثة مجلدات.

وقد جمع الله لذاته جميع المحامد في مواضع أخرى من كتابه، إذا ضَمَمْنَا بعضها إلى بعض اقشعرت جلودنا من خشيته، وخشعت جوارحنا لعظمته، ولانت قلوبنا لذكره.

اقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١).

﴿ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى

---

(١) الإسراء: ١١٠ــ ١١١.

اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١).

هذا. والحميد صيغة مبالغة تأتي بمعنى المفعول تارة، وبمعنى الفاعل تارة أخرى.

ومثله الشكور يأتي تارة بمعنى: المشكور. وبمعنى: الشاكر. وكلا المعنيين مراد الله تبارك وتعالى.

وقد جاء هذا الاسم في القرآن الكريم مقترناً بغيره من الأسماء الحسنى الدالة على معناه الأول ومعناه الثاني.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢).

واقتران هذين الاسمين توكيد لمضمون الآية، وبيان مجمل لما وعد الله المنفقين من طيبات ما كسبوا، ووعيد لمن أنفق الخبيث منه؛ فهو الغني الذي لا تَنْفَضّ خزائنه فمتى شاء أعطى وأغنى. الحميد الذي يُعَبِّرُ المؤمنون بحمدهم له وشكرهم إياه على وافر نعمه وكريم عطاياه، وهو الذي يحمدهم على ما أنفقوه من أموالهم ابتغاء مرضاته.

وحمده لهم كناية عن مكافأتهم على ما قدموه لأنفسهم من خير.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٣).

واقتران الولي بالحميد: فيه دلالة على أن الله عز وجل مستحق للحمد من قِبَلِ عباده؛ لأنه يتولاهم برحمته، ويُغيثهم بغوثه إذا قنطوا ممن يتوقعون منه الغوث ــ في زعمهم ــ من معبوداتهم الباطلة.

---

(١) النمل: ٥٩ــ ٦٤.

(٢) الآية: ٢٦٧.

(٣) الآية: ٢٨.

وهو الذي يحمد عباده إذا شكروه على نعمة الغوث ونشر الخير في ربوع البلاد، فهو جل شأنه يبادل عباده حباً بحب وحمداً بحمد.

ومن ذلك قوله جل شأنه في سورة إبراهيم: ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(١).

أي العزيز الذي يُعزُّ بكتابه ونبيه من أراد العزة، فيحمدونه على هذه النعمة ويحمدهم على الطاعة والامتثال.

ويقول الله عز وجل في سورة هود: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (٢).

فقد تعجبت سارة من الإنجاب وهي عاقر عجوز، وبعلها شيخ كبير، فتعجب الملائكة من تعجبها وَرَوَّحُوا عنها بهذا القول، وذكروها بهذين الاسمين العظيمين، فهو الحميد الذي يحمده عباده على تحقيق المعجزات وإجابة الدعوات وإسداء الهبات لمن شاء من عباده، دون أن تعوقها الأسباب، وهو الذي يحمدهم إن حمدوه حمداً أعظم من حمدهم إياه. "ولذكر الله أكبر".

وهو المجيد الذي تناهت عظمته وعظم شأنه، وعز من انتسب إليه وتعلق قلبه به.

وقال عز من قائل في سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٣).

﴿ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ ﴾ أي: تنزيل ممن أحكم كل شيء وقضى بحكمته في كل شيء.

﴿ حَمِيدٍ ﴾ يحمده من عرف عظمة القرآن، وتدبر معانيه وفقه مقاصده ومراميه.

---

(١) الآية: ١.

(٢) الآية: ٧٣.

(٣) الآية: ٤١ـــ ٤٢.

وهو حميد يحمد عباده إن اتبعوا أحسن ما أُنزل إليهم من ربهم وقاموا بواجب الشكر له على قدر طاقتهم.

وقد ورد هذا الاسم المقدس مفرداً في القرآن مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى من سورة الحج: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

ولعل هذا الاسم قد جاء وحده هنا إيناساً للمؤمنين وتعبيراً عما يكونون فيه من نعيم مقيم يخلو تماماً من النَّصَبِ واللغوب، والخوف والجزع، والهم والحزن، ولا يكون فيه إلا مبادلة قرب بقرب، وحب بحب، وحمد بحمد.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (٣).

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤).

وبعد: فإن المؤمن إذا أيقن أن ربه عظيم المن وافر النعم واسع الفضل والكرم ـــ رأى أن كل ما يأتيه من لدنه جميل، وأن ما يصيبه من ضر، فهو تزكية وتطهير، فلا يسعه إلا أن يشكره في جميع الأحوال على كل حال.

فما من محنة إلا وفي باطنها منحة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

وإذا قوي إيمان العبد واكتملت شعبه لم ير فيما ينزله الله به محنة على الإطلاق؛ ثقة بأن الخير منه وإليه، وأن الشر ليس إليه، فاستوى في أفعاله

---

(١) الآية: ٢٤.

(٢) الزمر: ٧٤.

(٣) فاطر: ٣٤ـــ ٣٥.

(٤) يونس: ١٠.

الإعطاء والمنع، فإن منع عبده شيئاً في الدنيا ــ عوضه عنه في الجنة أضعافاً مضاعفة؛ فهو المعطي دائماً، فكيف لا يحمده من عرف ذلك وأيقن به؟!

فلك الحمد يا ربنا على ما أنعمت به وأوليت، ولك الثناء الحسن الجميل، فَجُدْ علينا بالعفو والعافية، واهدنا إلى سواء السبيل.

المحصي "جل جلاله"

خلق الله الخلق بقدرته وأحصاهم عداً بعلمه، وأعطى كل شيء خلقه بحكمته، وتولى أمر السموات والأرض ومن فيهن بكمال عنايته، وكتب كل ما كان وما يكون وما هو كائن في كتاب مبين، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في كونه الواسع الفسيح.

وقد سمى نفسه المحصي؛ ليعلم عباده أنه سبحانه لا يُضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وأنه جل في علاه يحصي إليهم ما عملوه من خير، ويحصي عليهم ما عملوه من شر، فيكون الجزاء عنده من جنس العمل.

وهذا الاسم المقدس لم يرد في القرآن صراحة، ولكن وردت مادته في آيات كثيرة.

ونحن نتعرف على معاني هذا الاسم العظيم من خلال هذه الآيات التي سنذكرها هنا، ثم نقوم بجمعها في نسق واحد.

يقول الله عز وجل: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (١).

والغيب: هو ما خفي واستتر عن الأنظار والعقول، فلا يظهره على أحد من خلقه، لكن يُظهر شيئاً منه لمن شاء من رسله، ويحيطهم بما يحفظ عليهم ما حصلوه من علم، فلا يَطَّلِعُ عليه أحد سواهم إلا ما شاء الله أن يبلغوه لأممهم.

وإنما يعطي رسله شيئاً من علم الغيب، ليتمكنوا بهذا العلم من تبليغ الرسالة بقوة وعزم ومدد من روح الله عز وجل. وقد أحاط الله بما لديهم علماً وأحصى كل شيء عدداً فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يشغله علم شيء عن علم شيء آخر.

---

(١) الجن: ٢٦ ــ ٢٨.

والإحاطة بالشيء: هي شمول علمه بحقيقته وصفاته وخصائصه ومميزاته وأسراره وآثاره.

وإحصاء الشيء: هو عَدّه وحصره في رقم معين، وقدر معلوم، مأخوذ من العد بالحصى، وهو الإحاطة بحساب الأشياء وما شأنه التعداد، فعطف الإحصاء على الإحاطة في الآية من باب عطف الخاص على العام.

وعلى هذا يكون معنى المحصي من أسماء الله الحسنى هو ــ كما قال أهل العلم ــ : العليم بدقائق الأمور وأسرار المقدور، هو بالظاهر بصير وبالباطن خبير.

ويقول جل شأنه: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ (١). أي: كل شيء ضبطناه ضبطاً مكتوباً في اللوح المحفوظ أو في أم الكتاب فلا يضيع منه مثقال ذرة.

ومثله في المعنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ (٢). أي: كل شيء فعله البشر مسجل في الكتب السماوية أو في الكتب التي تنشر لهم يوم القيامة، ومسطر في اللوح المحفوظ.

ومثله أيضاً في المعنى قول الله تبارك وتعالى حكاية عن حوار موسى ــ عليه السلام مع فرعون اللعين: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ (٣).

أي: فما حال أهل القرون السابقة، وماذا جرى عليهم من الحوادث، وماذا مر بهم من النعم والنقم؟

فأجابه موسى عليه السلام بأن علم ذلك كله عند ربه في كتاب محفوظ لا يغفل الرب عنه ولا ينسى شيئاً منه، فليس من شأنه الخطأ ولا النسيان؛ فقد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

ويقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ

---

(١) النبأ: ٢٩. (٢) القمر: ٥٢ــ ٥٣. (٣) طه: ٥١ــ ٥٢.

وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (١). أي: نحن نكتب لهم ما فعلوه من عمل يحسب لهم أو يحسب عليهم، ونكتب كذلك ما سنُّوه لغيرهم من سنة حسنة أو سيئة.

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ ﴾ أي: جمعناه مكتوباً في صحف أعمالهم التي تنشر لهم يوم القيامة. وسمي الكتاب إماماً؛ لأنه يُقدم أمامهم فيتناوله صاحبه بيمينه أو بشماله.

وقيل: الإمام المبين: هو علم الله.

ومثله في المعنى قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٢).

ومعنى أحصاها: ضبطها وأحاط بها، والمحصي هو الله جل شأنه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية.

ومثله في المعنى قوله جل وعلا: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٣).

والمحاسب: هو الذي يحصي لعباده ما قدموه من خير، ويحصي عليهم ما فعلوه من شر، ثم يحاسبهم حساباً يسيراً أو عسيراً، ثم يُثيبُ من يستحق الثواب ويعاقب من يستحق العقاب.

إن الله عز وجل يحصي على عبده عمله كله، فإذا جاء يوم القيامة أخرج له كتابه وأمره أن يقرأه بنفسه؛ ليكون حجة عليه، فلا يسعه إلا التسليم بما فيه، والرضوخ للحساب القائم على الإحصاء الدقيق لكل ما قدمت يداه.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ

---

(١) يس: ١٢.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١). أي: ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما نسوا تلك الجرائم؛ لاعتقادهم أن لا حساب هناك ولا جزاء.

ويقول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (٢). أي: جمعهم جمعاً، فالإحصاء معناه هنا: الجمع والإحاطة، فلا يفر أحد يومئذ من مصيره المنتظر.

﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلا لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾(٣).

و"الوزر": الملجأ، و "المستقر": المرجع والمصير.

ومن معاني الإحصاء في اللغة: الطاقة. تقول: هذا أمر لا أحصيه، أي: لا أطيقه ولا أقوى عليه.

ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ". أي: لن تستطيعوا فعل جميع ما كلفتموه، فعليكم بالاستقامة والجد في العمل الصالح بقدر استطاعتكم والله عز وجل يحصي إليكم أعمالكم.

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: "إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

ومن خلال تتبعنا لهذه الآيات نستطيع أن نستخلص المعنى الجامع لمعاني هذا الاسم المقدس فنقول:

المحصي: هو الذي يعلم حقائق الأمور وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعد على الإنسان أنفاسه وحركات حواسه وسائر جوارحه، ويجمع له ما قدمته يداه من خير وشر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

وإذا علم العبد معنى هذا الاسم، وجب عليه أن يراقب ربه عز وجل في جميع تصرفاته الظاهرة والخفية، ويحاسب نفسه حساباً عسيراً على كل صغيرة

---

(١) المجادلة: ٦. (٢) مريم: ٩٤ـــ ٩٥. (٣) القيامة: ١٠ـــ ١٢.

وكبيرة، ويتهمها دائماً بالتقصير في حق الله وإساءة الأدب معه أو مع من يحبه من عباده، ولا يرى لها من الأعمال الصالحة ما يقربها منه عز وجل؛ فإنها أمارة بالسوء لا تستجيب لصاحبها بهوادة ولين، بل تستعصي عليه دائماً كلما دعاها إلى فعل الخير أو نهاها عن فعل الشر، فهي حليفة الشيطان ضده، فلا ينبغي أن يستجيب لها في كل ما تطلبه؛ لأن ذلك يجعلها تقوى عليه فيعز عليه كبح جماحها بعد ذلك بسهولة.

وعلى العبد إذا فعل سيئة أن يتوب منها ويستغفر فور فعلها، ويفعل حسنة تمحوها؛ حتى يخرج من الدنيا وليس يحمل من السيئات شيئاً إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إن مراقبة النفس سبيل إلى النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة وطريق إلى الجنة.

والكيِّسُ من الناس من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله يوم القيامة.

وعلى العبد أن يشكر ربه عز وجل بقدر طاقته على وافر نعمه وجميل إحسانه، وليذكر دائماً قول الله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

---

(١) النحل: ١٨.

المبدئ المعيد

المبدئ المعيد اسمان متلازمان من أسماء الله الحسنى، ليس بينهما فاصل في المعنى، فالمبدئ هو المعيد، والمعيد هو المبدئ؛ فالقادر على البدء قادرٌ على الإعادة، فإذا ذكر المبدئ تبعه بالضرورة ذكر المعيد.

وقد وجدنا من أهل العلم من يقول: إنهما علم واحد يدل على معنى واحد مُركَّب من فعلين متعاقبين بحيث إذا وقع أحدهما تبعه الآخر، بمعنى: أن البدء والإعادة قرينان لهما صفة الدوام على الدوام.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ (١).

أي: إنه سبحانه يُبدئ الخلق ويعيده، فيحيي ويميت، ويميت ويحيي، وفي هذا دليل على القدرة الفعَّالة الدائمة، القائمة على تدبير هذا الوجود، وتبدّل صوره حالاً بعد حال، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٢).

فالوجود في حركة دائمة، وفي هدم وبناء مُستَمِرَّيْنِ، وأنه في أية لحظة على غير صورته في اللحظة السابقة أو اللاحقة.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾ (٣).

ومعنى الهلاك في الآية: التحول والتبدل، وتغاير الصور والأشكال، فهو بدء لإعادة، أو إعادة البدء في هذه الحركة الدائبة الدائرة.

فانظر ما وسعك النظر في هذا الكون المرئي، تجد أن ما فيه لا يثبت على حال، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل، والكواكب تسير في أفلاكها وتسبح في الفضاء في حركة دائبة ترتفع تارة وتنخفض أخرى، وتظهر تارة للأعين ثم تختفي ثم تظهر، وهكذا في نظام دقيق لا يعتريه خلل ولا تفاوت.

وإن فاتك التأمل في هذا الكون الواسع الفسيح، فانظر في نفسك؛ فإن فيك بَدْءٌ وإعادة بصورة متواصلة، ففيك خلايا تموت وخلايا تحيا، وأنسجة تبلى

---

(١) البروج: ١٢ــ ١٣. (٢) الرحمن: ٢٩. (٣) القصص: ٨٨.

وأنسجة تحل محلها، وفيك ما فيك مما أودعه الله فيك من أسرار أطلعك على بعضها وأخفي عنك أكثرها.

وقد جاء في القرآن الكريم من التوجيهات ما تهتدي بها إلى كيفية بدء خلقك وكيفية إعادتك بعد موتك، فحاول أن تتعرَّف على كيفية البدء والإعادة في نفسك أولاً؛ فإن مجال النظر فيها قريب، وَسَلْ نفسك من أين خلقتُ وكيف تطور خلقي من طين إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة حتى انتهيتُ إلى آخر أطوار الخلق والتكوين، وكيف خرجت إلى الوجود بشراً سوياً؟! إلى آخر ما يدعوك إليه التأمل والنظر، ثم تسأل نفسك عن مصيرك المنتظر بعد موتك المحقق؛ لتعلم أن القادر على البدء قادر على الإعادة من غير أدنى شك ولا التباس.

يقول الله عز وجل: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

ويقول جل شأنه في تسفيه عقول من كفر به وأنكر البعث واستبعد وقوعه: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴾ (١).

ويقول جل في علاه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

ففي هذه الآيات: مراجعة لهؤلاء المشركين وإنقاذ لهم من هذه الغفلة التي استولت عليهم حتى سلبتهم عقولهم، وأوصدت أمامهم طريق التدبر في آيات الله القرآنية والنظر في آياته الكونية.

وفي هذه الآيات أيضاً دعوة لهذا الإنسان أن ينظر في نفسه، وأن يَمُدَّ بصره إلى نقطة الابتداء في حياته، ثم يسير مع نقطة الابتداء حتى يصل إلى أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعيده بعد موته إلى يوم لا ريب فيه ﴿وَهُوَ

---

(١) مريم: ٦٦ ــ ٦٧.

(٢) يس: ٧٧ ــ ٧٩.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومَنْ كان هذا شأنه لا يعجزه شيء.

والإنسان مخلوق كرمه الله وفضَّلَهُ على كثير ممن خلق تفضيلاً، فإذا آمن به واتبع هداه، فقد احتفظ بهذا التكريم والتشريف. أما إذا خرج عن فطرته التي فطره الله عليها، وتخلى عن وظيفته التي خلقه الله من أجلها ــ فإنه حينئذ يكون أحط من الحيوان شأناً، لا يساوي عند الله جناح بعوضة.

وقد سمى الله نفسه بهذين الاسمين المقدسين ــ مع أن في أسمائه ما يقوم مقامهما كالمحيي والمميت ــ ليوجه أنظار عباده إلى كيفية البدء وعلى أي نحو كان ويكون، وكيفية الإعادة وعلى أي نحو تكون؛ ليصل عن طريق التأمل والنظر في هذا وذاك إلى الإيمان الكامل بالبعث والنشور، وما يتبعه من حساب وثواب وعقاب، وليرى بعيني بصره وبصيرته قدرة الله في الإبداع والتصريف والتغيير والتدبير، فيؤمن بأنه الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيء؛ لأن المُتَغَيِّر يدل على المُغَيِّر.

ومن جهة أخرى: يَتَعَرَّفُ الإنسان على الطبيعة التي يحيا فيها ويكتشف ما ينفعه منها فيأتيه، وما يضره فيتلاشاه ويحيد عنه. فمن عرف البدء أمكنه أن يمسك بالخيط الذي ينتهي به إلى ما يصبو إليه في سهولة ويسر.

ولذلك يحاول رجال العلم بكل ما أوتوا من علم وخبرة أن يكتشفوا ما في الإنسان – بوجه خاص – من جينات وراثية تحملها النطف إلى الأرحام، وكيف تتفاعل هذه الجينات فتأتلف أو تختلف، وتتلاقى أو تتباعد، وكيف تتكون الخلايا وكيف تنشط، وما الوظيفة التي تؤديها كل خلية، إلى آخر ما هنالك من تساؤلات لا تنتهي.

كل ذلك من أجل تحقيق آمال عريضة في خدمة البشرية، ومعرفة الأسرار الكونية المنطبعة في الإنسان بوجه خاص وسائر الكائنات الحية والجامدة بوجه عَام.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه. خطاب دليله هذا الكون، ومجاله السماء والأرض، على طريقة القرآن في اتخاذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب، تبحث فيها عن آيات الله، وترى دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده.

ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان، ولكنها تفقد جدتها في نفوس الناس بطول الألفة، ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الموحي، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها، ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر. ولا يتخذ طرائق الجدل الذهني البارد والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة، تلك التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه، فظلت غريبة عليه.

إن في القرآن غنى عن القيل والقال من أهل الجدل والخصام؛ فهو كتاب الهداية ومنهج الحياة، وهو الينبوع الصافي الذي ينهل منه من شاء لما شاء من غير تعسر ولا التواء.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢).

وإننا نشاهد كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده في كل لحظة، بل وبين كل طرفة عين وانتباهتها، إننا نراه في النبتة النامية، وفي البيضة والجنين، وفي كل ما لم

---

(١) العنكبوت: ١٩ - ٢٠ . (٢) الإسراء: ٩ـــ ١٠.

يكن ثم يكون مما لا تملك قدرة البشر متفرقين ومجتمعين أن يخلقوه أو يدَّعوا أنهم خالقوه!

وإن سر الحياة وحده لمعجز كان وما يزال كذلك، معجز في معرفة منشئه وكيف أتى، ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذي يبدئ الخلق في كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم، وهم يرون ولا يملكون الإنكار!

﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

والملكوت: هو الملك التام. والعرب إذا أرادوا المبالغة أضافوا إلى الكلمة حرفاً أو حرفين.

وقيل: الملك: ما لاح وظهر، والملكوت: ما خفي واستتر. وهذا وذاك قول حسن.

وبعد ، فهذا ما وسعني أن أكتبه حول هذين الاسمين المقدسين، وإن كان ولابد من كلمة أختم بها حديثي هذا، فإني أوصيكم ونفسي بالتفكير الدائم في خلق السماوات والأرض؛ فإن التفكير فيما خلق الله وبرأ عبادة من أعظم العبادات.

وقد قالوا: من نظر أبصر، ومن أبصر عرف، ومن عرف لزم، ومن لزم وصل.

اللهم يا مبدئ يا معيد ذكِّرنا ما نسينا، وعلمنا ما جهلنا، وتوفنا وأنت راض عنا، واجعل خير أعمالنا خواتيمها؛ إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يس: ٨١ـــ ٨٣.

المحيي المميت

الحياة والموت لهما في القرآن تحليل يختلف عن تحليل الفلاسفة الذين اختلفوا فيما بينهم على حقيقة كلٍ منهما اختلافاً كثيراً، لا مبرر له ولا طائل تحته، فلنضرب عنه صفحاً، ونأخذ في بيان ما جاء في القرآن الكريم من تحليل وتعليل لهاتين الظاهرتين فنقول:

يخبرنا الله تبارك وتعالى أن الموت مخلوق وأن الحياة مخلوقة أيضاً فيقول جل وعلا: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (١).

وهذا يدل على أن الموت ظاهرة تنشأ بعد عدم؛ كما يقتضيه لفظ الخلق، وهو الإيجاد والابتكار. والحياة ظاهرة تنشأ بعد موت بدليل تقديمه عليها في الآية.

فقد كان الله ولا شيء معه، فخلق الخلق من العدم، وكتب الموت على كل كائن حي، فظل في دائرة الموت حتى دبت فيه الحياة بقدرة الله عز وجل، فالموت كان أولاً، والحياة جاءت بعده، فكان تقديمه عليها في الآية مقصوداً لبيان هذا الترتيب.

يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

أي كنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم لا حراك بكم، فأحياكم في بطون أمهاتكم، ثم يميتكم بعد انتهاء آجالكم في الدنيا، ثم يحيكم ليوم لا ريب فيه، فإذا أحياكم لم تجدوا مرجعاً إلا إليه فلا يكون لكم مفر منه إلا إليه.

وهذا هو التفسير المناسب لعقول الناس على اختلاف درجاتهم في الثقافة والفهم، فإن جرثومة الحياة تسبح في الفضاء من مكان إلى مكان، حتى تحل

---

(١) الملك: ١ ــ ٢.

(٢) البقرة: ٢٨.

بأرض خصبة فتتعلق بنبتة من نبات الأرض، وتمر بمراحل زمانية ومكانية حتى تستقر في أصلاب الرجال، وتظل ما شاء الله حتى يخرجها الله من الأصلاب في مني يمنى، ويقرها في الأرحام كيف يشاء، وتظل في بؤرة الانتظار زمناً يسيراً، ثم تتحول إلى نواة حياة حقيقية لإنسان أو حيوان بعد عشرات وعشرات من الأطوار، وألوف وألوف من العمليات التكوينية والتصويرية والهندسية وغيرها من لمسات التعديل والتسوية.

ويؤكد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (١).

يريدون بالموتتين: الموتة الأولى التي سبقت حياتهم الدنيا، والموتة التي انتهت آجالهم فيها ونقلتهم إلى الحياة الأخروية.

ولا يشك عاقل أن وراء عملية الإحياء والإماتة عالم قادر مدبر حكيم لا يعجزه شيء، ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو الله الذي لا إله إلا هو.

والعقل وحده لا يستوعب هذه الحقيقة ولا يعيها جيداً إلا إذا كان مزوداً بالعلم، فالعلم يدعو للإيمان، ويقدم له الأدلة المقنعة بأسلوب دقيق لا يقبل الجدل.

ولهذا كان من الواجب على كل إنسان أن ينظر في هذه الآيات الكونية التي نصبها الله دليلاً على وحدانيته وقدرته؛ ليتعرف من خلالها على هذه الحقيقة التي يعرضها القرآن بأسلوبه السهل الممتنع.

وقد وجدنا كثيراً من علماء الطب والطبيعة والوراثة وغيرهم من المتخصصين في العلوم الكونية قد انتهى بهم البحث الدقيق إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله.

---

(١) غافر: ١٠ــ ١١.

وصدق الله حيث يقول: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

والحياة والموت في التعبير القرآني يقصد بهما الإيجاد والإعدام أحياناً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ (٢).

ويقصد بهما الجدب والخصب كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

فالأرض إذا لم تنبت قيل إنها أرض ميتة أو أرض موات، أي: لا حركة فيها، فإذا أنزل الله عليها الماء، تحركت وانتفخت لاستقباله وتهيأت للإنبات.

وأحياناً يقصد بالموت الجهل والكفر، وبالحياة العلم والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٤).

والقرائن هي التي توضح المراد من التعبير.

وفي القرآن وسائل توضيحية كثيرة تبرز المعاني المعقولة في صور مُحسة تدرك بالحواس ويصدقها الواقع المشاهد.

منها القصص والأمثال والتشبيهات والكنايات، وغير ذلك مما يعرفه علماء البيان.

فخذ مثلا في إبراز عظمة قدرة الله في الإحياء والإماتة قصةَ العزير، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، مر ببيت المقدس وهي خاوية على عروشها فهاله ما رأى، واستبعد في نفسه إحياءها بعد الدمار الشامل الذي لحق بها على يد بختنصر، استبعاد الخبير بشئون العمران، وهو يعلم أن الله على كل شيء

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) النحل: ٧٠.

(٣) فصلت: ٣٩.

(٤) الأنعام: ١٢٢.

قدير، فأماته الله مائة عام ثم أحياه، وأحيا حماره بين يديه وهو ينظر إليه، وحفظ له طعامه وشرابه من التغيير والتلف.

اقرأ بتدبر قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

وخذ مثلاً آخر من قصة إبراهيم عليه السلام فقد ملك عليه أمرُ الإحياء والإماتة شغاف قلبه، وأخذ منه العجبُ كل مأخذ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الظاهرة ولم يره الكيفية؛ إذ لا طاقة له على تصورها فضلاً عن تتبعها.

قال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

وقد ذكرتْ هذه القصة عقب قصة العزير؛ للدلالة على أن الله القادر على إحياء الموتى في الدنيا قادر على إحيائهم يوم القيامة.

وقضية الموت والبعث: هي القضية الأولى في باب الإيمان بعد التوحيد، وهي الثغرة التي تنفذ منها رميات الشيطان إلى قلوب المؤمنين.

وإبراهيم عليه السلام في وثاقة إيمانه وقوة يقينه لا عليه إذا هو وجد طريقاً إلى المزيد من العلم أن يسلكه حتى يرتوي منه، ويفوق الأنام فيه لو استطاع.

---

(١) البقرة: ٢٥٩.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

وإبراهيم عليه السلام لم يشك لحظة في قدرة الله على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يمتع قلبه بما يروق من آثار قدرته عز وجل وهذا معنى قولـــه: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾.

هذا، وقد سألني سائل عن الحكمة في إسناد أمر الموت لملك الموت وأعوانه في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١). وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٢).

فقلت له: إن ملك الموت قد أسند الله إليه قبض الأرواح فقط، وقبضها يسمى توفية، أي: إنهاء للأجل بعملية علمه الله إياها، أما الموت فهو عملية أخرى علمها عند ربي، فهي سر من أسراره. ولولا أن وكل الله ملك الموت بقبض الأرواح ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولله في خلقه شئون يبديها ولا يبتديها. والله عز وجل لم يقل: "يميتكم ملك الموت" ولم يقل: "أماتته رسلنا" ولكن قال: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ ، وقال: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ ، والتوفية غير الإماتة عند المحققين، كما أشرنا.

واعلم أن ملك الموت ليس واحداً وإنما هو اسم جنس يطلق على عدد كثير لا يعلمه إلا الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ ﴾.

وبعد: فإن ذكر الله بهذين الاسمين اللذين طوفنا حولهما يشعر الذاكرين أنهم في قبضة خالقهم، فهو الذي أنعم عليهم بالحياة، وهي النعمة الكبرى التي تستحق الشكر مدى الحياة، وهو ينعم عليهم ــ أيضاً ــ بالموت، فيكون راحةً لهم، وسبيلاً إلى جنته التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا دخلوها حمدوا الله حمداً يوافي نعمه على قدر طاقتهم.

---

(١) الآية: ١١.

(٢) الآية: ٦١.

يقول الله عز وجل: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [1]

اللهم املأ قلوبنا بذكرك وطاعتك، واشرح صدورنا بحبك وهدايتك، وأمتنا على الإيمان واليقين، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

---

(١) فاطر: ٣٣ـــ ٣٥.

الحي القيوم

الحياة التي يوصف بها الله الواحد الأحد مُغايرة مغايرة تامة لحياة جميع المخلوقات من جميع الوجوه.

فحياته جل شأنه حياة ذاتية أزلية أبدية، ليس لها بداية ولا نهاية، مجردة عن معنى الزمان والمكان، منزهة عن الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء.

وقد عرّف الله حياته الذاتية الأزلية المجرَّدة عن كل خصائص حياة المخلوقين بقوله تبارك وتعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ (١) ، فَدَلَّ بقوله: ﴿ لا يَمُوتُ ﴾ على مغايرة حياته لجميع مخلوقاته؛ لأن كل حي يموت.

وبقوله سبحانه في سورة القصص: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وبقوله في سورة الرحمن: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٣).

وأما القَيُوميَّةُ فمعناها: القيام التام على كل شيء في ملكه، والتدبير المحكم لجميع شئون خلقه، وقيام كل شيء به خاضع لهيمنته، مستجيب لأمره مُسَبِّح بحمده، فهو جل شأنه قائم بذاته مستغن عن خلقه، وهم الفقراء إليه، وجودهم من وجوده، وأمرهم كله منه وإليه.

وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وجزئياته في كل وقت وفي كل حالة ـــ حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورها، وحين يَسْبَحُ بخياله المحدود مع ما لا يحصيه عدد من الذرات والخلايا وسائر الخلائق والأشياء والأحداث في هذا الكون الهائل، ويتصور ـــ بقدر ما يملك ـــ قيام الله سبحانه عليها وتعلقها في

---

(١) الآية: ٥٨.   (٢) الآية: ٨٨.   (٣) الآيات: ٢٦ ـــ ٢٧.

قيامها بالله وتدبيره، إنه أمر لا يتصوره الإدراك الإنساني، وما يتصوره منه ــ وهو يسير ــ هائل يدير الرءوس، ويحير العقول، وتطمئن به القلوب.

فلله الملكية المطلقة، التي لا يرد عليها قيد ولا شرط، ولا فوت ولا شركة، وله القيومية الشاملة على ما كان وما يكون وما هو كائن.

وقد بَيَّنَ الله عز وجل معنى هذين الاسمين المقدسين مجتمعين في آية الكرسي، وهي آية مكوَّنة من عشر جمل كل جملة مبنية في معانيها ومراميها على التي قبلها، وآخرها يؤكد مضمون أولها.

ونحن نددن حولها لنتعرَّفَ على تلك المعاني المُسْتَكِنَّةِ في هذين الاسمين بوجه خاص، والمعاني التي تكون في طريقها بوجه عام.

الجملة الأولى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

الجملة الثانية: ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أي: الباقي أبداً سرمداً حياة ذاتية لا يشاركه في خصائصها أحد، كما أشرنا من قبل، القيوم الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ويسوس الملك بعلمه المحيط وإرادته التامة وقدرته المهيمنة المنجزة.

وهذه الجملة الثانية مؤكدة للأولى؛ إذ من شأن الواحد الأحد أن يكون حيًّا باقياً، ومن شأن المعبود بحق أن يكون قائماً على عباده بكل ما يحتاجون له ويفتقرون إليه.

الجملة الثالثة: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ أي: لا تقهره غفلة ولا نوم عن تدبير ملكه، وهي توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء، وقيام كل شيء به، ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، وهي تتضمن نفي السنة الخفيفة أو النوم المستغرق، وتنزهه سبحانه عنهما إطلاقاً.

الجملة الرابعة: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ إيجاداً وخَلْقاً وتقديراً وتدبيراً، فهي ملكية لا ينازعه فيها منازع.

وهذه الجملة تأتي برهاناً على وحدانيته في الذات والصفات والأفعال، واستحقاقه للعبودية والحمد والثناء، فكل ما هو في دائرة ملكه ــ ولا ملك إلا ملكه ــ فهو عبد له، ناصيته بيده، ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الجملة الخامسة: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ وهي تكشف عن انفراد الله عز وجل بأمر عباده، فلا يشفع أحد لأحد في شيء إلا بإذنه، فالعبيد جميعاً يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية، وهو موقف الخضوع والخشوع، والتمسكن والتواضع؛ لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، وهم إنما يتفاضلون فيما بينهم بالتقوى وفق ميزان الله الدقيق.

إنها جملة توحي بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية، ويزيد هذا الإيجاد عمقاً صيغة الاستفهام الإنكاري التي يُؤتى بها للمبالغة في النفي على أكمل وجه.

الجملة السادسة: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وهي جملة تقرر أن الله لا يعزب عن علمه شيء مما يتعلق بعباده في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، لا تخفى عليه خافية من مكنونات صدورهم ومطويات ضمائرهم، يعلم من أنفسهم ما لا يعلمون منها، فيجزي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته، ولا يأذن بالشفاعة إلا لمن ارتضى من عباده.

الجملة السابعة: مرتبطة بالتي قبلها مُتمِّمةٌ لها مؤكدة لمضمونها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ ﴾ أي: لا يدركون شيئاً من علمه تبارك وتعالى بعقولهم القاصرة إلا بمشيئته وبالوسيلة التي يختارها لهم، فلا يدعي مكابر أنه قادر على تحصيل شيء من العلم بملكاته الذاتية ووسائله العادية، وينسى هذه الحقيقة الجوهرية ويفتتن بما أذن الله له فيه من علمه، سواء كان هذا الذي أذن له فيه علم شيء من نواميس الكون وقوانينه، أم رؤية شيء من غيبه في لحظة عابرة إلى حد معين.

الجملة الثامنة: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وهي من الأخبار التي يحملها السلف الصالح على ظاهرها من غير تأويل، فيقولون: لله كرسي دون العرش، لا يعلم حقيقته إلا هو جل شأنه.

الجملة التاسعة: ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أي: حفظ السماوات بما فيها وحفظ الأرض وما عليها وتثبيت كل شيء في مكانه وتصريفه بحسب علمه ووفق مشيئته، لا يعجزه شيء أراده وقدره في ملكه، فكل ما في ملكه في حَيِّز قدرته التامة، فهو جل شأنه قد دبر ملكه تدبيراً محكماً يخلو من التفاوت والخلل.

الجملة العاشرة: توكيد لمضمون ما قد سبق ــ كما أشرنا من قبل ــ وهي قوله جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ أي: هو المتفرد بالعلو والعظمة، لا ينازعه فيهما أحد، فالكبرياء رداؤه، والعظمة إزاره، من نازعه واحداً منهما أصابه بالهوان والصغار وجعله تحت أقدام العباد.

هذه الآية قد جمعت أصول التوحيد كلها على أتم وجه وأبلغ أسلوب، فكل جملة من جملها موصولة بالأخرى من غير فاصل بينها بحرف من حروف العطف، فهي كوكبة إيمانية تملأ القلوب نوراً يهتدي به السالكون إلى سبل السلام، حتى تنتهي بهم هذه السبل إلى الصراط المستقيم: صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وهو التوحيد الخالص من كل شوائب الشرك الجلي والخفي.

ومن نظر في هذه الآية بتدبر، أدرك أن الجملة الثانية مبنية على الأولى، وما بعدها تفسير لها؛وذلك لأن الحي القيوم: هو الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيء.

فكل ما سواه هالك وصائر إلى العدم، وكل شيء خاضع لتدبيره وقيوميته في الدنيا والآخرة، فليس لأحد مع تدبيره تدبير ولا إرادة.

وتتجلى قيوميته في الدنيا لأهل الخبرة والمعرفة بالسنن الكونية، فيؤمنون به إيماناً راسخاً، على النحو الذي أراده جل شأنه، ويشهدون بأنه المعبود بحق دون سواه.

وأما في الدار الآخرة، فإن هذه الشهادة يدلي بها جميع الخلق من غير تفاوت في العلم والفهم، وذلك حين يرون ما هم فيه من أهوال تبلغ القلوب فيها الحناجر، ولا يلوي أحد على أحد.

يقول الله عز وجـل: ﴿ وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (١). والعنت في الآية معناه: الذلة والخضوع التام للملك العلام جل جلاله.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٢).

ويقول عز من قائل: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (٣).

وبعد ، فإن المؤمن إذا فهم معاني هذين الاسمين العظيمين وذكر الله بهما قبل الدعاء وبعده ــ فإن الله عز وجل يستجيب له، بشرط أن يكون قد أطاب مطعمه وأخلص في دعائه وكان موقناً بالإجابة.

وخير دعاء يدعو المؤمن به دعاءٌ ورد عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم : "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنّان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك..." ويسمي حاجته.

ويستحب أن يكون هذا الدعاء في السجود وفي التشهد الأخير، وعقب الصلوات الخمس، وفي أوقات السَّحَر، بحيث يرفع يديه إلى السماء ووجهه إلى الأرض وقلبه حاضر معه.

والدعاء مخ العبادة وروحها وريحانها، به يظهر العبد تمام افتقاره لخالقه ومولاه.

---

(١) طه: ١١١. (٢) غافر: ١٦. (٣) الانفطار: ١٧ــ ١٩.

الواجد الماجد

من نظر بتأمل وتدبر في هذين الاسمين المقدسين، وجد أنهما يدلان على أوصاف كمالية كثيرة، تلتقي في معانٍ مشتركة متلازمة ينوب بعضها عن بعض إذا أريد الإجمال، ويفترق بعضها عن بعض من بعض الوجوه إذا أريد التفصيل والبيان.

فالواجد يحمل من المعاني ما يحمله الغني والواسع، والعليم والقادر.

والماجد يحمل من المعاني ما يحمله المغني والنافع، والبر والمعطي والمجيد، كما سيتبين لنا من خلال الحديث عنهما.

فالواجد: هو الغني الذي لا يفوته مراد، ولا يستعصي عليه مطلوب، ولا يعزب عن علمه شيء.

وهذا المعنى الجامع مستمد من اللغة مراعى فيه ما يليق بذاته تعالى..

فالواجد اسم فاعل مشتق من وَجَدَ، والوجود هو العلم، والوُجد ــ بضم الواو ــ هو الوسع والطاقة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ [١].

وقد جاء الوجود بمعنى العلم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ [٢].

وقوله جل شأنه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [٣].

يقول الإمام الغزالي في تعريف الواجد: هو الذي لا يعوزه شيء مما لابد له منه، وكل ما لابد له في صفات الإلهية وكمالها فهو موجود لله تعالى، فهو بهذا الاعتبار واجدٌ، وهو الواجد المطلق، ومن عداه إن كان واجداً بشيء من صفات الكمال وأسبابه فهو فاقد لأشياء، فلا يكون واجداً إلا بالإضافة.

---

(١) الطلاق: ٦.

(٢) النور: ٣٩.

(٣) الضحى: ٧.

يعني: لا يكون واجداً مطلقاً، وإنما يقال: واجد لكذا وكذا، وليس واجداً لكل شيء.

وعلى هذا التعريف يكون هذا الاسم جامعاً لصفات الكمال كلها.

والفرق الدقيق بين الواجد والعليم أن العليم يتميز بالإحاطة التامة بجميع المعلومات، والواجد يتميز بالتمكن التام من التنفيذ والإنجاز مع نفي العجز.

والواجد يدل على الغنى التام والاتساع في الفضل بلا حدٍّ ولا أمد.

والفرق بين الواجد والواسع أن الواسع يدل على الرحمة الشاملة والغنى الكامل والفضل العظيم، والواجد يدل على ذلك مع إشعار بالشرف والكرم؛ فإنه يقال: الكريم واجد. أي: كرمه حاضر وخيره دائم.

ونحن نقول في أمثالنا: الخير واجد، أي: موجود دائماً.

ولهذا يُفَسَّرُ الواجد بأنه الموجود الذي لا يحده زمان ولا مكان، فهو الذي كان قبل الزمان والمكان، وقبل كل شيء كان. كان ولا شيء معه، فأراد أن يُعبد فخلق الخلق وعرفهم بنفسه فعرفوه فعبدوه طوعاً وكرهاً، وشهدوا له بالوحدانية بلسان الحال والمقال.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (1).

وأما الماجد: فهو الذي له المجد كله، والمجد: هو الغنى والعز والشرف والكرم والحمد والثناء التام.

والماجد: هو واهب المجد والعزة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (2).

وقوله جل شأنه: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (3).

وقيل: الواجد توكيد للماجد، أي: الغني المغني، وهو كذلك حقاً، إلا أن بين

---

(1) الإسراء: 44. (2) فاطر: 10. (3) المنافقون: 8.

الاسمين تغايراً في المعنى، كما هو واضح؛ فالغني: هو الذي لا يفتقر لأحد، والمغني: هو الذي يغني من يشاء من عباده، فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه، فإن كان لأحد من الناس عز، فهو قبس من عِزِّه، وإن كان لأحد مجد فذاك قبس من مجده.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١).

أي: أنتم الفقراء فقراً كاملاً إلى فضله ورِفْده، وهو الغني غنىً كاملاً عنكم، لا تنفعه طاعتكم ولا تضره معصيتكم، فهو الواجد لكل أوصاف الكمال والتنزيه، الماجد الذي له المجد كله في الملك كله، واهب المجد لمن شاء ومتى شاء وكيف شاء.

والماجد والمجيد: بمعنى واحد، وإن كان المجيد في ظاهر اللغة أبلغ من الماجد؛ لأنه ليس في صفات الله صفة أبلغ من صفة، فكل أوصافه كمالية متساوية في الكمال والتنزيه، ولكن كل وصف في محله مستعذب.

فأنت تستعذب وصفاً في موضع أكثر مما تستعذبه في موضع آخر، فالواجد مثلاً يستعذب ذكره مع الماجد، والمجيد يستعذب مع الغفور الودود، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (٢).

ولو وضع الماجد في هذا السياق مكان المجيد لا يكون له من التأثير مثل ما له؛ فكل لفظ يتعايش مع بيئته وينسجم مع مقاصده، وينتظم في سلك ما قبله وما بعده.

وإن أردت أن تعرف ذلك فجرب، وفي التجريب علم الحقائق، فأين أنت من إعجاز القرآن في حسن البيان وجمال التعبير ودقة التصوير، ووضع اللفظ المناسب في المكان المناسب، في نظم بديع وترابط تام بين الألفاظ ومعانيها ومراميها؟!

---

(١) فاطر: ١٥.
(٢) البروج: ١٢ـــ ١٦.

وبعد هذا البيان لمعاني هذين الاسمين المقدسين لنا كلمة نقولها لأنفسنا ونهمس بها في آذان من يريدون الغنى ويبتغون العزة، ويسعون لتحصيل المطالب ويحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم في كل حال.

نقول: إن الواجد جل شأنه قريب مجيب، رحيم ودود، فادعوه مخلصين له الدين بأسمائه الحسنى، وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإن من سأله أعطاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن اعتصم به هداه إلى صراط مستقيم؛ فهو الواجد الذي لا تنفضّ خزائنه، ولا تنتهي نعمه، ولا تضيق رحمته بالمحسنين.

وهو الماجد الذي ينتهي إليه المجد كله، وينسب لجلاله الحمد كله، تعطرت أنفاس الكون بنسائم فضله، واستنار الملك كله بنور جلاله وجماله، وقام كل شيء بميزان عدله.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي ادعوني بما شئتم أستجب لكم بما شئت ومتى شئت وكيف شئت؛ رحمة بكم وحفظاً لكم من الهوان والضياع. فليس كل من دعا بشيء أستجيب له فيه وفق ما يريد؛ فإن ذلك ينشأ عنه خلل في الموازين الكونية وخطر يتهدد البشرية.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (١).

فكل شيء عنده بمقدار، فهو جل شأنه يعلم ما ينفع عباده وما يضرهم في دينهم ودنياهم، فيستجيب لهم بالقدر الذي يصلح من شأنهم ولا يفسد عليهم جو الحياة ومسالكها، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

والإنسان أحياناً يدعو على نفسه بالشر وهو يظن كل الظن أنه يدعو لها بالخير، وتدفعه العجلة إلى طلب الشيء في أقرب وقت على وجه السرعة، ولو علم ما في الغيب لاختار لنفسه ما اختاره الله له وأقامه عليه.

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ (٢).

---

(١) الشورى: ٢٧.　　(٢) الإسراء : ١١ .

والدعاء مخ العبادة وروحها وريحانها، يقرِّب العبد من ربه، ويقرِّب رحمته منه حتى تغمره فيعيش في حياته الدنيا طيب النفس سليم القلب، ثم تفيض نفسه المطمئنة راجعة إلى ربها راضية مرضية في وفد التكرمة إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١).

والرشد غاية الغايات ومنتهى المقامات. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من خيار الراشدين المرشدين.

والذاكرون الله بهذين الاسمين يشعرون كلما ذكروه بهما أن قوة عليا تسمو بهم إلى آفاق روحية وأجواء نورانية يجدون فيها دلائل التوحيد الخالص من غير تكلف في طلبها أو تعمق في البحث عنها، فيصلون بها إلى أعلى مقامات القرب، بينما يظل أصحاب القيل والقال حيث هم غارقون في بحار الشبهات والشهوات، وهم يحسبون أنهم بعلم الكلام يحسنون صنعاً.

فمن ذكر الله باسمه الواجد، وجده في قلبه وعقله وفي كيانه كله، فيشهد له بالوحدانية كما ينبغي أن تكون الشهادة، إنها تكون شهادة بالمشاهدة لا بالقيل والقال. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢).

ومن ذكره باسمه الماجد، أحس من أعماق قلبه ببرد اليقين يسري في كيانه كله، وشعر أن المجد يمشي في ركابه وأن العز ملء ثيابه؛ لأنه مع من له المجد كله، ومن كان مع الله كان الله معه. ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٣).

جعلنا الله وإياكم من أهل التقوى والإحسان، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البقرة : ١٨٦ .　　(٢) فصلت : ٥٣.　　(٣) النحل : ١٢٨.

الواحد الأحد

الواحد جل شأنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومعنى وحدانية الذات: أنه ليس كالذوات من أي جهة؛ فالذوات مركبة من أجزاء، ومحدودة بزمان ومكان وأحوال تلابسها ولا تنفك عن حالة منها.

والذوات أيضاً تقبل التعدد والتزاوج والتناقض والتشابه والائتلاف والافتراق، والحدوث والعدم، وغير ذلك مما يطول ذكره من صفات المخلوقات.

أما الذات الإلهية فهي ذات منزهة عن كل ذلك وما إلى ذلك تنزيهاً تاماً، فهو الفرد الذي كان ولا شيء معه، ولم يزل واحداً واجب الوجود أبداً بلا انقطاع ولا زوال.

ومعنى وحدانية الصفات: أنه الواحد الذي تمّت له أوصاف الكمال كلها، فهو عالم بذاته، قادر بذاته، عزيز بذاته، له الأسماء الحسنى التي نعلمها والتي لا نعلمها، فهو جل شأنه متفرد بالعلم المحيط والإرادة النافذة والقدرة المنجزة، فقد تبارك في ملكه وتعالى على عرشه، وعز في سلطانه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء بحمده، ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ نواصي الخلق بيده، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه.

ومعنى وحدانية الأفعال: أن أفعاله مبنية على علمه التام وحكمته البالغة، لا تتناقض ولا تختلف، ولا تقبل الشركة بحال، ولهذا كان الله واحداً في ألوهيته، أي: في أحقيته للعبادة دون سواه.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

والإله في اللغة: هو المعبود الذي تألّه عباده، أي: تعبدهم بشرعه الذي شرعه في كتبه المنزلة على رسله، وأمرهم بطاعته والخضوع له وإظهار الافتقار إليه.

---

(١) البقرة: ١٦٣.

يقول الله جل جلاله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (١).

أي: هو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود طوعاً وكرهاً، وهذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

والتسبيح: هو التنزيه التام لمن اتصف بالوحدانية في الذات والصفات والأفعال على النحو الذي بيناه.

فالواحد جل شأنه: هو من له الأحدية المطلقة، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ولابد لنا إذا ذكرنا الواحد جل شأنه بالوحدانية أن نراعي الأحدية حتى ندفع عن أنفسنا توهم ما قبل الواحد وما بعده؛ فإننا إذا قلنا: واحد قد يخطر في أذهاننا أن قبله صفراً وبعده اثنين وثلاثة إلى آخره.

لكن إذا قلنا هو أحد لم نتصور قبله ولا بعده شيئاً، ولذلك نجد أن الله عز وجل إذا وصف نفسه بالواحدية أتبع ذلك بأوصاف أخرى تدل على الأحدية، كما جاء ــ مثلاً ــ في أول سورة الصافات فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (٣).

فَذِكْرُ الرب مرتين في الآية يدل على الأحدية، وكذلك ما جاء بعد هذه الآيات من آيات فيها أوصاف تدل على العلم والحفظ والخلق والإبداع.

وقد رأينا بعض العلماء إذا ذكروا الواحد أتبعوه بذكر الأحد وعدوهما اسماً واحداً.

وسواء ذكروا مع الواحد الأحد أم لم يذكروه، فهو مفروض ذكره حتماً بلسان الحال؛ مراعاة لحق الله في الجلال والكمال، فالأحدية صفة مخصصة لهذا

---

(١) الزخرف: ٨٤. (٢) الإسراء: ٤٤. (٣) الصافات: ١ ــ ٥.

الاسم المقدس، موضحة لمعناه، مزيلة للتوهم والإجمال، رافعة للبس والإشكال.

وإذا رجعنا بالتأمل والنظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) وجدنا أن نفي الألوهية عن سواه هي الأحدية بعينها، وقد جاءت توكيداً للوحداية في الآية مخصصة لمعناها على أكمل وجه وأتمه.

فقوله ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ قد يوهم أن إله المخاطبين وهم المسلمون واحد، وغيرهم لهم آلهة متعددة؛ فأزال الله هذا اللبس والإشكال بقوله ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ ليعلم من كان له عقل سليم أن وحدانية الله هي الأحدية المطلقة، وأنه هو الإله الذي ينبغي أن يفرده جميع الخلق بالعبادة.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢).

وإفراد الله بالعبادة هو التوحيد الخالص بعينه، وهو الذي أمر الله به قبل هذه الآيات بقوله: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ (٣). أي: أسرعوا إليه بالطاعة والانقياد والاستسلام.

والفرار إلى الله على ثلاث مراتب:

الأولى: الفرار من الكفر إلى الإسلام.

الثانية: الفرار من المعصية إلى الطاعة.

والثالثة: الفرار منه إليه. بمعنى: أنه لا يرى في الوجود موجوداً ينفع ويضر ويعطي ويمنع سواه.

ولقد كان النبي ﷺ يعبر عن هذه المرتبة الثالثة بدعاء يقول فيه: "اللهم، إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا منجاة منك إلا إليك".

وهذه المرتبة قد انتهى إليها كثير من أصحابه ﷺ منهم الثلاثة الذين خُلّفوا عنه ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا ندماً شديداً على تخلفهم، وتابوا توبة نصوحاً

---

(١) البقرة: ١٦٣. (٢) الذاريات: ٥٦ــ ٥٨. (٣) الذاريات: ٥٠.

مَنَّ الله بها عليهم. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

فهؤلاء الثلاثة قد عرفوا الله بوحدانيته وأحديته فلم يجدوا مهرباً منه إلا إليه، فاعتصموا به واستعاذوا بعفوه ورحمته من غضبه وعذابه، فكان جل شأنه أسرع إليهم بالتوبة والقبول من إسراعهم إليه.

وهذا شأنه دائماً مع الموحدين؛ لأنهم بلغوا الغاية في الإحسان إلى أنفسهم والقيام بواجب الشكر لخالقهم بقدر طاقتهم.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢).

والسُبل التي يهدي الله عباده إليها كلها موصلة إلى التوحيد الخالص؛ لأنها سُبل إلى الطاعة والانقياد؛ لهذا أضافها الله إليه في الآية، وأخبر أنه مع ساليكها معية توفيق ونصرة، ووصفهم بالإحسان وهو منتهى المقامات. فأين نحن من هذا المقام!!

إن هذا المقام قد دعا الله إليه الأخيار من عباده بقوله جل في علاه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٣).

أي فمن كان يخشى لقاء ربه ويطمع في رحمته فليقدم لنفسه عملاً صالحاً، ولا يرائي به أحداً من الناس؛ فإن العمل الصالح عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عز جاهه.

والله طيب لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، كما قال الرسول ﷺ في الحديث الصحيح.

---

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) الكهف: ١١٠.

وعدم الإشراك هو الإسلام الحق الذي لا مرية فيه، وهو الخضوع التام للواحد القهار.

يقول الله عز وجل: ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (١). أي: الخاشعين الخاضعين العابدين.

إن كلمة التوحيد هي الكلمة التي قامت بها السماوات والأرض ـ هي كلمة التقوى وكلمة السواء، التي دعا الله إليها أهل الكتاب وغيرهم من الأمم الكافرة وجعلها باقية من الأذل إلى أبد الأبد.

من قالها بقلبه ولسانه فقد نجا وفاز برضوان الله في الدنيا والآخرة، فليس هناك كلمة أعظم من كلمة لا إله إلا الله. ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

بها نحيا وبها نموت وبها نبعث إن شاء الله آمنين.

ولقد تشبع بها المخلصون لله في إفراده بالعبودية حتى صارت هذه الكلمة هي الملاذ لهم في شأنهم كله؛ لعلمهم أنه لا يُقضى شيء في الوجود إلا بإرادة الله وقدرته.

فقد كان كل نبي يدعو قومه إليها ويوصي أتباعه بها. والقرآن حافل بأخبار هؤلاء المرسلين والهداة المرشدين، فكل نبي قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾.

ويكفيك أن تقف متدبراً في وصية إبراهيم عليه السلام لبنيه ويعقوب من أحفاده بأن يسلموا الوجه لله وحده ويخلصوا له العبودية إخلاصاً تاماً لا يعتريه أدنى شك أو شبهة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ

---

(١) الحج: ٣٤.

قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

إن كلمة التوحيد هي كلمة الإجابة من دعا بها ربه أجابه بما شاء وكيف شاء وفي أي وقت شاء، بمقتضى حكمته في تدبير الأمر وتصريف الأحوال؛ لأن العبد قد أجاب الله وآمن به، ونطق بالشهادة له بأنه الواحد الأحد، المعبود بحق في الوجود كله. فكان الله أسرع إليه بالإجابة، وهو القائل جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢).

روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول في دعائه: اللهم، إني أسألك بأنك أنت الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فقال النبي ﷺ: " لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى ".

واعلم أن الكون كله شهد بأن الله واحد لا شريك له في ملكه ولا شبيه له في ذاته وصفاته وأفعاله. والفطرة السليمة تشهد بذلك.

والله يشهد لنفسه بذلك.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣).

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤).

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

---

(١) البقرة: ١٣٠ــ ١٣٣.

(٢) الشورى: ٢٥ــ ٢٦.

(٣) آل عمران: ١٨.

(٤) الأنعام: ١٩.

ومما تقدم نعلم أن الواحد هو الاسم الذي يتضمن معناه جميع الأسماء الحسنى؛ لأنه يتسع لكل أوصاف الجلال والجمال والكمال.

وما على المؤمن إلا أن يكثر من الذكر بهذا الاسم في صباحه ومسائه حتى يتشرب قلبه حب التوحيد، فيسلم من شبهات الشرك ونزوات الهوى ونزغات الشيطان، فيرتقي في سلم الكمال البشري إلى آخر مراتب الحب والقرب.

نسأل الله الواحد الأحد الفرد الصمد أن يملأ قلوبنا بكلمة التوحيد أمناً وإيماناً؛ إنه سميع قريب مجيب.

الصمد "جل جلاله"

الصمد جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته ــ هو المستغني بذاته عن جميع خلقه، المُنَزَّهُ عن كل ما لا يليق بذاته وصفاته، القائم على شئون عباده، مالك المُلك مدبر الأمر، ذو الجلال والإكرام.

وهو اسم يؤكد معنى الأحدية، ويكشف عن حقيقتها كشفاً يدفع عن الأفهام تَصَوُّر التعدد والتشبيه من أي جهة؛ لهذا جاء ذكره بعدها في سورة الإخلاص، وهي السورة التي حددت معالم التوحيد كلها على إيجازها، فلو لم ينزل من القرآن سواها، لكانت كافية في الدلالة على تنزيه ذاته وصفاته من كل ما لا يليق بجلاله وجماله وكماله.

وقد تكلمنا فيما سبق عن معنى الواحد الأحد، ونتكلم بإيجاز هنا عن معنى الصمد في اللغة أولاً، ثم نبين معناه في حق الله تعالى بحسب مقتضياتها؛ فالقرآن ــ كما نعلم ــ قد نزل بأفصح لغات العرب وأكثرها شيوعاً بينهم.

تقول كتب اللغة: أصل الصَّمْد: القصد، تقول: صَمَدَه يصمِده صمداً، وصَمَدَ إليه قصده.

قال معاذ بن عمرو بن الجموح حين قَتَل أبا جهل: فصمدتُ له حتى أمكنتني منه غرةٌ. أي: قصدت إليه، وتهيأت له، وانتظرت غفلته.

والصَّمَدُ ــ بفتح الميم ــ معناه: السيد المطاع الذي لا يُقضى أمر دونه، والذي يُقْصَدُ في الحوائج.

وقد وصف أحد الشعراء رجلاً بتلك الصفة فقال:

علوتُهُ بحسام ثم قلتُ له   خذها حُذَيْفُ فأنت السيدُ الصَّمَدُ

وإنما ذلك على سبيل المجاز؛ لأن السيد الحقيقي الذي لا تكون الطاعة إلا له، والذي يَقْضِي ولا يُقْضَى عليه ــ هو الله جل جلاله.

ومن معاني الصمد ــ أيضاً ــ الذي لا يُطعم ، ومن معانيه كذلك :الدائم والرَّفيع.

وحول هذه المعاني اللغوية دَنْدَنَ المفسرون في بيان المعاني اللائقة بالذات العلية فَرَدُّوها إلى قسمين متلازمين ليس بينهما انفكاك.

القسم الأول يرجع إلى أوصافه الواجبة له الدالة على كماله واستغنائه بذاته عن خلقه.

والقسم الثاني راجع إلى تنزيهه عما لا يليق بذاته تعالى.

ويجمع هذين القسمين قولنا: سبحان الله والحمد لله؛ فالتسبيح معناه: التنزيه عما لا يليق بذاته، والحمد معناه: الشهادة له سبحانه بالكمال المطلق. وهذا وذاك يُقصد به إثبات الأحدية والصمدية على أتم وجه وأكمله.

وذكروا في كل من هذين القسمين وجوهاً لا تخرج عما ذكرناه.

قال بعضهم: الصمد هو الذي يُصمد إليه في الحاجات كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (١).

وقال قوم: هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال، كما قال جل شأنه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وقال قوم: هو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فاعتبروا ما جاء بعده في سورة الإخلاص تفسيراً له، كما أنه جاء تفسيراً لما قبله؛ فالله أحد صمد لا والد له ولا ولد، ولا يشبهه في الخلق أحد.

وقال قوم:هو المستغني بذاته عن كل أحد، والمحتاج إليه سبحانه كل أحد.

وقال بعضهم: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، كما قال جل شأنه: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾.

وقال بعضهم: هو الذي لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

وقال بعضهم: هو الذي يُجِيرُ ولا يُجار عليه.

---

(١) النحل: ٥٣.　(٢) القصص: ٨٨.

وقال الحسن البصري: هو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال، كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي، وهو الآن كما كان.

وقال أبو بكر الوراق: هو الذي آيَسَ الخلائق من الاطلاع على كيفيته.

أخذاً من قوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

وكان الأولى أن يقول على ذاته بدلاً من كيفيته لأن الكيف متصور في العقل وذات الله ليست كذلك.

وهذه المعاني كلها متقاربة ومتلازمة، ليس بينها تضاد، وأكثرها ورد عن كبار الصحابة وخيار التابعين، فهو من باب تفسير التَّنَوُّع لا من باب تفسير التضاد، كما يقول علماء التفسير والأصول.

وقد سألني طالب علم وأنا أكتب في معاني هذا الاسم المقدس، فقال: لماذا جاء الأحد في سورة الإخلاص مُنَكَّراً وجاء بعده الصمد مُعَرَّفاً.

قلت: الأحدية لا تقبل الشركة بحال؛ فالأحد ليس قبله شيء ولا بعده شيء ولا فوقه شيء ولا دونه شيء يشبهه في أي وجه من وجوه التشابه.

أما الصمد فقد اتصف به السادة والأشراف، كما جاء في قول الشاعر:

علـــوتُهُ بحســـام ثـــم قلت لـــه   خذها حُذَيْفُ فأنت الســـيد الصَّمَدُ

وقد سبق ذكر هذا البيت ، وقلنا: إن وصف السيد بالصمد مجاز لا حقيقة؛ فالصمد حقاً وصدقاً هو الله وحده، لهذا جاء ذكره في سورة الإخلاص معرفاً؛ رفعاً للمجاز وتوكيداً للاختصاص.

وقد سألني هذا الطالب نفسه عن السر في تكرار لفظ الجلالة مرتين: مرة مع الأحد، ومرة مع الصمد.

فقلت: إن تكرار لفظ الجلالة فيه مبالغة في التوكيد على أن الواحد الأحد

---

(١) الأنعام: ١٠٣.

هو الصمد، وقد تأكدت الأحدية لله بصمديَّتِهِ، فاقتضى ذلك ذكر لفظ الجلالة ليتعمق هذا الاختصاص في قلوب العارفين.

وأزيدك إيضاحاً فأقول: إن هذه السورة جاءت بلاغاً للناس، مصدرة بالأمر "قل"؛ ليعلم من رزقه الله فقهاً في الدين أن هذه الأوصاف وردت من قِبل الحق قبل أن ترد على ألسنة الخلق، وهم بالفطرة ناطقون بما جاء في هذه السورة؛ لأن كل شيء في الوجود يدل على أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والوالدية والولد، ولكن الشياطين قد لعبت بالكثير منهم فصرفتهم عن التوحيد الخالص إلى الفكر المشوَّشَ في وحدانية الإلهية، وسولت لهم عبادة الأصنام والكواكب وغيرها من المخلوقات.

ولهذا أيضاً صُدِّرَتِ السورة بعد الأمر بضمير الشأن والعظمة، والانفراد في الجلال والكمال، وهو ضمير يدل على الغيبة والحضور معاً بالنسبة للذات العلية، فهو جل شأنه غائب عنا بذاته وصفاته، لا تدركه أبصارنا، ولا تحيط بجماله وجلاله أفهامنا؛ لكنه حاضر معنا بعلمه وتدبيره ونوره المشرق في الوجود كله بوجه عام، وفي قلوب المؤمنين بوجه خاص.

وقلت للطالب: هل تعرف لماذا نفى عن ذاته جل شأنه الوالدية والولد؟ فسكت سكوتاً يدل على الأدب مع المعلم، وعلى أنه يريد أن يتعلم.

فقلت له: إن هذه السورة نزلت لتدفَعَ شبهة طالما سرت بين اليهود والنصارى والمشركين، وهي تَتَمَثَّلُ في الزعم الباطل بأن لله ولداً؛ فقد زعمت اليهود أن عزيراً ابن الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، فجاءت هذه السورة تنفي هذا الزعم وتدحضه، كما نفت التعدد في الإلهية ونفي ما لا يليق بالذات الأحدية.

ويعجبني في هذا المقام ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره: إن هذه السورة في حق الله تعالى مثل سورة الكوثر في حق الرسول ﷺ، فقد عاب المشركون على الرسول ﷺ بأنه أبتر لا ولد له، وأثبتوا لله الولد وهو نقص محال في حقه،

فقال في هذه السورة: ﴿ قُلْ ﴾ حتى تكون مدافعاً عني، وفي سورة الكوثر أنا أكون مدافعاً عنك.

وخلاصة القول فيما ذكرناه من معاني هذا الاسم المقدس أن الصمد هو الواحد الأحد في ربوبيَّته وألوهيته وصفاته وأفعاله.

والرب من شأنه أن يُدَبِّرَ أمر خلقه بعلمه وحكمته، ويرعى شئونهم بقدرته وعنايته، ولا يحوجهم لأحد سواه.

فالرب هو الخالق والمربي، والمُدَبِّرُ والمُصْلِحُ، والحاكم والسيد المطاع، كما هو معروف في كتب اللغة؛ لهذا وجب على الخلق أن يصمدوا إليه في حوائجهم كلها، فيسألونه ولا يسألون أحداً سواه، فهو يقول لهم: أنا الصمد فلماذا تتوجهون بالسؤال إلى غيري، وقد تكفلت لكم بجميع أرزاقكم وسائر حوائجكم، ووعدتكم بالإجابة إذا آمنتم بي وأيقنتم أنني أسعكم بُرحمتي وأعمكم بفضلي متى توجهتم إلَيَّ خاشعين لجلالي خاضعين لعظمتي.

والإله: هو المعبود بحق؛ لأنه الرب الذي بيده أمر الخَلْقِ، فوجب أن يُعْبَدَ إيفاءً بحق الربوبية، وجميع الخلق معترفون بها كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾.

والخلق صفة من صفات الربوبية كما ذكرنا.

والعبادة معناها الصمود إلى الله والتوجه إليه بالقصد المقترن بالفعل، والقصد هو الإخلاص في التوحيد.

ومن عبد الله عز وجل وهو يعلم أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، فقد عبده حقاً، وأدى واجب الكلمة، وهي كلمة التوحيد التي قامت بها السماوات والأرض. فالعلم أمر ضروري في تصحيح العقيدة وإخلاص النية وإصلاح الطوية والقيام بواجب العبودية.

قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ﴾ (١).

---

(١) محمد: ١٩.

واعلم ــ أيها الأخ المسلم ــ أن الله عز وجل يقضي حوائج عباده بواسطة عباده؛ فقد رفع بعضهم على بعض درجات؛ ليتعارفوا جميعاً على عمارة الأرض واستقرار الحياة عليها في جو يسوده الحب والوفاء والأمن والرخاء.

فمن أنعم الله عليه بالعلم أو بالمال أو بالقوة فعليه أولاً أن يحمد الله حمداً كثيراً على ما لديه من النعم، ثم يؤيد هذا الحمد ويؤكده ببذل شيء من هذه النعم لمن كان في حاجة لذلك من غير مَنٍّ ولا أذى؛ لعلمه أن الفضل لله أولاً وآخراً، ثم يترجم عن هذا الخلق الفاضل بحمد آخر على نعمة التوفيق، ثم يُتَوِّجُ هذا الحمد الثاني بحمد ثالث على أن وفقه بحمده على نعمة التوفيق، ثم يتبعه بحمد لا ينتهي أمده ولا ينقطع مدده إلى أن يلقى الله حامداً شاكراً، فيظل هذا الحمد معه وهو في الجنة إلى أبد الأبد تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١].

ومن معاني الصمد الذي لاح إليَّ الآن: أنه هو الذي يستحق الحمد على الدوام من قِبَلِ عباده، وهو الذي يُعَدُّ الحمد من خصائص ذاته، فالحمد ثابت له مستغن به عن حمد جميع خلقه، فهو محمود الذات والصفات والأفعال حمداً يعجز الخلق جميعاً عن إدراك كنهه فضلاً عن التعبير عنه بلسان المقال أو بلسان الحال.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٢].

---

(١) يونس: ١٠.　　(٢) القصص: ٧٠.

القادر المقتدر

القادر المقتدر اسمان من أسمائه الحسنى، متساويان في المعنى، يؤكد كل منهما جلاله وجماله في نفوس المؤمنين الأخيار.

فإذا خطر أحدهما على القلب وجرى على اللسان، تبعه الآخر بالضرورة، لشعور الذاكر بأن قدرته جل وعلا لا تقف عند حد؛ لذا يجد نفسه ناطقاً بهما معاً بالقلب واللسان في غير مهلة ولا انتظار.

وذلك لأنه قد يقع في الأوهام أن بعض الملوك مثلاً قادر بسلطانه على تنفيذ مراده وتحقيق مطالبه قدرة تفوق قدرة غيره، فيتحاشى المتوهم غضبه ويبتغي رضاه ولو على حساب دينه ومبادئه، فيلاحقه الاسم الثاني فيبدد هذا الوهم ويطرده من ساحة قلبه وواحة ضميره، ويوجهه بسلطانه إلى من له القدرة التامة المنزه عن العجز والعبث والأغراض كلها، فلا يَسَعُهُ إلا أن يَتَخَلَّصَ فوراً من خوف العباد وتَمَلُّقِهِمْ، إلى الخوف من الله وحده والتَّفاني في ابتغاء مرضاته؛ لأنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة، لا قدرة لمخلوق مع قدرته، ولا راد لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحكمه.

يقول علماء اللغة: المقتدر أبلغ من القادر. وهذا صحيح بالنسبة للبشر وليس في حق خالق القوي والقُدَر؛ إذ هو الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا يقولن قائل: هذا الاسم أبلغ من غيره إلا على سبيل التَّجَوُّزِ والتسامح.

وقد ورد الاسم الأول في القرآن مفرداً وجمعاً في أربعة عشر موضعاً، في كل موضع منها لمسة جمالية ذات جلال ساحر يكشف بوضوح تام عن مَنْحىً من مناحي قدرة الله العليَّة، يأخذ بتلابيب القلوب فيجمعها على خالقها، ويُلقي فيها الخوف منه والطمع في عفوه ورحمته.

اقرأ على سبيل المثال قوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (١).

وكرر قراءتها عدة مرات مع استحضار القلب والتَّدَبُّر، وانظر ماذا تجد.

إنك تجد نفسك أمام خطر عظيم يهَدَّد كل من تُسَوِّلُ له نفسه أن يكفر بالله، أو يكفر بنعمة من نعمه، أو يظن أن الله ليس بقادر على أخذه والانتقام منه في الدنيا والآخرة، ويشعر بسحائب الخوف مقبلة نحوه، وبواعث الخشية متجهة إليه، ونوازع الشر تُنتزع من قلبه، ودوافع الخير تَحُلُّ محلها فيه.

وعندئذ يرى أنه في حاجة ماسة إلى تكرارها مرة بعد مرة؛ لما يجد في كل مرة من المعاني التي تُلْقَى في قلبه فجأة. ما كان ليعرفها لو قرأها مرة أو مرتين.

ومن هنا تتجلَّى طلاوة القرآن وحلاوته، فيتذوَّقها مَن اتخذه أنيسه وجعل تلاوته عبادته في حِلِّه وترحاله، واتَّخذَ تَدَبُّرَهُ ديدنه في ليله ونهاره.

واقرأ أيضاً قوله تعالى في سورة يس: ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

اقرأ هذه الآيات الثلاثة واقرأ ما قبلها إن شئت، واستعن على فهمها بما بين يديك من كتب التفسير، ثم اخلُ بنفسك واستعمل عقلك، واستحضر قلبك وكرر قراءة الآيات مرة بعد مرة، وانظر ماذا ترى؟

إنك ستجد نفسك أمام القدرة العلية مثقال ذرة في فضاء واسع لا يتناهى، فتقول بلسان حالك ومقالك على الفور: مَن أنا في مُلْك الله الواسع الفسيح؟ ، وأين قدرتي؟، بل أين قدرة الخلق جميعاً من قدرة الخالق جل جلاله وتقدَّست أسماؤه ؟.

---

(١) آية: ٦٥.

(٢) الآيات: ٨١ــ ٨٣.

إن هذه الآيات توحي إلى قارئها بادئ ذي بدء أنه ليس للخلق إرادة مع إرادته، فهو الفعال لما يريد، وأنهم ليسوا بمعجزيه في الأرض ولا في السماء، وأن أمره بين الكاف والنون، وأنه قد أحاط علماً بالملك والملكوت.

والمُلك يطلق على ما لاح وظهر، والملكوت يطلق على ما غاب واستتر، ويطلق كل منهما على الآخر عند إرادة الإجمال.

وقدرة الله عز وجل صفة كمالية منزهة عن ضدها من جميع الوجوه.

لهذا سمى الله نفسه: القادر المقتدر. أي الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وأحسن كل شيء خَلْقاً وإبداعاً، وأحكم كل شيء تدبيراً وتصريفاً، وأقام كل ما خلق وبرأ وذرأ على العدل المطلق والقسطاس المستقيم، فبالعدل قامت السماوات والأرض، فلا عوج ولا انحراف ولا تناقض ولا اختلاف.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١).

وقد ورد الاسم الثاني وهو المقتدر في أربعة مواضع من كتابه العزيز، في كل موضع منها تجد له وقعاً خاصاً في نفسك، وإن كان معناه لا يختلف هنا وهناك.

١ــ يقول الله عز وجل في سورة الكهف: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ (٢).

فهذا الاسم يوحي بسرعة الزوال وانتهاء الآجال، وانقطاع الآمال بين عشيَّةٍ أو ضحاها، وقيام الساعة في أقرب من لمح البصر، فكان وضعه في هذه

---

(١) الملك: ١ــ ٤. (٢) الآية: ٤٥.

الآية أعمق في الدلالة من وضع الاسم الأول، وأوقع في النفس التي لا ترعوي عن التكالب على طلب الدنيا بمختلف الطرق وشتى الحِيَل، وتنسى أن وراءها يوماً ثقيلاً لا ينفع فيه مال ولا بنون.

٢ــ ويقول جل شأنه في سورة الزخرف: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (١).

فهذا الاسم يوحي هنا بشدة غضب الله تبارك وتعالى على من أعرض وكفر وطغى وتكبر، ويدل على سرعة أخذه وانتقامه منهم؛ دفاعاً عن نبيه عليه الصلاة والسلام؛ ونصرة لدينه.

وجمع هذا الاسم يشعر بقوة القهر والجبروت، فَتَدَبَّر وانظر كيف يكون هذا الاسم وقع في نفسك وأنت مؤمن؛ لتعرف كيف يكون وقعه على الكافر لو ... عقله فيما جاءت به الآيات والنذر.

٣ــ ويقول عز من قائل في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٢).

وهذا الاسم مناسب لهذا الموضع من جميع الوجوه، ففرعون قد أخذته العزة بالإثم وادعى الربوبية، وبلغ الغاية في التكبر والطغيان، واغتر بقوة عتاده وكثرة جنوده، وظن أنه على كل شيء قدير، فجعله الله نكال الآخرة والأولى، فأخذه شر إِخْذَةٍ. وهكذا يفعل بالمجرمين.

إن هذا الاسم في هذا الموضع يوحي بأن الذي أهلك فرعون وجنوده هو العزيز الذي لا يغلبه غالب، والمقتدر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويُشعر المؤمنين بأنهم في حوزته ومكامن عِزِّهِ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يخشون على أنفسهم الضَّيْعَةَ في الدنيا ولا الهلاك في الآخرة؛ لأنهم جند الله، وجند الله هم الغالبون أبداً، وهم عباده، ولن يخذل الله من عبده وأظهر افتقاره إليه.

---

(١) الآيات: ٤١ــ ٤٢.

(٢) الآيات : ٤١ــ ٤٢.

إن أصحاب موسى عندما رأوا فرعون وجنوده من بعيد ــ فزعوا فزعاً شديداً، فقال لهم موسى كلمة ثَّبتَ بها قلوبهم، وكانت هي السبب في نجاتهم حين استوعبوها فهماً وعملاً.

﴿ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١).

٤ــ ويقول سبحانه في ختام سورة القمر: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (٢).

فالمقتدر اسم جاء بعد اسم المليك لأمور كثيرة ومناسبات متعددة، تحمل في طياتها لطائف بيانية ذات أثر بليغ في أعماق قلوب المتقين.

وكتب اللغة تقول: المَلِك والمَلِيك بمعنى واحد والثاني أبلغ من الأول؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً. ولكني أرى أن لفظ المليك هنا يوحي بالاختصاص، فكل مَلِيك مَلِك، وليس كل مَلِك مليك، ولا يجوز إطلاق هذا اللفظ على مَلِكٍ من ملوك الدنيا.

وهو اسم يُشْعِرُ بالقوة والمنعة، والغلبة والعزة وعظمة السلطان، فانظر إلى المتقين يوم القيامة وهم عنده في ساحة قدسه ينعمون بالنظر إليه من غير كَيْفٍ ولا مَثَلٍ، ويشهدون من مظاهر العظمة والجلال ما شاء الله أن يشهدوه، فهو المليك المقتدر، فلا مليك سواه ولا مقتدر إلا هو.

وعلى المتدَبِّر أن يوازن بين معنى هذا الاسم هنا في باب الوعد، ومعناه هناك في باب الوعيد؛ فإنه لو فعل ذلك لأطلعه الله على كثير من الأسرار القرآنية واللطائف الربانية فوق ما يتذوقه من جمال التعبير ودقة التصوير وبراعة النظم وروعة البيان.

هذا. ولله اسم آخر يحمل معاني هذين الاسمين المقدسين لم يَعُدُّهُ العلماء من الأسماء الحسنى؛ لعدم وروده في الحديث، أو للاكتفاء بهما عنه، مع أنه ورد

---

(١) الشعراء: ٦١ــ ٦٢. (٢) الآيات: ٥٤ ــ ٥٥.

في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وهو "القدير"، وهو من صيغ المبالغة. ولو عَدُّوهُ من الأسماء الحسنى وأضافوه إلى هذين الاسمين، ما كان في ذلك من بأس ولا ضيْرٍ، فأسماء الله الحسنى لا تقتصر على هذه الأسماء التي بلغ مجموعها تسعاً وتسعين اسماً، وإنما هي أكثر من ذلك بكثير، بعضها يعلمه عوام الخلق، وبعضها يعلمه خواصهم، وأكثرها - مما لا يتناهى - لا يعلمه إلا الله.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده دعاء نفيس، ينبغي أن نحفظه وأن نعلمه أبناءنا.

"اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ماض فِيِّ حكمك، عدل فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي وشفاء صدري وجلاء حزني وغمي".

وبعد: فإن المؤمن إذا أكثر من ذكر هذين الاسمين المقدسين، عَلَتْ همته، وقَوِيَ عزمه على الطاعة وترك المعاصي، والصبر على المكاره ومواجهة الشدائد بصدر رحب وقلب مطمئن، وغمره شعور صادق بأن الله معه ولن يُسْلِمَهُ لعدو ينال منه، واشتاقت نفسه إلى أن يكون مع المتقين في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو مقعد الصدق الذي وعد به في قوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾.

جعلنا الله وإياكم منهم بفضله ورحمته.

المقدِّم والمؤَخِّر

مَن ذكر الله عز وجل بهذين الاسمين المقدسين، أسلم نفسه إليه، وأسند أمره كله لمشيئته، ورضي كل الرضا بقضائه وقدره، وقضى عمره كله في طاعته، وجمع قلبه عليه في وقت أنسه وفي وقت وحشته، وجعل إرادته خاضعة لإرادته، فلا يسأله عن شيء قدمه لِمَ قدمه؟، ولا عن شيء أخره لِمَ أخره؟ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (١).

والمقدم والمؤخر معناهما واضح يترجمه قوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

فهو جل وعلا يُقدِّم ما يشاء، ويُؤخر ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء على ما يشاء وبقدر ما يشاء، وفق علمه المحيط بجمع الأشياء وحكمته البالغة مبلغ العدل المطلق الذي لا يكون إلا له، ولا يقدر على تحقيقه أحدٌ سواه.

وهذان الاسمان لم يرد لهما ذكر في القرآن الكريم، ولكن وردت مادتهما الدالة عليهما.

يقول الله عز وجل في سورة "ق": ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٣).

أي: لا تتخاصموا بين يَدَيَّ هنا فما ينفعكم الخصام والجَدَل، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآيات والنذر حتى جاء هذا اليوم الذي لا مَفَرَّ لكم منه ولا محيص لكم عنه، وقد علمتم من كتبي المنزلة على أنبيائي ورسلي أنه لا يُبَدَّل حكمي ولا يُرَدَّ قضائي بتعذيب المجرمين، وما أنا بمنسوب إلى الظلم ولا الظلم ينسب إليّ، وما قَدَّمْتُهُ من

---

(١) الأنبياء: ٢٣. (٢) القصص: ٦٨. (٣) الآيات: ٢٧ — ٢٩.

الوعيد شاهد بذلك، وقد أخرتكم إلى أجل كان كافياً للتَّدَبُّرِ والتَّذَكُّرِ والامتثال؛ فاليوم لا تملك نفس لنفس شيئاً.

هذه المعاني وما إليها قد تضمنتها هذه الآيات، وهي في جملتها تقدِّم لنا قبل أن نلقاه جل شأنه عذراً ممهَّداً إلى حين، فإذا انتهى هذا الحين انقطعت الأعذار وتَقَطَّعَتْ بنا السبل، وانقسمنا إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ فقد جاء عَقِبَ هذه الآيات الثلاثة ما يدل على هذا الانقسام.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ (١).

ويفهم من هاتين الآيتين معنى آخر من معاني هذين الاسمين المقدسين، فقد قدّم المتقين بعظيم فضله إلى واسع رحمته، وأخَّرَ المجرمين بمحض عدله إلى دار عذابه ونقمته.

وقد جعل الله الديار أربعة وقدَّم بعضها على بعض:

فالأولى: دار الأجنة، وفيها يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ (٢).

والثانية: دار الدنيا، وهي دار الامتحان بالتكاليف الشرعية، ودار المحن والشقاء، سماها الله دنيا لِدُنُوِّهَا ودناءتها، ولكنها مع ذلك دار تُحْمَدُ لمن جعلها مزرعة للآخرة، ولم يشغل نفسه بحطامها، وهو الذي يشعر فيها بشيءٍ من السعادةِ عند كل عمل صالح يُقَدِّمُهُ لنفسه، ويجد في قلبه الطمأنينة كلما أكثر من ذكر ربه عز وجل. وهذا الشعور بالسعادة والطمأنينة نوع من الثواب الذي قدَّمَهُ، وجزء من الثواب الذي أخَّرَه.

يُفْهَمُ ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾(٣). فسبحان المقدم والمؤخر.

---

(١) الآيات: ٣٠ــ ٣١.   (٢) النجم: ٣٢.   (٣) آل عمران: ١٤٨.

وعلى الضد من ذلك تقديم جزء من العذاب الأخروي للكفار في هذه الدار.

يُفْهَمُ ذلك من قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [١].

والدار الثالثة: هي الدار البرزخية، وفيها تقديم لجزء من النعيم الأخروي للمؤمنين، وتقديم جزء من العذاب الأخروي للكافرين.

فالقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار . فسبحان المقدم والمؤخر.

والدار الرابعة: هي دار القرار، يتميز فيها الكفار عن الأبرار.

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [٢].

أي: افترقوا اليوم أيها المجرمون واعتزلوا المؤمنين وتأخروا عنهم، فهذا اليوم يومهم، يتقدمون فيه عليكم لنَيْلِ حسن الثواب من رب العباد؛ فقد قدَّموا لأنفسهم في حياتهم الدنيا عملاً صالحاً فكان هذا العمل قَدَمَ صدق عند ربهم، أما أنتم فقد أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فأخَّركم الله عن ساحة رحمته، فلا جزاء لكم إلا النار وبئس القرار. فسبحان المقدم والمؤخر.

ومن نظر في هذا الكون العجيب بعين الاعتبار، رأى فيه من الدلائل الباهرة على حكمة الله العليا في التقديم والتأخير، والخفض والرفع، والإعطاء والمنع، والإضرار والنفع ــ ما يحمله على الإيمان بوحدانيته في الرُّبُوبِيَّة والألوهية، ويدعره إلى التسليم التام بأنه جل شأنه قد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ووضع كل شيءٍ في موضعه من غير خلل في التقدير أو تفاوت في الإبداع والتكوين؛ فهو الذي أحسن كل شيء خَلَقَهُ، وهو الذي

---

(١) القلم : ٣٣.

(٣) يس : ٥٥ــ ٥٩.

أعطى كل شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى، وهو الذي يُقَدِّمُ ما حقُّهُ التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، وفق علمه المحيط وإرادته النافذة وحكمته البالغة.

ومن فاته التأمل في الكون الواسع الفسيح، فلينظر في خلق نفسه مستعيناً بقوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (١).

وقوله جل شأنه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٣).

وبقدر علم الإنسان يستطيع أن يَتَعَرَّفَ على حكمة الله في الخلق والتصوير، والتقديم والتأخير. ومن هنا كان العلم هو الرائد للعقل دائماً في المعارف كلها، فمن أوتي العلم فقد أوتي الحكمة، وفي الحكمة الخير كله.

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٤).

وأولو الألباب هم أصحاب العقول التي يتناهى إليها الفهم بواسطة العلم والتَّدَبُّر الأمثل في آيات الله القرآنية وآياته الكونية.

وبعد: فإن هذين الاسمين المُقَدَّسَين يرشدان كل من يريد الآخرة ويْرجو رحمة ربه إلى وجوب التسليم بقضائه وقدره، والرضا بكل ما يصيبه من نَصَبٍ ووصبٍ في هذه الحياة الدنيا؛ إيماناً منه بأن الله عز وجل إذا أَخَّرَه في شيء قَدَّمَهُ في شيء آخر، فإذا حَرَمَهُ من نعمة مَنَّ عليه بنعمة حَرَمَ منها غيره؛ ليتحقق العدل بين الناس جميعاً، وليتوفر كل واحد على خدمة الآخر؛ ابتغاء شيء يناله منه، فيكون بعضهم خَدَمًا لبعض بالضرورة.

وهذا ما يفيده قوله تعالى في سورة الزخرف:

---

(١) غافر: ٦٤ ، التغابن: ٣.

(٢) التين: ٤ .

(٣) الانفطار: ٦ـــ ٨.

(٤) البقرة: ٢٦٩.

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١).

فما من مخفوض في جهة إلا وهو مرفوع في جهة أخرى.

ويشعر المؤمن شعوراً نابعاً من أعماق قلبه ـ إذا أكثر من ذكر هذين الاسمين المقدسين ـ بأن الله عز وجل أرحم به من نفسه على نفسه، وأنه جل في علاه يختار لعبده ما فيه خيره في دنياه وآخرته إذا ما آمن به واتبع هداه.

وهذا الشعور يُوَلِّدُ عنده شعوراً آخر يجعله دائماً يرى النِّعَم ولا يرى غيرها.

أو بعبارة أخرى يرى المنح في المحن، فيشكر ربه تبارك وتعالى على كل حال. والشكر هو الإيمان الكامل والتوحيد الخالص، كما هو معلوم من مثل قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٢).

وقوله جل شأنه: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣).

وما دام الله هو المُقَدِّمُ والمُؤَخِّرُ فلنتوجه إليه بقلوبنا، فنحسن التوكل عليه ونُسَلِّمُ الأمر إليه، ونقف عند حَدِّنَا بالأدب معه متمسكين بحبله المتين سائرين إليه على صراطه المستقيم، آخذين في اعتبارنا دائماً أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً.

ولنضرع إلى الله خاشعين بهذين الاسمين المقدسين كلما ضاق علينا الأمر أو تقطعت بنا السُّبُلُ فنقول ما كان يقوله النبي ﷺ: "اللهم، اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المُقَدِّمُ وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير" (٤).

---

(١) الآية: ٣٢.   (٢) البقرة : ١٥٢ .   (٣) البقرة: ١٧٢.

(٤) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الأول والآخر والظاهر والباطن

عندما يذكر المؤمن ربه عز وجل بهذه الأسماء الأربعة المقدسة ـــ تعروه هزة شديدة، تأخذ بمجامع قلبه، وتملك عليه مشاعره من الأعماق، وتفتح له أبواباً واسعة في معرفة الله بنعوت جلاله وجماله.

وقد وردت هذه الأسماء الأربعة في آية واحدة من سورة الحديد لم تَرِد في سواها.

يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وقد تعددت أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية بحسب مراتبهم في العلم، ومشاربهم في العمل، ومذاهبهم في السلوك.

وأكثر أقوالهم مقبولة على اختلافها؛ لأن اختلافها من باب اختلاف التنوع لا من باب اختلاف التضاد؛ فهي تلتقي عند تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، ولا تشذ عن ذلك.

وسنقتصر هنا على ذكر أهمها وأرجحها من غير تَكَلُّفٍ ولا تعقيد. فنبدأ أولاً بذكر معنى الأول والآخِر فنقول:

الأول: هو الموجود بذاته وجوداً أزليًّا، لا يَحُدُّه زمان ولا مكان، فقد كان ولا شيء معه، فأراد أن يُعْرَفَ فخلق الخلق وعرفهم بنفسه فعرفوه، وسبحوا بحمده طوعاً وكرهاً بلسان الحال والمقال، وخضعوا لجبروته فلم يكن لهم معه إرادة ولا تدبير.

وهو الآخِرُ أبداً سرمداً ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ﴾.

وهو ـــ أيضاً ـــ أول ما تَجِبُ معرفته، وآخِر ما يجب الارتقاء إلى معرفته في السلوك؛ فمنه المبتدا وإليه المُنْتَهَى.

---

(١) الآية: ٣.

فالمخلوق ــ بالضرورة ــ يعرف خالقه بالفطرة التي فطره عليها، وترتقي هذه المعرفة كلما ارتقى العبد في العلم والسلوك، حتى ينتهي إلى حَدٍّ يقف عنده، فتنقطع به السبل عن المزيد من معرفته؛ لأن له طاقة محدودة لا يتعدَّاها، ومقاماً في العبودية لا يتجاوزه فسبحان من لا يعلم ذاتَهُ إلا ذاته.

وأما الظاهر والباطن فقد ذكروا في معانيهما عدة أقوال أكثرها صحيح مناسب لتأويل الآية التي سبق ذكرها.

فقد قالوا فيما قالوا: الظاهر هو الذي دلَّت كل الدلائل المادية والمعنوية على وجوده ووحدانيته في الذات والصفات والأفعال.

والباطن: هو الذي احتجب بقوة ظهوره عن سائر خلقه، فلا تدركه الأبصار، ولا تحيط بكنه جلاله وجماله البصائر. فسبحان من لا يُدْرِكُ كنه ذاتِهِ إلا ذاتُه.

فالله ظاهرٌ للعقول بالدلائل، وباطنٌ عن إدراك الحواس وتوهُّماتِ الخيال.

وقال الأزهري: قد يكون الظاهر والباطن بمعنى العالم بما ظهر وبطن؛ وذلك أن من كان ظاهراً احتجب عنه الباطن، ومن كان باطناً احتجب عنه الظاهر، فإن أردت أن تصفه بالعلم قلت: هو ظاهر باطن.

مثله قوله تعالى: ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي: لا شرقية فقط ولا غربية فقط، ولكنها شرقية وغربية.

وقيل: الظاهر: هو العالي على كل شيء. مأخوذ من قولهم: ظَهَرَهُ أي: علا على ظهره.

ومنه قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (١).

والباطن: هو الذي بطن كل شيء. أي: علم باطنه وخفاياه.

وقيل: الظاهر هو الغالب الذي لا يُغلب. يقال: ظهر عليه أي: غلبه وقهره.

---

(١) الآية: ٩٧.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1].

والباطن: هو من لا منجاة منه إلا إليه.

وهذه الأقوال كلها يجمعها ما ورد في دعاء النبي ﷺ.

فقد روى مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والترمذي في جامعه، وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه يقول:

"اللهمَّ، ربَّ السماوات وربَّ الأرض، ورب العرش العظيم، وربَّ كلِّ شيء، فالق الحب والنوى، مُنْزِلَ التّوراة والإنجيل والقرآن، أعُوذُ بك من شرِّ كلِّ دابَّة أنت آخذٌ بناصيتها. اللهم، أنت الأولُ فليسَ قبلكَ شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهِرُ فليس فوقَكَ شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونَكَ شيءٌ، اقضِ عنا الدَّيْن وأَغْنِنا من الفقر".

وليس هناك تفسير يعلو تفسير النبي ﷺ فقد قال: "أنت الأول فليس قبلك شيء" أي في الوجود؛ لأنك مُوجِدُ كلِّ موجود.

لا يحدك زمان ولا مكان ولا غيرهما مما يتصوره عقل أو يتوهمه خيال.

وقال: " وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيء " ، يعني يفنى كل شيءٍ وأنت الباقي سرمداً.

وقال: " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء " ، أي: ليس فوقك شيء في الظهور، أي: أنت أظهر من كل شيء؛ إذ ظهور كل شيء لا يكون إلا بك.

وقال: " وأنت الباطن فليس دونك شيء " ، أي: أنت أبطن من كل شيء؛ إذ كل شيء يَعْلَمُ حقيقَتَهُ غَيرُهُ وهو أنت، وأنت لا يعلم حقيقتك غيرك.

فهذه الأسماء الأربعة قد جمعت في طيَّاتها معاني سائر الأسماء الحسنى، فدلت بمنطوقها ومفهومها على أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ليس كمثله

---

(١) الصف: ١٤.

شيء من جميع الوجوه؛ فهو الأول الذي لا أولية لوجوده، والآخر الذي لا منتهى لسرمديته، والظاهر الذي لا قدرة لمخلوق مع قدرته، والباطن الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها، كما ذكرنا.

ومن أراد أن يَتَعَرَّفَ على معاني هذه الأسماء الأربعة أكثر وأكثر، فليتدبر في الآيات الأول من سورة الحديد؛ فإنها أشارت إلى هذه المعاني ودارت في فلكها.

والقرآن الكريم يُفَسِّرُ بعضه بعضاً، فما أُجْمِلَ في آية فُصِّلَ في آية أخرى، وما أطلق في آية ربما تجده مُقَيَّداً في آية أخرى.

فمن أراد أن يتعرف الحقائق ويقف على دقائقها، فعليه بتدبر القرآن كله من أوله إلى آخره بقدر طاقته البشرية، فإنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد: فإن من أكثر من ذكر الله تبارك وتعالى بهذه الأسماء الأربعة المقدسة ــ ثبت قلبه على التوحيد الخالص، وطهر من الشبهات التي يُلقيها الشيطان فيه على حين غفلة منه، وسلم من دوافع الشر كلها ونزوات الهوى الجامح بأسرها، حتى يصير هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ من ربه عز وجل.

جاء في سنن أبي داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت: ما شيء أجده في صدري؟، قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. فقال لي: أشيء من شك؟ قال: فضحكت. فقال: ما نجا من ذلك أحدٌ، فإذا وجدت في نفسك شيئاً فقل:﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولعل أبا الزميل ــ رحمه الله ــ جاءه الشيطان وقال له: من خلق السماوات؟، فقال: الله خلقهن. فقال: ومن خلق الأرض؟، فقال: الله خلقهن. وظل يقول له: من خلق كذا وخلق كذا، حتى قال له: ومن خلق الله؟، فاستعظم ذلك في نفسه حتى أبى أن يورده على لسانه؛ حياءً من الله وخوفاً منه، فأوصاه حبر

الأمة رضي الله عنه وعن أبيه أن يقرأ هذه الآية، ويستحضر معناها في قلبه؛ ليطرد عنه هواجس النفس ووساوس الشيطان، فكانت هذه الوصية من أعظم الوصايا النافعة في تطهير القلب من كل ما يُعَكِّرُ صفو الإيمان وجلوة اليقين.

وقد اغتنمها أهل العلم والمعرفة وانتفعوا بها أَيما انتفاع، وعَبَّرُوا عما فهموه من معاني هذه الأسماء بكلمات لها في قلوب المؤمنين وقع عظيم.

فهذا هو ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه يقول في حِكَمِه:

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟

وهي عبارات تدل على روح خيرة، ومشاهدة صادقة، فالله سبحانه ظاهر في آثار صنعه، بادٍ في مظاهر خلقه.

وصدق الشاعر الذي يقول:

لقد ظَهَرْتَ فما تخفى على أحد ... إلا على أكمهٍ لا يَعْرِفُ البَصَرَا

لكن بَطَنْتَ بما أظهرت محتجباً ... وكيف يُعْرَفُ من بالعزةِ استترا

وما أحسن قول القائل في مناجاته: "إلهي، ما أقربك مني وما أبعدني عنك، يا قريبُ أنت القريب وأنا البعيد، قربُك مني آيسني من غيرك، وبعدي عنك ردني للطلب من غيرك، فكن لي، وقربني منك بفضلك حتى استغنى بطلبك عن طلب غيرك.

إلهي، كيف يُستَدَل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ وهل يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟

متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلهي، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم يجعل لك من حبه نصيباً.

عَجِبْتُ لمن يَبْغِي عليك شَهَادَةً   وأنتَ الذي أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَـــاهِدِ

وهذه المناجاة تفسير مشرق، مَبْنِيٌّ على فهم دقيق لقوله جل وعلا:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١).

---

(١) فصلت: ٥٣.

الوالي "جل جلاله"

من ذَكَر الله عز وجل بهذا الاسم المُقَدّس، أَحَسّ بالأمن يملأ شغاف قلبه، وشعر بأنه محاط بعناية الله وحفظه، مستظل بعدله المطلق وتدبيره المُحْكم، راضٍ كل الرضا بقضائه وقدره.

وذلك كله يَنْبُعُ من فهمه الدقيق لمعانيه اللائقة به. فما معنى الوالي، وما الفرق بينه وبين الولي؟

أقول وبالله التوفيق: الوالي في حق الله تعالى: هو من له المُلْكُ والأمر والتدبير، والعلم التام بما كان وبما يكون وبما هو كائن، وجميع الخلق مفتقرون إليه وهو غنيٌّ عنهم، نواصيهم بيده، ماضٍ فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

والوالي والولي، كالقادر والقدير، ليس أحدهما بأبلغ من الآخر بالنسبة لله عز وجل، بغض النظر عما تقوله معاجم اللغة.

والفرق بينهما يظهر من وجوه دقيقة هي أن معنى الوالي ما قد ذكرنا، والولي: هو المُحِبُّ الناصر والمُعِينُ، وحبه يظهر في هدايته للمؤمنين وإحسانه لهم، ونصرتُهُ تظهر في أنه يقمع أعداء الدين، وينصر أولياءه المؤمنين.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١).

أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

والولي يُشْعِرُ المؤمن بولاية الله الخاصة به، والوالي يُشْعِرُهُ بالولاية العامة.

فإذا قال العبد: يا وَلِيُّ، يَعْنِي: يا مَن أحببتني وأحببتك، وأَفَضْتَ عليّ من رحماتك وبركاتك ما أعانني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وَقَوَّيْتَ ظهري على الجهاد في سبيلك، ومَنَحْتَنِي النصر من عندك.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

وإذا قال: يا وَالِي، فإنه يَعْنِي: يا من مَلَكْت كل شيء، وحكمت في كل شيء بحكمك الذي لا يُرَدُّ.

وقد قلت في حديثي السابق عن اسم الوَلِيّ: الولاية نوعان: عامة، وخاصة.

فهو يتولى عباده جميعاً ولاية عامة بعنايته ورعايته ورحمته، ويتولى المؤمنين ولاية خاصة ذات تأثير خاص، بَيَّنَهُ الله عز وجل في مواضع عدة من كتابه، وذكرت من الآيات ما يدل على ذلك.

وقد قلت هناك: إن ذكر الله عز وجل بأسمائه الحسنى نعمة مُتَنَوِّعَةٌ، يَتَقَلَّبُ فيها الذاكرون بين ثمارها وآثارها.

وكل اسم له في القلوب حلاوة وطلاوة وتأثير خاص، يشفي مرضاً من أمراضها، ويُلْقِي فيها حجة تَزِيدُ في إيمانها، فتهتدي بكل اسم إلى سبيل من السبل الموصلة إليه جل شأنه، فيترقي الذاكر منهم في سُلَّمِ الكمال البشري إلى غاية محمودة في الأولين والآخرين.

والوالي اسم لم يَرِدْ ذكره في القرآن الكريم، ولكنه ورد في سلسلة الأسماء الحسنى التي تضمنها الحديث الصحيح، الذي رواه البخاري وغيره، وأغنى عن ذكره ما في معناه كالولي، والحكَمِ، والعدل، وغيرها من الأسماء الدالة على المُلْكِ والرعاية والتدبير.

وقد وردت كلمة الوالي منفية في قوله جل وعلا في سورة الرعد: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ (١).

وهي هنا بمعنى الملجأ والمنقذ. أي: وما لهم من دونه من ملجأ يلجأون إليه، ولا مُخَلِّصٍ يدفع عنهم ما أنزله بهم من عذاب.

فهذه الآية تنفي ولاية غير الله ، وتثبت ولاية الله وحده عز وجل.

---

(١) الآية: ١١.

هذا. وقد ورد في القرآن اسم المولى، ولم يَرِدْ في الحديث الذي ذكرت فيه أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون.

ومعناه: السيد المطاع، والناصر والمعين لأوليائه.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١).

وقال في سورة الحج: ﴿ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٢).

وقال في سورة محمد: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٣).

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤).

وقال فيها أيضاً: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ... ﴾ (٥).

فمن عَدَّ هذا الاسم من الأسماء الحسنى، فقد أصاب؛ لأن أسماء الله كلها حسنى، وهي أكثر من تسعة وتسعين، كما ذكر كثير من العلماء، إلا أن التسعة والتسعين المذكورة في الحديث أغنت عن ذكر ما سواها على الجملة.

والولي والوالي معانيهما مؤتلفة متلازمة، وإن كان لكل منهما في الذكر حلاوة وسر وأثر.

والوالي اسم يظهر فيه بوضوح تام معنى الولي والمولى. فمن لم يَكُن وَلِيًّا ولا مولى لا يكون والياً.

وقد عرفنا أن الولي والمولى هو المحب والناصر والمعين، وعرفنا أن الوالي هو المالك المدبر الحكيم في أفعاله العدل في حكمه وقضائه، فهو جل شأنه متصف بهذه الأوصاف جميعاً؛ لأنه الذي يوالي عباده بالإحسان، ويمدهم بفيوض الامتنان، ويُثَبِّتُهُم عند نوازل الامتحان، ويبسط عليهم جناح الرحمة

---

(١) الآية: ٤٠.

(٢) الآية: ٧٨.

(٣) الآية: ١١.

(٤) الآية: ٢.

(٥) الآية: ٢.

والحنان. وإذا علم العبد أن الله هو الحاكم المطلق، وأنه لا راد لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ــ اتخذه ولِيًّا يضرع إليه في قضاء الحاجات ودفع المُلمَّات، واستعان به على نفسه وشيطانه وهواه ودنياه، وبدأ المسير إليه بالتوبة والإنابة، واتَّخَذَ لنفسه سُلَّماً من الأعمال الصالحة يَرْقى عليه إلى منازل القرب ومراتب الحب.

وجدير بمن تولّى الله أمره أن يأخذ بيده من غواشي الظلام إلى سرادقات النور والإكرام.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١).

والذي يعيش في رحاب هذا الاسم الجليل ــ لا يوالي من الناس إلا من صَفَتْ سريرته، وحسنت أحواله، وسمت خصاله، وكان ممن تولاهم الله من عباده المؤمنين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢).

وفي ظل هذا المعنى قال ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِه:

"لا تصحب من لا يُنْهِضُكَ حاله ولا يدلك على الله مقاله".

وإذا امتحن الله عبداً بولاية وخوّله سلطاناً ــ فعليه أن يراعي حقوق العباد، ويحكم بالحق، ويحسن اختيار البطانة التي تحيط به ممن يعينه على العدل ويجنبه الظلم؛ امتثالاً لقول الله تعالى لداود ــ عليه السلام ــ:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ

---

(١) البقرة: ٢٥٧.   (٢) الممتحنة: ١.

الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١).

ومن واجب المؤمن أن يكون واليًا على نفسه، يسوسها بالحكمة، ويعمل على تروضيها وتهذيبها، حتى يجتاز بها مراتب سلوكها، من نفس أمَّارة بالسوء، إلى نفس لوامة، إلى نفس ملهمة، إلى نفس مطمئنة.

وإذا أحسن الإنسان سياسة نفسه، صلَحَ لسياسة غيره من الناس.

وبعد ، فإن المؤمن الحق من يُسْلِمُ نفسه لخالقه ومولاه، فلا يسأله عما يفعل؛ ثقة في حكمته وعدله، ويُخْلِص له في القول والعمل؛ طمعاً في عظيم فضله وواسع رحمته، ويدعوه رَغَبًا وَرَهَبًا آناء الليل وآناء النهار؛ فالدعاء مخ العبادة وروحها، فيقول في دعائه بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه:

"اللهم، إن حسناتي من عطائك، وسيئاتي من قضائك، فَجُدّ اللهم بما أعطيت على ما به قضيت، حتى تمحو ذلك بذلك، اللهم، اجعلنا مع من أطاعك، ولا تجعلنا مع من عصاك، اللهم، لولا عطاؤك لكنت من الهالكين، ولولا رحمتك لكنت من الخاسرين، وأنت أجل وأعظم وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك، أو أن تعصى إلا بحكمك وقضائك، وأَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك؛ فأنت ولِيِّ في الدنيا والآخرة، توفَّنِي مسلماً وألحقني بالصالحين في أعلى علِّيِّين؛ إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين".

---

(١) ص: ٢٦.

المتعالي "جل جلاله"

مَنْ عرف الله عز وجل بأسمائه الحسنى وأوصافه العلى، وأكثر من ذكره في ليله ونهاره باسمه المتعالي ـــ وجد نفسه عاجزاً كل العجز عن الثناء عليه بما هو أهله، مهما بالغ في ذكر محامده وتَتَبُّعِ نعمه عليه، وقام بشكره عليها في جميع أوقاته بلا انقطاع.

وإذا استقر في أذهاننا ذلك عرفنا لُغَوِيًّا معنى هذا الاسم فقلنا بقلوبنا وألسنتنا: هو الذي جَلَّ وعَظُمَ عن كل ثناء، فلا يُوَفِّيه أحدٌ حقَّهُ منه أبداً، مهما عَظُمَ شأنه عنده عز وجل.

ولذلك كان النبي ﷺ يقول في ثنائه: "اللهم، إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك" (١).

وهذا الثناء هو منتهى ما يستطيع العبد أن يلهج به بالغاً ما بلغ من مقامات الحب ومراتب القرب. وهو منتهى الفرار إليه جل جلاله.

والفرار إليه على ثلاث مراتب:

فرار من الكفر إلى الإسلام، وهذا الفرار يعتبر خطوة على طريق المعرفة.

وفرار من المعاصي إلى الطاعات، وهذا الفرار يعد رُقِيًّا إلى سُلَّمِ الكمال البشري.

وفرار منه إليه، وهو منتهى الكمال البشري، وذلك مقام النبيين، وقد يحاكيهم فيه إلى حَدٍّ ما الصِّدِّيقون، وهم الذين صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وراقبوه في جميع تصرُّفاتهم، وقَصَرُوا هِمَمَهُم على ابتغاء مرضاته، ووهبوا أنفسهم وأنفاسهم لخالقهم ومولاهم؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

---

(١) رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها.

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

ومن معاني هذا الاسم أنه المتعالي عن الأنداد والأضداد ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فقد تعالى بجلاله وعظيم فضله وواسع رحمته عن الوجود كله.

وعلوه منزه عن المكان والزمان، فلا يقال: هو الموجود في كل الوجود إلا على سبيل المجاز.

ولا يقال: إنه في السماء، إلا إذا أردنا العلو المطلق؛ فقد كان الله ولا شيء معه؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، أراد أن يُعْرَفَ فخلقَ الخلقَ وعَرَّفَهم بنفسه، فبه عرفوه فعبدوه طوعاً وكرهاً.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢).

والفرق بين العلي والمتعالي في المعنى أن العلي: هو الذي لا تدرك ذاته ولا يحيط الخلق متفرقين أو مجتمعين بصفة من صفاته، ولا يَزِيدُهُ تعظيم العباد عُلُوًّا؛ إذ هو عالٍ بذاته وصفاته على سائر مخلوقاته، غنَي عنهم وهم الفقراء إليه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم.

والمتعالي: هو العلي بذاته وصفاته وأفعاله عن سائر خلقه، المنزه عن إفك المُفْتَرِين وغرور المُغْتَرِّينَ، القاهر بجبروته كل مَن تُحَدِّثُهُ نفسه أن ينازعه في صفة من صفاته، أو يدَّعي لنفسه شيئاً من المكانة في هذا الوجود اكتسبها بقدرته، كقارون الذي قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾. وكفرعون الذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى ﴾. وكالنمروذ الذي قال: "أنا أحيي وأميت".

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٣).

---

(١) الأنعام: ١٦٢ــ ١٦٣. (٢) الإسراء: ٤٤. (٣) الإسراء: ٤٢ــ ٤٣.

فهو جل شأنه العلي الأعلى المتعالي، ذو العُلا والعَلاء والمعالي.

وأسماؤه الحسنى يؤكد بعضها بعضاً، فهي تأتلف في معانيها وإن تَنَوَّعَتْ في ألفاظها.

وقد ورد هذا الاسم في موضع واحد من الكتاب العزيز، وذلك في قوله جل شأنه من سورة الرعد: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (١).

ولكن ورد فيه الكثير من الآيات التي تشير إلى علو الله وعظمته وعزته وسلطانه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ (٢).

والأعلى: هو صاحب العلو المطلق، فلا يقال هناك بالنسبة له جل شأنه: عالٍ وأعلى، فليس أحدٌ من عباده له صفة العلو في أي شيء، مهما ارتفع شأنه وعز جاهه بين الناس، فهو أولاً وآخراً عبدٌ ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا، فقير إلى خالقه ومولاه.

فأفعل التفضيل ليس على بابه، كما يقول علماء اللغة؛ فالله عز وجل لا يشترك معه أحدٌ في صفة من صفاته فيكون هو جل شأنه أفضل منه فيها.

ويقاس على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾؛ إذ ليس في الوجود خالق سواه.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾؛ إذ ليس هناك رازق سواه.

وقوله جل في علاه حكاية عن موسى ـــ عليه السلام ـــ: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٤).

---

(١) الآية: ٩.

(٢) الليل: ١٩ــ ٢٠.

(٣) الأعراف: ١٥١.

(٤) المؤمنون: ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [1].

وقد يقال: إن كثيراً من العباد رحماء، فيكون أفعل التفضيل على بابه، أي: أن رحمتهم دون رحمته.

فنقول: إن رحمة الخلق جميعاً لا تساوي شيئاً في رحمته عز وجل، ورحمتهم هي قَبَسٌ من رحمته، فلا تكون هناك مفاضلة بينه وبينهم البتة من أي وجه، فيكون أفعل التفضيل حينئذ دالاً على أن الله هو الرحيم بخلقه دون سواه.

وإذا فهم المؤمن معنى هذا الاسم المقدّس وأكثر من ذكر الله به ــ اطْمأن قلبه وخشعت جوارحه، وكفكفت نفسُهُ من غَلَوَائِها وغرورها، وتواضع لمن خلقه وسواه وهو يعلم مُتَقَلَّبَهُ ومثواه، وارتفعت همته إليه جل شأنه، وسلك السبل التي هداه إليها في كتبه وعلى ألسنة رسله، وتأدَّب معه في سرِّه وعلانيته.

ولا يتم له ذلك إلا بسياسة النفس وتربيتها وتأديبها وتهذيبها.

والأدب مع الكبير المتعال هو الطريق الآمن إلى مرضاة الله عز وجل؛ لأن الله تبارك وتعالى غني عَنَّا وعن عبادتنا، فلا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا، فلا نتمكن من طلب مرضاته إلا بالتأدب في حضرته، ولن نتمكن من التأدب في حضرته إلا بمعرفة نعوت جلاله بقدر طاقتنا البشرية، وقد عرَّفنا بها عن طريق هذه الأسماء الحسنى؛ فإن كل اسم منها يذِّكرنا بالجانب الذي يدُلُّ اللفظ عليه بوجه خاص، وبجميع الجوانب الأخرى الدالة على كمال الموصوف بوجه عام.

فبأي اسم ذكر العبد ربه بخشوع وخضوع، دلَّهُ هذا الاسم على أوصاف خالقه ومولاه كلها بلا استثناء.

وهذا أمر غايةً في العَجَبِ؛ لأن الوصف بالنسبة للمخلوقين يدل فقط على ما يحتمله لفظه من المعاني.

أما بالنسبة للخالق عز وجل فهو يدل بادئ ذي بدءٍ على أحديَّته في الذات

---

(١) المؤمنون: ١١٨.

والصفات والأفعال، مع ما يحتويه لفظه من المعاني التي لا تخرج عن الأحدية بحال.

﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّامًّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١).

أي: عظِّمه في نفسك ما استطعت تعظيماً يملك عليك مشاعرك كُلَّهَا، ويأخذ بمجامع قلبك من الأعماق.

كبِّرْهُ تضرُّعاً وخيفة، وسبح بحمده في كل ما تراه من عجيب خَلقه وبديع صنعه.

ففي كل شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه الواحـدُ

وقل في دعائك: "اللهم، إنك لم تُشْهِدْنَا على خلق أنفسنا، ولا على خلق غيرنا، ولم تتخذ أحداً من المضلين عضداً، ولم يكن لك شريك في الملك، ولم يكن لك ولي من الذل، فأنت الغني المغني المانع، وأنت الضار والنافع، لك الأمر كله، وبيدك الخير كله، وأنت على كل شيء قدير، ولك الثناء الحسن الجميل.

نسألك اللهم، عزًّا لا ذل بعده، وغنىً لا فقر معه، وأُنساً لا كدر فيه، وأمنا لا خوف بعده، وهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واحشرنا يوم نلقاك مع النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الإسراء: ١١٠ ــ ١١١.

البَرُّ "جل جلاله"

عندما يذكر المؤمن ربه عز وجل بهذا الاسم المقدس، وهو على علم بمعانيه اللغوية ــ يشعر من أعماق قلبه بأنه مغمورٌ بِنِعَمِ الله عليه، فلا يَسَعُهُ إلا أن يَتوجَّه بالشكر إليه بكل ما يستطيعه من حَمْدٍ وثناء، ثم يجد نفسه عاجزاً كل العجز عن الوفاء له بالشكر على أصغر نعمة في نظره، فيكون اعترافه حينئذ بالعجز عن الشكر هو عين الشكر.

ولكي يتذوق المؤمن حلاوة الذكر بأسماء الله الحسنى، عليه أن يقف على معانِيْهَا أولاً؛ فإنه إذا وقف على معانِيهَا واستوعب ما ترمي إليه المعاني من المقاصد والمرامي ــ تَمكَّن من استحضار قلبه أثناء الذكر، فوجد حلاوة الإيمان تتزاحم عليه وتزداد شيئاً فشيئاً حتى تشترك معه سائر الجوارح، فلا يكون اللسان وحده هو الذي يذكر الله، بل يكون كل شيء فيه مشغولاً بذكره عز وجل.

ولهذا عقدنا العزم على بيان معاني ما علمناه من أسماء الله الحسنى بأسلوب يخلو من التكلف والتعقيد.

ونحن الآن مع هذا الاسم المقدس ننظر في معانيه اللغوية بقدر طاقتنا البشرية، فنرى أن له ثلاثة معان رئيسة:

المعنى الأول: الاتساع في البرِّ من غير حدود ولا قيود، فقد عظمت آلاؤه، وعمَّتْ بركاته، ووسعت رحمتُه كلَّ شيء.

وهذا المعنى هو أوسع المعاني دلالة وأجمعِها لما بعده.

ونعم الله لا تُعَدُّ ولا تحصى، منها الظاهر الجَلِيُّ، ومنها المستتر الخَفِيُّ، ومنها الحاضر العاجل، ومنها الغائب الآجل، ومنها ما تدركه العقول، ومنها ما استأثر الله بعلمه وجعل العقول قاصرة عن فهمه.

يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١).

والإسباغ معناه: إتمام النعمة بمقتضى الحكمة.

ونعم الله أصولها في الدنيا ثلاثة هي: الإيمان، والأمن، والرخاء.

أما الإيمان فهو أصل أصولها في الدنيا والآخرة.

والأصل الثاني يتبعه وينشق منه؛ فلا أمن بلا إيمان.

يقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢).

والظلم هو الشرك.

والأصل الثالث يَتْبَعُ الأصل الثاني مع وجود الأول؛ فلا رخاء مع انعدام الأمن، كما هو معلوم.

والله عز وجل يَبَرُّ الناس جميعاً بما يحتاجون إليه من الأرزاق.

ويَبَرُّ المؤمنين بِرًّا خاصاً بهم، لا يتعداهم إلى سواهم، وهو ما يسمى بالرحمة الخاصة.

ولهذا يُعَرِّفُ الخواصُ هذا الاسم بتعريف يُعَبِّرُ عن أحوالهم مع الله، وعن مَعِيَّتِهِ لهم وإحسانه إليهم فيقولون في تعريفه: هو الذي يخص أولياءه بولايته، ويذيقهم حلاوة مناجاته.

ويقولون أيضاً: هو الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان.

وهذان المعنيان جزء من المعنى الأول لا ينفك عنه ولا يفارقه.

المعنى الثاني: الاستجابة والقبول، مأخوذ من قولهم: بَرَّ حجُّهُ، أي: قُبِلَ منه واستُجِيبَ له فيه.

ومن قولهم: أَبَرَّ اللهُ قسمَهُ أي: أجابه إلى ما أقسم عليه.

---

(١) لقمان: ٢٠.

(٢) الأنعام: ٨٢.

وفي الحديث: "رُبَّ أشعَثَ أَغْبَرَ ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَه له، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ" (١).

فالله عز وجل بَرٌّ، يقبل من عبده العمل الصالح ويضاعف له الأجر فيه، وإن كان فيه ما فيه من القصور والنقص.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢).

المعنى الثالث: الصِّدق في الأقوال والأفعال. مأخوذ من قولهم: بَرَّت يمينُهُ. أي: صَدَقَتْ. وبَرَّ في قوله: صَدَقَ فيه.

والله عز وجل بَرٌّ صادق في وعده وخبره، لا ريب في ذلك عند كل مؤمن.

واقرأ ــ إن شئت ــ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٣).

أي: وعد هو الصدق نفسه، وذلك من تمام بره وإحسانه بمَن بَرَّ وأحسن من عباده؛ والجزاء من جنس العمل.

يقول الله عز وجل: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ ﴾ (٤).

وقد جاء هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة مقترناً بـــ "الرحيم".

فكان كلاهما يعبِّرُ عن الفيوضات الرّبّانية التي يغمر الله بها عباده المؤمنين في الدنيا وفي جنات النعيم.

يقول الله عز وجل في سورة الطور حكاية عن أهل الجنة في الجنة:

---

(١) رواه البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه بسند صحيح.

(٢) فاطر: ٢٩ــ ٣٠.

(٣) الأحقاف: ١٦.

(٤) الرحمن: ٦٠.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَــاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْـــفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(١).

أي: أقبل بعضهم على بعض يسأل كل منهم أخاه عما كان عليه في الدنيا، حتى نال ما نال في الجنة، فيكون الجواب متقارباً، يتمثل في خوفهم من عذابه وطمعهم في رحمته، وعظيم ثقتهم بفضله وحسن توكلهم عليه، وإفراده بالعبادة والضراعة، وشهادتهم بأنه جل شأنه كان بهم رحيماً؛ إذ وَفَّقَهُمْ لعبادته، وأعانهم على ذكره وَخَصَّهُمْ بولايته، وأنزلهم منازل الأبرار في جنة عرضها السماوات والأرض، وصَدَقَهُمْ وعده، وغمرهم بجوده وإحسانه.

واقرأ إن شئت في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٢).

وإذا أدرك العبد معنى هذا الاسم، عاش في ظله في نعمة سابغة، قريرةٌ عينه بما وهبه الله من عطاء، وما منحه من هدى، وما أفاض عليه من كرم.

ويتعلم من ذلك كيف يكون شكوراً على النعماء، مشاركاً غيره في السراء والضراء.

إن الله جل وعلا يعطي بغير مَنٍّ، ويمنح بدون مقابل، فليتعلم العبد من ذلك أن يكون إحســانه لغيره كذلك، ويقتدي بما يهدي إليه مضمون قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (٣).

فكان جزاؤهم من الله وحده في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

---

(١) الآيات: ٢٥ــ ٢٨.

(٢) الزمر: ٧٣ــ ٧٤.

(٣) الإنسان: ٨ــ ٩.

وعلى المؤمن أن يتأدب مع الله عز وجل ببِرِّ نفسه أولاً، وذلك بالإقبال على تأديبها وتهذيبها وتغيير صفاتها السيئة بأخرى حسنة، وإن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وأساء إليها في الدنيا والآخرة.

ثم يَبَرُّ والديه، فيحسن إليهما ويعطف عليهما، ويكون لهما خير معين في أمور الدين والدنيا.

ثم يَبَرُّ أقرباءه وجيرانه وأصدقاءه وسائر من يعرف من المؤمنين وغيرهم ممن لا يقاتلنا في الدين ولا يعين أحداً على قتالنا. وليثق كل الثقة أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وقد جمع الله أنواع البر كلها في آية واحدة من سورة البقرة فقال: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١).

والبَرُّ من المؤمنين هو الذي يجتهد في الطاعات، وينأى بجانبه عن السيئات، ويسرع في إجابة دعوة الحق، ويؤثر الخير والبر والصدق، ويتضرع إلى الله بقوله جل شأنه:

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢).

وهؤلاء الأبرار الذين يتمنى كل مؤمن أن يُحشر معهم ــ هم الذين عرفوا الله عز وجل معرفة أهلتهم لمعرفة أنفسهم، فأيقنوا أنه هو الغني عنهم وهم الفقراء إليه، فطمعوا في برِّه وجوده وإحسانه، وسألوه ــ وهم موقنون بالإجابة

---

(١) الآية: ١٧٧.

(٢) آل عمران: ١٩٣ــ ١٩٤.

ـــ بأسلوب يُعَبِّرُ عن صدقهم في حبه وإخلاصهم في توحيده، وحاولوا جهدهم أن يعترفوا بعجزهم عن شكره؛ ليكون اعترافهم بالعجز عن الشكر هو عين الشكر كما ذكرنا .

ويعجبني في ذلك ما قاله أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "أشكرك على أنعمك التي لا أحصيها شكراً يقتضي زيادتها ويستدعيها، مع أني عاجز عن شكرك والقيام بواجب ذكرك؛ لأني إن عرفت الشكر فبالعقل الذي أعطيت، وإن تكلمت فبالنطق الذي آتيت، وبالقوة التي أوليت، فأين الشكر الذي أضيفه لنفسي وكل ذلك بك ومنك!!

التَّوَّاب "جل جلاله"

سمى الله عز وجل نفسه التّواب لِيَنْزِعَ من نفوس عباده اليأس من رحمته، ويدخلهم في حضرة قدسه وروضة أنسه، طيِّبين مُطَهَّرِينَ من آثار ذنوبهم، متى تابوا إليه توبة نصوحاً وبدءوا السير إليه مخلصين له الدين، فهو ربهم الذي خلقهم من العدم، وَرَبَّاهُم على موائد الكرم، وأسبغ عليهم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة، وهم عباده الفقراء إليه، كثيراً ما تدفعهم طبيعتهم المادية إلى ارتكاب المعاصي عمداً تارة وخطأً تارة أخرى، ولو شاء الله عز وجل لعاقبهم فور وقوعهم فيها، فأذاقهم أليم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولكن سبقت رحمته عذابه؛ فَأَمْهَلَهُمْ مدة كافية لمحاسبة النفس وكبح جماحها عن الهوى.

عن أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليل ليتُوب مسيءُ النهار، ويبسُطُ يَدَهُ بالنهار ليتوب مسيءُ الليل، حَتَّى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها" (١).

فهو التواب دائماً وأبداً على من تاب إليه وأناب، مهما كثرت ذنوبه وعظُمت خطاياه، فرحمته وسعت كل شيء، وعفوه لا يقف عند حد.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢).

فهذه الآيات الثلاثة تفيد بعمومها أنه لا يستعصي على الغفران ذنب، وأن الله يعفو ويصفح عن كل من توفَّرَ فيه شرطان: الإنابة والاتباع.

والإنابة: هي التوبة التي لا رجوع فيها إلى الذنب.

والاتباع: هو السير على المنهج السَّوي، الذي هدانا إليه ربنا عز وجل في

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الزمر: ٥٣ــ ٥٥.

كتابه المنزل على خير خلقه محمدٍ ﷺ، فهو خير كتاب أُنزِل على أعظم نبي أُرسِل لخير أمة أُخرِجت للناس، هي الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، هي الأمة التي تقول ضارعة إلى الله صباح مساء: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (١).

والأبرار: هم الذين يتوبون إلى الله في جميع أوقاتهم؛ لشعورهم بكثرة ذنوبهم وتقصيرهم في حق ربهم عز وجل، فكلما ارتقوا بالتوبة درجة أحسوا بعقدة الذنب أكثر وأكثر، ولا يزالون في التَّرقِّي مع مصاحبة التوبة إلى ما شاء الله؛ ولذا قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وهذا رسول الله ﷺ وهو في الذروة العليا من الكمال البشري يقول: "إنه ليُغَانُ على قَلْبِي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" (٢).

ومراده ﷺ بقوله: "إنه لَيُغَانُ على قلبي" الغفلة في بعض الأوقات عن الذكر الذي كان من شأنه الدوام عليه، فإذا غفل عنه، أو منعه مانع من مواصلته – عَدَّ ذلك في حقه ذنباً، فاستغفر الله منه.

ولهذا كان من الواجب على العالم وكل من يقتدي به أن يكون أحرص على التوبة والاستغفار من غيره.

ولن يُحْشَرَ مع النبي ﷺ ويمشي في ركابه يوم القيامة ـ إلا أهل التوبة النصوح؛ فهم أهل التقوى وأهل المغفرة، وأهل الذكر والصحوة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

---

(١) آل عمران: ١٩٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) التحريم: ٨.

والتوبة النصوح: هي الخالية من كل ما يعكِّرُ صفوها، والمستوفية لأركانها والشروط التي سيأتي ذكرها.

يقال: لَبَنٌ نصوح وعسل نصوح. أي: خال من الخلط والغش. ومنه قوله ﷺ: "الدين النصيحة" أي: الدين هو الإخلاص لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم.

والتوبة النصوح أركانها خمسة:

الركن الأول: هو العلم بخطورة الذنب واستعظامه في النفس، مهما بدا لغير المتأمل أنه صغير. فمن لم يعلم بخطورة الذنب، لا يتمكن من التوبة منه على الوجه الأكمل.

وقد قال أهل التقوى والذكر: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر من عصيت.

وقد وصف الله أرباب التوبة النصوح بهذا الشعور فقال في سورة آل عمران: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وهذا الشعور بخطورة الذنب جعلهم يراقبون الله عز وجل في جميع تصرفاتهم، ودفعهم إلى فوريَّةِ التوبة عقب الوقوع في الذنب، وحال بينهم وبين الإصرار عليه وهم يعلمون بأن الذنب مهما بدا صغيراً فإنه معصية للمنتقم الجبار.

وبهذا الشعور وما يتبعه من توبة واستغفار استحقوا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٢).

الركن الثاني: هو التوبة من التوبة؛ دفعاً للغرور والغفلة؛ فإن الشيطان يوهم التائب أحياناً بأنه قد وصل إلى الله بتوبته هذه، وصار أفضل من فلان

---

(١) الآية: ١٣٥.   (٢) آل عمران: ١٣٦.

وفلان ممن لم يتوبوا بعد، فيتعالى عليهم، ويتظاهر بالصلاح والتقى حين يلقاهم، ويُمَنِّي نفسه أنه من أهل الجنة لا محالة، إلى آخر ما يفعله الشيطان بأمثاله من المغريات، وما يلقيه في قلوبهم من الأماني الباطلة، وهو ذو فن عظيم في صَدِّ الناس عن سبيل الله عز وجل، وله في الغواية خطوات وخطرات. نسأل الله السلامة منها.

يقول الله عز وجل في سورة النور: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

وهو خطاب لجميع المؤمنين بلا استثناء، خطاب لمن تاب منهم ولمن لم يتب على السواء، كما يدل عليه لفظ "جميعاً"، فهو توكيد يشمل بعمومه جميع أفراد المؤمنين، كما قال علماء اللغة.

وقد علمت في الركن الأول أن الرسول ﷺ كان يتوب ويستغفر في اليوم مائة مرة، أي كان يكثر من الاستغفار بلا حد، فذكر المائة دليل على الكثرة، جرياً على لغة العرب إذا أرادوا المبالغة في الكثرة والتكرار.

الركن الثالث: هو الندم على فعل المعاصي، وعلامة الندم أن تفيض عيناه بالدمع؛ لشعوره بالتفريط في حق الله عز وجل؛ فإن لم تسعفه عيناه بالدمع تباكى حتى يعلمها البكاء، فإن الذنوب تهلكة للدين وخسران مبين في الدنيا والآخرة.

"والندم توبة" كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن ماجة وغيره.

الركن الرابع: العزم المؤكد على ترك الذنوب وقضاء ما فات من الواجبات بقدر الطاقة.

فمن تاب وهو ينوي العودة إلى الذنب، كانت توبته ذنباً آخر يضاف إلى ذنوبه؛ لأنه حينئذ يكون كالمستهزئ بربه، ولا شك أن هذا من أكبر الذنوب بعد الشرك بالله.

---

(١) الآية: ٣١.

وقد كان بعض الصالحين يقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار. وهو قول نابع عن شعور بالتقصير في تأدية التوبة على وجهها الصحيح.

ومن تاب من ذنبه توبة نصوحاً، ثم عاد إلى الذنب ـــ فليتب منه ولو عاد إليه مائة مرة، ما دام في كل مرة يعزم عزماً مؤكداً على تركه وعدم العودة إليه؛ فالله عز وجل لا يزال تواباً يقبل التوبة ويغفر الذنب ولا يبالي.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال فيما يَحْكِي عن ربه عز وجل قال: "أَذْنَبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رَبّاً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك" .

أي: ما دمت تذنب وتتوب توبة نصوحاً فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي بكثرة ذنوبك؛ وذلك لأنه هو التواب الذي يهب التوبة ويقبلها ممن وهبها له؛ إذ الفضل منه وإليه.

فالعبد إذا أراد أن يتوب فليسأل الله أن يوفقه للتوبة؛ فإنها أول الطريق إليه ووسطه وآخره، وهي الشفرة التي بها تُحَلُّ رموز المعرفة وتُعْرَفُ بها المعالم والحدود، وبها يتخطى التائبون العقبات الكئود، التي يضعها الشيطان في طريق السالكين.

يقول الله عز وجل في شأن المخلفين الثلاثة الذين تَخَلَّفُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وجاءوه تائبين: ﴿ ... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ فقد سبقهم برحمته، فوفَّقَهُم للتوبة فأدُّوها كما تلقّوها.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1].

والسر كامن في الحرف "عن"؛ إذ قال: "عن عباده" ولم يقل "من عباده"؛ لأنها منه أتت وعنهم قُبِلَت.

ولولا اللهُ ما اهْتَـــدَيْنَا وَلا تَصَدقنَا ولا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينةً عليـــنا وَثَبِّتِ الأقدام إن لاقَيْنَا

هذا ما كان يقوله النبي ﷺ والمؤمنون معه، وهم يبنون المسجد في المدينة. وفيه تعبير صادق عن شعور غامر بأن الخير كله منه وإليه، وأن نواصي الخلق جميعاً بين يديه.

الركن الخامس من أركان التوبة: هو رَدُّ المظالم إلى أصحابها أو التخلص منها بطلب التجاوز عنها منهم.

فإن لم يستطيع التائب أن يرد هذه الحقوق لأصحابها، وعجز عن طلب التجاوز عنها لأي سبب من الأسباب الجَلِيَّةِ أو الخَفِيَّة ــ فليطلب من الله أن يُرَضِّيَ عنه خصومه يوم القيامة.

وهذه الأركان الخمسة التي ذكرناها هنا لها شروط وضوابط يضيق المقام عن شرحها وفيما ذكرناه كفاية [2].

وعلينا أن نُجَدِّدَ التوبة مع الله في كل وقت دون أن يداخلنا شعور باليأس؛ فإن اليأس من رحمة الله كفر.

يقول الله جل شأنه: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [3].

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ ﴾ [4].

---

(١) الشورى: ٢٥.

(٢) إن أردت المزيد فارجع إلى كتاب الطريق إلى التوبة.

(٣) يوسف: ٨٧. (٤) الحجر: ٥٦.

ولنذكر دائماً قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١).

ولندعو الله عز وجل في صباحنا ومسائنا بدعاء النبي ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

"اللهم، اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني،اللهم اغفر لي خطيئتي وعمدي، وهزلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللهم، اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير".

---

(١) النساء : ١١٠.

المنتقم "جل جلاله"

أسماء الله الحسنى ذات جلال وجمال، إلا أن بعضها يكون الجلال فيها ظاهراً والجمال فيها خفياً، وبعضها يكون الجمال فيها ظاهراً والجلال فيها خفيًّا، وكلها تشير إلى كمال الله المطلق.

وأعني بالجلال: المهابة، والعظمة، والجبروت.

وأعني بالجمال: الرحمة، والبِرّ، والإحسان، والرأفة، والأمن، والسلام، ومَا إلى ذلك من المعاني التي يشعر العبد معها بالسكينة والطمأنينة وعظيم الرجاء.

والمؤمن من شأنه أن يخاف ويرجو، ولكي يكون متقلبا بين الخوف والرجاء دائماً ــ عليه أن يذكر الله بأسمائه الحسنى كلها؛ عملاً بقوله جل وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (١).

وبقوله عز شأنه: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢).

وهذا الاسم المقدس الذي نحن بصدد النظر فيه، إذا ذكر المؤمن ربه به وهو على علم بمعانيه ــ تعروه رِعدة شديدة ينخلع بها قلبه من مكانه، لكن سرعان ما تدركه رحمة الله جل جلاله، فتذكره بأسماء الجمال، وتصرف عنه معاني هذا الاسم إلى من هو أحق بانتقام الله عز وجل، فيعود قلبه إلى مكانه وهو على أكثر ما كان من طمأنينة وسكينة.

وذكر الله عز وجل دواءٌ لأدواء القلوب كلها، وهو على نوعين:

دواءٌ يعالج القلوب القاسية فيرقِّقها ويذهب الرَّان عنها، وهو السواد الذي أظلمها وأطفأ نورها بسبب المعاصي.

ودواءٌ يَزِيدُ القلوب الرحيمة رحمة وهدى ونوراً،فتكون دائماً يقظة مزهرة

---

(١) الأعراف: ١٨٠.   (٢) الإسراء: ١١٠.

ولا شك أن القلوب إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري وغيره.

وأفضل الذكر: كتاب الله؛ لاشتماله على أسماء الله الحسنى كلها.

والقرآن الكريم ــ كما نعلم ــ هو طب القلوب ودواؤها.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا ﴾ (١).

ويقول جل جلاله: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾(٢).

وقد وردت مادة هذا الاسم المقدس في مواضع كثيرة من كتابه العزيز بتصاريفها المختلفة.

ومن نظر إلى المواضع التي فيها مادة الانتقام، يجد أن انتقام الله لا يَنْصَبُّ إلا على المجرمين من أهل الكفر والضلال والفسق والفجور.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (٣).

أي: منتصرون للحق منهم بكل أسلحة الانتقام في الدنيا والآخرة، فالمنتقم هو المستمر في الانتقام، والانتقام: هو إيقاع أشد العقوبة وأقساها على كل مجرم أثيم.

ويقول الله عز وجل: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ (٤).

أي: في أول وقت نذهب بك عن ساحتهم يحل بهم انتقامنا منهم، ولولا

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) الزمر: ٢٢: ٢٣.

(٣) السجدة: ٢٢.

(٤) الزخرف: ٤١.

وجودك بينهم لجاءهم العذاب بغتة من بين أيديهم ومن خلفهم، ولا سيما أنهم قد طلبوه أكثر من مرة على سبيل التحدي والعناد.

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١).

ولو أنصفوا أنفسهم لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

ومع ذلك أخر العذاب عنهم إكراماً لنبيه العظيم ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام فقال جل في علاه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢).

فإذا جاء يوم القيامة بطش الله بهم وزادهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون في الأرض، ويصدّون عن السبيل، ويجحدون بآيات الله ونعمه.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ (٣).

وأحياناً يكون الانتقام من الله لمن أساء وظلم من المسلمين؛ لأنه عز وجل يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ.

ومن ذلك ما جاء في شأن المُحْرِمين بالحج أو العمرة إذا قتلوا صيداً قبل أن يتحللوا من إحرامهم، وعادوا إلى فعلتهم مرة أخرى، وهم يعلمون حرمته؛ صيانة لحرمة بيته من ترويع الآمنين من إنسان وحيوان.

قال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٤).

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) الأنفال: ٣٣.

(٣) الدخان: ١٦.

(٤) المائدة: ٩٥.

أي ذو انتقام فريد، لا يتوقف عند حد، ولا تُعْوِزُهُ الوسائل، ولا يقع تحت التصور، ولا يخطر على قلب بشر.

واقرأ ـ إن شئت ـ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١).

واقرأ ـ أيضاً ـ قوله جل وعلا: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ (٢).

وانظر ما قصه الله علينا من المَثُلاَتِ، أي: العقوبات التي أنزلها بالأمم المكذِّبة؛ لتعلم كيف كان انتقامه، وكيف كان أخذه وعقابه.

اقرأ قوله تعالى في قوم نوح من سورة القمر: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٣).

واقرأ قوله جل شأنه فيما جاء في هلاك قوم هود في هذه السورة، وما جاء في قوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، من قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إلى قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾.

اقرأ هذه الآيات وتدبّر معانيها، وتتبع خطواتها البيانية، وجرِّب وقعها على نفسك مرة بعد أخرى؛ فإنك لو فعلت لهالك ما قد علمت من الوسائل التي انتقم الله بها من المجرمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ومشاربهم في الكفر والضلال.

وعندئذ لا يسعك إلا أن تقول ما كان يقوله النبي ﷺ في دعائه: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا منجاة

---

(١) هود: ١٠٢. (٢) مريم: ٧٥. (٣) الآيات: ١١ـ ١٧.

منك إلا إليك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

وإن أردت أن يستجيب الله لك دعاءك هذا، فاكظم غيظك، واعف عمن ظلمك، وصِل من قطعك، وأحسن لمن أساء إليك، مبتغياً بذلك كله وجه ربك، الذي خلقك من العدم وربَّاك على موائد العز والكرم، وهداك للإيمان وجمع قلبك عليه، والزم حدود الله في أقوالك وأفعالك، وتب إليه توبة نصوحاً واصحبها معك في أول الطريق إليه وفي وسطه وفي آخره، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، وارض بما قسم الله لك، واشكره في البأساء والضراء، وتعرَّفْ إليه في الشدة والرخاء، وأحسن التوكل عليه في أمرك كله، وادعه خوفاً وطمعاً، وتَخَيَّر من الدعاء أحسنه منطقاً، وأجمعه لأسباب الخير ووسائله.

وخير الدعاء ما جاء في القرآن، ثم ما جاء في السنة المطهرة، ثم ما ورد عن خيار التابعين.

وكن من أمرك على حذر، ولا تتمنَ على الله الأماني، وغلِّب جانب الخوف على جانب الرجاء ما دمت صحيح البدن، فإن غَلَبَ على ظنك أنه قد دنا أجلك، فغلِّب جانب الرجاء على جانب الخوف، وكن حسن الظن بربك؛ فإن الله عند ظن عبده به.

وإن أصابك ما تكره من الناس، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، وإن ثقل عليك ظلم الظالمين وطال بك أمد ظلمهم فقل: يا منتقم يا جبار، يا كبير يا متعال، خذ لي بحقي ممن ظلمني، وادفع عني السوء بما شئت وكيف شئت؛ إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، يا نِعْمَ المولى ويا نعم النصير.

العَفُوُّ "جل جلاله"

إذا ذكر المؤمن ربه بهذا الاسم المقدّس، لاحت له بوادر الرحمة قادمةً نحوه، مقبلة تجدد في قلبه الأمل في جوده وإحسانه، وتطرد اليأس من ساحته طرداً لا يعود بعده إليه ما دام ذاكراً له ملتمساً لمعانيه من الكتاب والسنة ومن أقوال الصحابة والتابعين من خيار الأمة.

إنه اسم جمع معاني أسماء الجمال كلها، فهو الرَّحيم الغفور، وهو اللطيف الشكور، وهو البرَّ التَّواب الرءوف الكريم الحليم، كل هذه الأسماء وما في معناها يجمعها هذا الاسم الذي نحن بصدد بيان معانيه ومقاصده ومراميه.

ومن معاني هذا الاسم المقدس أنه هو الذي يتجاوز عن الزلات بفضله وكرمه فلا يعاقب عليها ولا يعاتب صاحبها؛ مبالغة في إكرامه له وعطفه عليه، ولا يذكره بها حتى لا يحرجه ويخجله، ويمحو آثارها محواً تاماً وينسيه إياها، وينسى كذلك الحفظة حتى لا يشهدون عليه، وينسى جوارحه والأرض التي عصاه عليها. وهذا هو العفو في أسمى صوره وأرقى معانيه.

قال القشيري ــ رحمه الله ــ: "العفوُّ هو الذي يمحو آثار الذنوب، ويزيلها بريح المغفرة، فهو يمحو الذنوب من ديوان الحفظة، وينسيها قلوبهم وقلوب المذنبين أيضاً ". وهو قريب لما ذكرناه، وهو موافق لما جاء في اللغة.

فالعفو في اللغة من معانيه: المحو والإزالة، تقول: عفت الريح الأثر أي محته وأزالته.

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: "إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى كذلك جوارحه ومعالمه من الأرض؛ حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب" (١).

---

(١) قال المناوي في فيض القدير: رواه الحكيم في نوادره عن أنس، ورواه عنه الأصبهاني وضعفه المنذري في السند أ.هــ . ومعناه صحيح.

يقول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١).

وقبول التَّوبة بداية العفو وتمهيد له، فإذا تاب العبد فقد خطا على الطريق إليه خطوة، فإن تمكن من التّوبة وتمكنت التوبة من قلبه فقد بلغ المنزل واستحق العفو من لدنه جل شأنه، وكان مُجاب الدّعوة مغموراً بفضل الله ورحمته.

وقد دندن المحبون حول هذا المعنى الذي ذكرناه فقالوا: العفو هو الذي أزال عن النفوس ظلمة الزلات برحمته، ووحشة الغفلات عن القلوب بكرامته.

وقالوا أيضاً: العفو هو الذي أزال الذنوب من الصحائف وأبدل الوحشة بفنون اللطائف.

وقالوا: هو الذي يترك المؤاخذة على الذنوب، ولا يذكرك بالعيوب، والكريم إذا عفا صان قلب المسيء عن الاستيحاش، وحفظ وجهه عن الخجل ولا يذكره سوء فعله.

وأنت ترى أن هذه المعاني كلّها متقاربة لا تناقض فيها ولا اختلاف؛ فتفسيرهم يعتبر من باب التنوع لا من باب التضاد، فالألفاظ مختلفة والمعاني مؤتلفة.

ولعلك تسأل عن الفرق بين العفو والصفح والغفران فأقول:

العفو: هو ترك المعاقبة بعد الاستعداد لها ولو مع توبيخ.

والصفح: هو الإعراض عن المذنب، وترك عقوبته وتوبيخه.

والغفر: هو ستر الذنب وعدم إشاعته.

والدليل على ذلك الترتيب قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

---

(١) الآيات: ٢٥ــ ٢٦.   (٢) آية : ١٤ .

أي: إن منهم من يكون عدوًا لكم، يثبط هممكم، ويحول بينكم وبين الجهاد وطلب العلم وفعل الخيرات، فاحذروا أن تطيعوهم، وخذوهم باللين والعطف والعفو والصفح؛ براً بهم وإكراماً لهم.

ويُروى أن هذه الآية نزلت في قوم أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عنها فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم.

والآية تشمل بعمومها التحذير من كل ما يشغل عن ذكر الله وطاعته من الأزواج والأولاد، وقد أمر الله في هذه الآية بالعفو والصفح والمغفرة؛ ليكون المؤمن على أعلى درجة من الوفاء والصفاء لأهله وولده.

ومن عفا عفا الله عنه، والجزاء من جنس العمل.

وقد قال النبي ــ ﷺ ــ: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

فمن أراد أن يتعرض لعفو الله ومغفرته، فليعفو عمن ظلمه، ويكظم غيظه عمن أساء إليه، وإن أراد أن يكون أعبد الناس فليحسن إليه.

وإذا كان الحلم سيد الأخلاق فالعفو فيه جماع المكارم كلها، فلا يتم للحلم معناه ولا تظهر آثاره إلا به.

يقول الله عز وجل: ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾(١).

أي: الزم العفو واتخذه ديدنك في شأنك كله، وأْمر الناس بما يتعارفون عليه فيما بينهم ولا ينكرونه، ولا يكون مخالفاً للشرع، وأعرض عن الجاهلين الذين لا يعرفون عواقب الأمور، ولا يحسنون التصرف في أقوالهم وأفعالهم، ولا يتخلّقون بأخلاق الإسلام، ولا يرقبون في مؤمن قرابة ولا عهداً.

وهذه الآية جمعت الفضائل كلها في إيجاز بليغ.

والعفو عن الناس مع القدرة عليهم مقام العارفين بالله تعالى؛ لأنه لا يعفو

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .

عن الزلات إلا من سكنت نفسه، واطمأن قلبه بذكر الله تعالى، فوكل أمره لخالقه ومولاه ينتقم له ممن أساء إليه إن شاء بما شاء وكيف شاء، بل لا يطمع في الانتقام ممن ظلمه بقدر ما يطمع في عفو الله عنه وهدايته.

فالعفو إحسان، والمحسن ليس هو الذي يقابل الإحسان بالإحسان وكفى، ولكنه يقابل الإساءة بضدها، فيحسن لمن أساء إليه بالعفو عنه وبالدعاء له في ظهر الغيب.

ولقد كان النبي ﷺ من أكرم الناس وأحلمهم وأعظمهم خلقاً على الإطلاق، فليكن لنا فيه قدوة حسنة.

ولكي نكون أهلاً للاقتداء به ينبغي أن ندرس سيرته دراسة واعية وأن نتعلم منها متى وكيف ولمن يكون العفو والصفح الجميل.

ومن مظاهر عفوه ﷺ التي لا يطويها النسيان عفوه عن زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، فإنه كان عدوًّا لدوداً للإسلام والمسلمين، فقد كان يتربص بهم الدوائر، ويحالف عليهم الشيطان، ويحيك لهم المؤامرات، ولا يجد فرصة للطعن عليهم والنيل من نبيهم إلا انتهزها، وهو الذي أشاع قالة السوء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وجعل المرجفين يتهامسون بالإفك حولها، ويهزون أركان المجتمع الإسلامي هزاً بهذا الاتهام الدنيء.

ومع ذلك كله لم يشأ الرسول الكريم الحليم أن ينتقم لنفسه من هذا الخبيث اللعين، بل تركه لله يفعل به ما شاء وكيف شاء.

وكان مسْطَح بن أثاثة ممن خاض مع الخائضين في حديث الإفك وكان مؤمناً، وكان ابن خالة أبي بكر رضي الله عنه، وكان أبو بكر ينفق عليه فأقسم ألا يعطيه شيئاً من ماله بعد أن قال ما قال في عرض ابنته عائشة، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: أنا أحب أن يغفر الله لي. وأعاد الإنفاق عليه وكَفَّرَ عن يمينه، وسما بنفسه أن يسيء إلى من أساء إليه.

فمن عفا عن أخيه وهو قادر عليه، وصفح عنه ولم يعاتبه على ما صدر منه، وغفر له زلته وسترها ولم يحدث أحداً بها ـ فقد برهن على أنه رفيع الهمة، صادق العزم، قوي الإرادة، عظيم الخلق، عريق الأصل، قوي الإيمان، شديد الثقة بفضل الله ونصره وعظيم ثوابه.

وليس العفو والصفح صادراً عن ضعف أو وهن أو تهاون في الحقوق كما يظن كثير من الدَّهْماء، ولكنه بطولة نادرة، وقدرة خارقة، وعدل محفوف بالرحمة، وتقوى قد ملأت أقطار القلوب، فمحت كل ما فيها من الأدواء والعلل وجعلتها سليمة مستنيرة بنور الله تعالى، لا تحمل حقداً ولا حسداً ولا ضغينة، ولا بغضاء لأحد من المسلمين.

وبعد: فإن خلاصة القول أن الله عز وجل يعفو عمن عفا وأصلح واتبع سبيل المؤمنين، وفرغ قلبه من الأهواء والوساوس الشيطانية والهواجس النفسية، وتفرغ لعبادة خالقه ومولاه، وتخلق بخلق الإسلام في أقواله وأفعاله وأحواله كلها.

اللهم يا عفو يا غفور نسألك العفو والعافية وحسن الختام.

---

(١) النور: ٢٢.

الرءوف "جل جلاله"

من ذكر الله عز وجل باسمه الرءوف وكان على علم بمعناه اللائق به جل جلاله، لم يقنط من رحمته أبداً مهما عظم ذنبه وكثرت خطاياه، ولم يفتر عن الذكر به وبسائر أسمائه التي تشبهه في المعنى، كالرحيم، واللطيف، والحكيم، والكريم، والغفور، والشكور، والبر، والتواب، والعفو، والغفار، والفتاح، والباسط، والرافع، والنافع، وما إليها.

وإذا ما جدّ في الذكر جدّ في العمل. ومن جد وجد، ومن زرع حصد ومن سلك وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل فقد بلغ المنزل، وهو مقام العبودية الخالصة للرب الكريم الرءوف الرحيم، مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

ولكي نعرف المعنى اللائق بهذا الاسم المقدس لابد أن نعرف معنى الرأفة في اللغة، والفرق بينها وبين الرحمة، فإن هذا الاسم قد اقترن باسمه "الرحيم" في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وإذا جرى ذكره على اللسان تبعه الرحيم لقوة التشابه بينهما في المعنى والمقصد والأثر.

أ) وبالرجوع إلى كتب اللغة وجدنا أن الرأفة: هي رحمة خاصة بمن يستحقها من الرحماء والضعفاء، كالأطفال والمرضى والمعدمين.

أما الرحمة: فهي عامة تشمل بعمومها جميع الخلق على الإطلاق من إنسان وحيوان وغير ذلك.

ب) والرأفة: رقة في القلب، تدفع صاحبها إلى العطف واللطف والإحسان لمن يرق له ويحنو عليه ويحبه، ويألفه ويأنس به لأي سبب من الأسباب التي يحدثها الله في القلوب.

وأما الرحمة: فهي رقة في القلب أيضاً، لكنها تكون لمن يستحقها بغض النظر عن العواطف والمشاعر.

فالرءوف من الناس: يتصرف بعواطفه وأحاسيسه الجياشة أكثر مما يتصرف بعقله، وقد يؤدي به هذا التصرف إلى الوقوع في الخطأ أحياناً.

والرحيم من الناس: يتصرف بعقله أكثر مما يتصرف بهواه وعواطفه، فيكون تصرفه أقرب إلى الرضا والقبول وأبعد عن النقد والتجريح.

جـ) والرءوف من الناس غالباً ما يراعي في تصرفاته تجاه من يرق لحاله ما يرضيه ولو كان ذلك على حساب مصلحته؛ فهو يسارع إلى مرضاته وكفى. "وشر العواطف ما قتل".

أما الرحيم منهم فإنه ينظر إلى مصلحة من يرحمه بغض النظر عما يكون في طريق ذلك من ضرر يلحق بالمرحوم، فهو يرتكب أخف الضررين في تصرفاته دائماً شأنه في ذلك شأن الطبيب الحاذق الحازم يصف الدواء للمريض وهو يعلم أن له آثاراً ضارة؛ لكي يشفيه ـ بإذن الله تعالى ـ من هذا المرض الذي اكتشفه فيه، ثم يتغلب بعد ذلك على تلك الآثار الجانبية التي أحدثها الدواء في سهولة ويسر، ولهذا سمي الطبيب حكيماً في كتب الطب القديم.

د) والرأفة بالنسبة للإنسان غالباً ما تكون بعيدة عن العدل الذي أمر الله به ووضع الحدود لأبعاده الممكنة؛ وذلك لأن الرأفة أوْغَل من الرحمة في باب العواطف، وهي لا تهتدي إلى قواعد العدل إلا بواسطة العقل، فكان لابد أن تقترن بالرحمة؛ لأن الرحمة صنو العدل، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا عدل بلا رحمة، ولا رحمة بلا عدل.

وتستطيع ـ أيها القارئ الكريم ـ أن تعرف هذه الملازمة من التشريع الإسلامي؛ فإنه مبني على العدل المطلق، وهو مع ذلك لا يخلو أبداً من الرحمة في أي حكم من أحكامه مهما بدا فيه من قسوة في بعض الأحيان. خذ مثلاً ما جاء في حد الزانية والزاني وتدبر جيداً قوله تعالى في سورة النور: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾(١)

إنك ستفهم من خلال التدبر الأمثل أن في إقامة الحدود رحمة بالمحدود ليتوب من ذنبه ولا يعود إليه، ورحمة بالمجتمع كله؛ لأن العقوبة لا تنصب على

---

(١) الآية: ٢.

المجرم بقدر ما تنصب على الجريمة نفسها من أجل القضاء عليها وتطهير المجتمع من رجسها. وتفهم أيضاً أن تعطيل الحدود بسبب الرأفة يتنافى مع الرحمة من جميع الوجوه.

ومن هذا وذاك تعلم أن الرأفة إن خلت من الرحمة فقدت قيمتها، وكان ضررها أكثر من نفعها، بل لا يكون لها نفع أصلاً.

ويتبين لنا من كل ما ذكرناه السر العجيب في اقتران هذين الاسمين المقدسين: الرءوف والرحيم في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفي كلام الخواص والعوام من الناس.

وأراك ــ أيها الأخ القارئ ــ تريد بعد هذا البيان أن تعرف المعنى اللائق بهذا الاسم المقدس بشيء من التفصيل فنقول: الرءوف جل جلاله: هو الرحيم بالمؤمنين في الدنيا والآخرة رحمة خاصة بهم فوق الرحمة العامة بالخلق أجمعين. هذا ما قاله كبار الصحابة والتابعين من أئمة اللغة والدين.

فهو جل جلاله رءوف بأوليائه ومحبيه، يحيطهم بعنايته ويوفقهم لطاعته، ويلهمهم الرشد في أقوالهم وأفعالهم، ويحصي لهم ما قدموه لأنفسهم، ويضاعفه لهم أضعافاً كثيرة حتى يرضيهم كل الرضا في جنة عرضها السماوات والأرض، قد أعدها لهم قبل أن يخلقهم ويسرهم إليها لما طلبوا الهدى منه جل شأنه وخافوا مقامه، وصدقوا فيما عاهدوه عليه، وماتوا وهم راضون بقضائه وقدره مخلصين له وجوههم في العبودية.

ومن هذا نعلم أن مدلول كلٍ من الاسمين المقدسين يؤكد مدلول الآخر ويتعاون معه في إبراز حقيقة هامة، وهي أن رأفة الله عز وجل مغايرة لرأفة الخلق بعضهم ببعض، فهي رأفة مصحوبة بالرحمة من جميع الوجوه، لا يترتب عليها ما يتناقض مع الحكمة العليا بأي حال ولا مع دينه الذي فطر الناس عليه وقد وضع لهم قواعده وأحكامه رعاية لمصالحهم في العاجل والآجل. وهذه المصالح تتمثل في دفع المضار وجلب المنافع، كما يقول علماء الأصول.

ودفع المضار مقدم على جلب المنافع، بل إن دفع المضار هو نفسه جلب للمنافع.

والله عز وجل هو الضار النافع، فمن آمن به واتقاه وخاف مقامه وفر منه إليه فقد رحمه رحمة خاصة يشعر ببردها في الدنيا ويجد نعيمها في الآخرة.

ومن تتبع هذا الاسم المقدس في القرآن الكريم، وجد له من المعاني ما يدق فهمه على غير الممارس للغة العربية وغير المتعمق في علم التوحيد وأصول الفقه.

واعلم أن صفات الله عز وجل مغايرة لأوصاف الخلق من جميع الوجوه التي تخضع للحس أو يتصورها العقل أو يتوهمها الخيال.

فالرأفة والرحمة والرضا والغضب وما إلى ذلك مما وصف الله نفسه به في كتبه أو على ألسنة رسله هو من صفات الأفعال لا من صفات الانفعال؛ فأسماء الله تعالى ــ كما قال علماء التوحيد والأصول ــ تفهم باعتبار الغايات التي هي أفعال، ولا تفهم من حقائقها اللغوية المجردة التي تفيد الانفعال.

وبعد هذا البيان نوصي أنفسنا بأن نكون أهلاً لرحمة الله بنا وإحسانه إلينا فنعطف على الفقراء والمساكين، ونرحم المرضى والمستضعفين، ونمسح دموع البائسين المحرومين، ونؤتي ذوي القربى حقوقهم، ونتقي الله حيثما كنا، ونعطر أنفاسنا بذكره دائماً بكل اسم من أسمائه الحسنى، ونضرع إليه في جميع أوقاتنا وأحوالنا ــ أن يرحمنا رحمة واسعة في الدنيا والآخرة. فقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[١].

---

(١) الأحزاب: ٤١ــ ٤٤.

مالك الملك

عندما يذكر المؤمن ربه بهذا الاسم المقدس، وهو عالم بمعناه ــ يتلاشى شعوره بالقدرة على تحقيق ما يريده لنفسه أو لغيره من خير، بل يتلاشى شعوره بأن له مع الله إرادة أصلاً، ولا يسعه إلا أن ينكر ذاته من حيث هي ذات مالكة لما معها من علم ومال، وغير ذلك مما يقع تحت يده وتصرفه، ويشهد عن يقين بأن المالك لكل شيء هو الله عز وجل، وأنه مملوك من مماليكه خاضع كل الخضوع لإرادته وقدرته.

لهذا أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يضرع إليه بهذا الاسم العظيم إذا ما أراد أن يحقق رجاءه من خيري الدنيا والآخرة فقال جل شأنه في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

والمراد بالملك في الآية: القدرة التامة على الإعطاء والمنع والإعزاز والإذلال، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وتدبير شئون العباد من رزق وغيره مما يحتاجون إليه، وهو جل شأنه أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

وإذا فهمنا ما احتوته هاتان الآيتان من الدلائل، لا نحتاج إلى قول قائل في بيان معنى هذا الاسم المقدس؛ فقد عرفنا الله به تعريفاً جامعاً لكل معانيه.

ولكن مبالغة في التوضيح نقول: هناك فرق بين المِلك ــ بكسر الميم ــ والمُلك ــ بضمها.

فالمِلك ــ بكسر الميم ــ: هو ما يُملك من مال وعقار وعلم وصحة وغير

---

(١) الآيات: ٢٦ــ ٢٧.

ذلك من الأمور المادية والمعنوية، يقال: فلان يملك ثروة طائلة، وفلان يملك عقلاً راجحاً وذكاءً نادراً ورأياً صائباً، وفلان يملك قوة بدنية هائلة وروحاً رياضية عالية وشخصية قوية، إلى غير ذلك مما يملك حقيقة أو مجازاً.

وأما المُلك ــ بضم الميم ــ فهو القدرة على الخلق والإبداع، والتدبير والتصريف، والإعطاء والمنع، والنفع والضر، وغير ذلك مما يدل على العلم المحيط والإرادة النافذة، والحكمة البالغة، والقدرة التامة.

ومن هذا يتبين لنا أن الله وحده هو مالك الملك ــ هو المَالِكُ والمَلِكُ، يهب ما شاء لمن شاء، وكيف شاء، ومتى شاء، وأين شاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا قدرة لمخلوق مع قدرته، فلا ينبغي لأحد أن يدعي لنفسه شيئاً في ملك الله إلا على سبيل المجاز، ولا يدعي أحد أن له فضلاً على أحد في شيء أعطاه إياه، أو في ضر دفعه عنه؛ فإن الله وحده هو الضار والنافع، والمعطي والمانع، والفضل كله له والخير منه وإليه، ونواصي العباد جميعاً بين يديه، فهم في قبضته وتحت قهره وجبروته.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١).

إن كل نعمة مادية أو معنوية نعلمها أو لا نعلمها فهي منه جلا جلاله، إن شكرناه عليها زادنا منها، وإن جحدناها نزعها منا.

يقول جل جلاله: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (٢).

ويقول جل شأنه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٣).

---

(١) الملك: ١ ــ ٤. (٢) النحل: ٥٣. (٣) إبراهيم: ٧.

وعلينا أن ننظر بعين الرضا والاعتبار إلى ما معنا من النعم فنسأل أنفسنا من صاحب هذه النعم نحن أم الله! هل جمعناها بقدرتنا وذكائنا وجِدّنا أم بقدرة الله وتوفيقه لنا ورحمته بنا!

وهل نحن قادرون على حفظها والتمسك بها! إن أراد الله عز وجل أن يسلبها منا أو يحرمنا من الانتفاع بها مع وجودها معنا!

هب أنك قد صرت بين عشية وضحاها ملكاً متوجاً على عرش مملكة واسعة راقية لا نظير لها في العالم كله، وأنك أوتيت مع الملك قدرة خارقة وذكاءً فذاً وعلماً غزيراً وقوة قاهرة من جند وعتاد وأسلحة لا نظير لها في الوجود.

هب أنك كنت كذلك وأكثر من ذلك فهل تستطيع أن تدفع عن نفسك الموت الذي كتبه الله على كل حي! وهل تستطيع أن تدفع عن نفسك ضُراً قَدَّرَهُ الله عليك؟!

والجواب بالنفي ينبع من الفطرة والعقل ويؤيده الواقع والتجربة والتاريخ، فهو جل شأنه الملك الذي بيده الملك كله، يؤتي الملك لمن يستحقه، ويمنعه بالقوة والقهر عمن لا يستحقه، ويعز بالإيمان والنصر والمعونة والولاية من أراد العزة وطلبها منه بالطاعة والتواضع لعظمته وجلاله، ويذل من يشاء إذلاله بالأسباب التي يعتقد أن فيها عزه وسعادته.

فهو القادر على أن يجعل في المنح محناً، وفي المحن منحاً.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رادّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها قد تنتكس وتنحرف عن الدين الذي ارتضاه الله لعباده، فيعبد قوم أصناماً لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر،

---

(١) يونس: ١٠٧.

ولا تغني عنهم شيئاً، ولكنهم إذا أحاط بهم الخطر في البر أو البحر لم يلجأوا إلى معبوداتهم لكشف الضر عنهم، ولكنهم يلجأون إلى خالق الخلق ومالك الملك.

يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

ويقول جل شأنه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

إن الله عز وجل وصف نفسه بأنه مالك الملك لكي يعلم العباد جميعاً أن ليس لهم من الأمر شيء فلا يغترون بما لديهم من النعم المادية والمعنوية، ولا يغترون بحسب ولا نسب، ولا يفخرون بجاه ولا منصب، ولا يقصرون في عبادته وشكره والثناء عليه، ولا يلجأون لأحد سواه في جلب النفع ودفع الضر، ولا يبخلون بما آتاهم الله من فضله وجعلهم مستخلفين فيه من علم ومال.

ومُلك الله أبدي دائم، لا يحول ولا يزول، ولا يعتريه نقص ولا وهن، ولا يغيب عن علمه شيء منه، ولا يعجزه شيء في ملكه وملكوته.

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣).

ولعلك تسأل ـــ أيها الأخ الكريم ـــ عن الفرق بين المَلك ومالك المُلك فأقول:

المَلك: هو المتفرد بالملك والملكوت، والقوة والجبروت، والعزة والسلطان، نواصي العباد بيده، وجودهم منه ومردهم إليه. وما سواه من الملوك ليس ملكاً على الحقيقة، بل هو مستخلف من قبله جل شأنه على ما جعله تحت يديه من مِلْكٍ، وهو زائل عنه لا محالة، إما بنزعه منه أو بموته عنه.

---

(١) يونس: ٢٢. (٢) الأنعام: ٤٠ـــ ٤١. (٣) يس: ٨٣.

وأما مالك المُلك، فهو كالملك من جميع الوجوه، ولكنه يشعر العباد بمعنى زائد على تلك المعاني التي ذكرناها في اسم الملك، فهو يقطع يأس اليائسين من رحمته، وينزع الغرور من قلوب المغترين بسعة ملكهم وسلطانهم، ويظهر ذلك من معنى المُلك، فهو لفظ يحيط بكل شيء يملك حتى الملوك أنفسهم، فكيف يكون المملوك ملكاً أو مالكاً على الحقيقة؟!

فإذا نظر المتدبر في اسم الله الملك، خطر بباله المُلك الذي لا يتناهى، ولكنه قد يرى لنفسه شيئاً من هذا المُلك قد ملكه الله إياه، فإذا نظر بتدبر إلى اسم الله مالك المُلك، شعر بأنه مع ملكه هذا عبداً مملوكاً لمن خلقه فسواه، وعلى موائد كرمه رباه.

والناس يوم القيامة يأتون ربهم فراراً مجردين من كل شيء لا فرق بين ملك وسوقة؛ فالكل بين يدي الله مرهون بعمله.

﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (١).

﴿ وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ (٢).

﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٣).

اللهم، يا مالك المُلك آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت خالقها ومولاها.

اللهم، انزع من قلوبنا ما يعكر صفو الإيمان ويكدر جلوة اليقين، وادفع عنا السوء بما شئت وكيف شئت يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، ونجنا من الهم والغم والكرب العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الانفطار: ١٩. (٢) طه: ١١١ ـ ١١٢. (٣) غافر: ١٦.

ذو الجلال والإكرام

ورد هذا الاسم المقدس في سورة الرحمن مرتين، جاء في الأولى وصفاً لوجهه جل جلاله، وجاء في الثانية وصفاً لربوبيته.

قال عز شـــأنه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَـــا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[2].

فدلت هاتان الآيتان على أنه ذو الجلال والإكرام في ذاته وصفاته وأفعاله. فوجهه كناية عن ذاته العلية، وربوبيته تعبير صادق كل الصدق عن جميع صفاته الأحدية.

ومعنى هذا الاسم أن الله تعالى متفرد بصفات الجلال والكمال والعظمة، مختص بالإكرام والكرامة، فكل جلال له، وكل كرامة منه، سبحانه له الجلال في ذاته، والإكرام فيض منه على خلقه، وإكرامه لخلقه بالعطايا والمنح، والآلاء والنعم ــ لا يحصر ولا يعد؛ فهو الجدير بالإكرام من خلقه تعظيماً لجلاله، وعرفاناً بفضله وإكرامه، وتقديراً لآلائه وإحسانه.

وإذا عاودنا النظر في فهم الحكمة من وراء ذكر هذين الاسمين في سورة الرحمن، عرفنا أن هذين الاسمين يجمعان في طياتهما ما جاء في هذه السورة من دلائل الجلال والعظمة، والقدرة وسعة الفضل والرحمة، وجزالة المنة على المؤمنين في الدنيا والآخرة.

فقد بدأت هذه السورة بالعَلَمِ الثاني من أسمائه الحسنى: الرحمن، وهو اسم يفيض بالرحمة والعطف والحنان والجود والإحسان.

وقد بدأ الله فيها بأعظم نعمة أنعمها على الإنسان: وهي تعليم القرآن، وثنّى بتعليم البيان بعد ذكر خلق الإنسان؛ ليكون هذا الإنسان محصوراً بين

---

(١) الرحمن: ٢٦ــ ٢٧. (٢) الرحمن: ٧٨.

هاتين النعمتين، بحيث يكون ما بعدهما من النعم المذكورة في السورة تبعاً لهما مندرجاً تحتهما.

فسورة الرحمن هي سورة الجلال في أسمى معانيه، وسورة الإكرام في أبهى صوره ومظاهره، إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة، في جميل صنعه وإبداع خلقه، وفي فيض نعمائه، وفي تدبيره للوجود وما فيه، وفي توجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم.

وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين المخاطبين فيها من الجن والإنس على السواء في ساحة الوجود، على مشهد من كل موجود، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله؛ تحدّياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها، ويجعل الكون كله معرضاً لها، ويجعل ساحة الآخرة كذلك ميداناً فسيحاً لإبرازها على حقيقتها؛ فإنها نعم خالصة لا تشوبها شائبة من كدر.

وجلال الله دائم أبدي سرمدي، لا تحيط بكنهه الأفهام، وإنما يقتحم قبس منه تلك العقول الملهمة والقلوب المشرقة، فتستحضر بقدر طاقتها عظمته فتخشاه وترجوه وتستحي منه، فيقال: فلان أخذته الجلالة، أي: حلّت في قلبه صورة من صور العظمة الإلهية، فخشع قلبه خشوع العارفين به، واستقر فيه بمقتضى همته سكون وسكينة، وهداية وطمأنينة، فكان من الذاكرين بلسان الحال والمقال في جميع الأوقات والحالات، واستولت على كيانه كله نفحات الجليل، فكان بهذه النفحات وليًّا من أوليائه، قهره جلاله وجماله، فكان له عبداً خالصاً، تتجلى فيه سمات العبودية التي استحقّ بها الإضافة التشريفية في قوله جل وعلا: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[١].

وجلال الله هو النور الذي تحلّت به ذاته وصفاته حِلْيَةً نابعة من ذاته وصفاته، فعمَّ نوره الوجود كله، واستقر في قلوب المؤمنين الصادقين، فعاشوا به وماتوا وهو معهم، فإذا ما بعثوا يرونه يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فلا يجدون

(١) الفرقان: ٦٣.

نعمة أعظم منه، فيقولون وهم خلف النبي ﷺ: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

فيستجيب الله لهم، ويتجلى عليهم وهم في الجنة، فيُنْسِيهِمْ هذا التَّجلِّي نعيمها المادي بكل صوره؛ لأن النظر إلى وجهه الكريم هو النعمة الكبرى على الإطلاق.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢).

وإكرام الله تعالى لعباده هو برهان جلاله؛ فمن شأن الجليل أن يكون كريماً، يعفو ويصفح عمن ظلم نفسه بعصيانه، ويتوب ويغفر لمن تاب إليه واستغفره، ويرزق من يشاء من عباده بغير حساب وإن عبدوا غيره، ويهب لمن يشاء من لدنه علماً ينفعه في دينه ودنياه؛ فنعمه على العباد لا تحصى، وفضله لا يُحَدُّ بِحَدٍّ، ورحمته وسعت كل شيء؛ فهو الأعز الأكرم، لا تنتهي عطاياه، ولا تنقطع روافد جوده وإحسانه، ولا يكُفُّ الخلق عن سؤاله؛ فهو الغني وهم الفقراء إليه.

ولهذا اقترن إكرامه بجلاله في الآيتين السابقتين من سورة الرحمن، فكانا وصفاً واحداً، ولو كانا وصفين متغايرين لأعاد لفظ "ذو" فقال: "وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَذو الإِكْرَامِ".

وأسماء الله الحسنى وأوصافه متلازمة وإن تغايرت في الألفاظ والمعاني؛ فجميعها يرجع إلى أحدية الذات والصفات والأفعال.

وقد تسألني عن الفرق بين الجليل والكريم وذي الجلال والإكرام، فأقول: ليس هناك فرق في المعاني ولا فيما تَؤُول إليه، ولكن هناك أسرار لكل اسم من هذه الأسماء الحسنى، يكشفها الله لمن أكثر من الذكر بها، وهناك ألطاف خفية

---

(١) التحريم: ٨. (٢) التوبة: ٧٢.

يمُنُّ الله بها على هؤلاء الذاكرين. وإنهم ليجدون لكل اسم منها حال الذكر بها حلاوة في قلوبهم، تختلف في مذاقها عما يجدونه في غيره. ومن ذاق عرف.

ومن أسرار هذا الاسم المقدس أنه من دعا الله به أجيبت دعوته وقُضيت حاجته.

روى الترمذي في سننه، وأحمد في مسنده، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام ". أي: الهجوا واضرعوا وتوسلوا وتقربوا بهذا الاسم المقدس، واجعلوه في أول دعائكم ووسطه وآخره، واستحضروا في قلوبكم معناه، وثقوا بفضله وأيقنوا بالإجابة.

وكان النبي ﷺ يلهج بهذا الاسم عَقِبَ كل صلاة؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا سلَّمَ لا يقعد – يعني بعد الصلاة – إلا قدر ما يقول: "اللهم، أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام".

وقد روى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما دعاءً طويلاً، ينبغي أن يحفظ جاء فيه: "اللهم، إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وترد بها غائبي، وترفع بها شاهدي – أي الحاضر معي – وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء... اللهم، اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مُضلين، سلماً لأوليائك، وحرباً لأعدائك، نحب بحبك مَنْ أحبك، ونعادي لعداوتك من خالفك. اللهم، هذا الدعاء وعليك الإجابة، اللهم، هذا الجهد وعليك التكلان...

وجاء في آخره "... سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام".

ومن عرف الله بنعوت جلاله وجماله، لم يقنط من رحمته أبداً، مهما كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه، واشتد عليه البلاء؛ فإن الله عز وجل لا يُخَيِّب

رجاء من دعاه وأحسن الظن به، وكان ملازماً لطاعته، وقد وعد بذلك في مُحْكَمِ التنزيل فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١).

وبعد: فمن أراد أن يُجِلَّهُ ربه ويُعَظم شأنه بين عباده، فعليه أن يُجِلَّ الأخيار من العلماء والأولياء الصالحين وكل من شاب في الإسلام، وأن يُجِلَّ ــ على وجه الخصوص ــ أبويه ويُحْسِنَ إليهما، ويرحمهما ويدعو لهما بالرحمة.

ومن أراد أن يخصه الله بالعلم، فليطلبه من أجله مخلصاً في طلبه والعمل به؛ فإن العلم من أجل النعم وأرفعها قدراً؛ فمن طلبه لله منحه إياه، ومن طلبه لغير الله لم يحصل عليه، ولو حصل على شيء منه لم ينفعه. وأكرم الناس عند الله من أكرمه الله بالعلم.

وقد نوَّه الله بفضله في أول آيات أنزلها على خير خلقه عليه الصلاة والسلام: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

ومن أراد أن يكرمه الله بالمال أو بالبنين، أو بأي نعمة من نعم الدنيا والآخرة ــ فعليه أن يبادر بإكرام الصالحين أولاً، ثم بإكرام سائر الناس بقدر طاقته؛ فالله كريم يحب الكريم ويدينه من حضرة قدسه، ويفيض عليه من واسع فضله وعظيم رحمته ــ ما يجعله سعيداً في دنياه وآخرته.

اللهم، يا ذا الجلال والإكرام برحمتك نستغيث فأغثنا، وأصلح شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك، يا رحيم يا ودود.

---

(١) البقرة: ١٨٦.

المقسط "جل جلاله"

عندما يذكر المؤمن ربه عز وجل باسمه "المقسط" وهو مدرك لمعانيه ــ يشعر براحة نفسية تسكن بها انفعالاته الغاضبة مما يجده في حياته من المتاعب والمعوقات، وما يلقاه من الناس من ظلم وسوء تقدير، ويشعر من أعماق قلبه بسكينة تغمر قلبه وتزيده إيماناً مع إيمانه.

ولكي نعرف معاني هذا الاسم المقدس بقدر طاقتنا البشرية ــ علينا أن نلقي نظرة إلى معناه اللغوي أولاً؛ فإن اللغة مفتاح المعرفة ووسيلة من أعظم وسائلها؛ فهي البيان الأول لكل ما غمض على الناس فهمه وإدراك معناه ومغزاه.

تقول معاجم اللغة: قَسَطَ الرجلُ في حكمه: يعني: أساء وظلم. وأَقْسَطَ: يعني: أنصف وعدل.

فالقاسط: هو الظالم في حكمه أو في معاملته.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (١).

والمُقْسِطُ: هو الذي يتحرى العدل في حكمه ومعاملته.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢).

يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسط. ويقال: أقسط يُقْسِط ــ بضم الياء ــ فهو مُقْسِطٌ. فالهمزة قد نقلت المعنى إلى ضده، فما أعظم هذه اللغة! وما أقدرها على تأدية المعاني في رحابة واتساع! إنها لغة القرآن المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن هذا البيان اللغوي نستطيع أن نفهم المعنى المراد من قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ فنقول: إن المقسط من الناس هو الذي يتوخى العدل في شأنه كله، فلا يخالف أمر الله في شيء، وإن ظهر له أدنى انحراف في خُلُقِه

---

(١) الجن: ١٥. (٢) الحجرات: ٩.

- عَدّل المسار وصحح الاتجاه، وطلب من الله المغفرة، واعتذر لمن ظلمه. والرجوع إلى الحق فضيلة، كما يقول أهل العدل والإنصاف.

وانطلاقاً من هذا المعنى اللغوي نستطيع أن نفهم منه المعنى اللائق بجلال الله وكماله، فنقول: المقسط جل جلاله وعز جاهه وقوي سلطانه ـ هو الذي تميزت ذاته وصفاته وأفعاله بالعدل المطلق.

فذاته أحدية موصوفة بكل صفات الكمال والتنزيه، وأفعاله كلها قائمة على القسطاس المستقيم، أي: على الميزان الدقيق المحكم، المنزَّه عن الزيغ والانحراف، والتناقض والاختلاف.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (١).

وهذا الميزان الذي وضعه قائم على العلم المحيط، والحكمة البالغة، والإرادة النافذة، والقدرة التامة، والرحمة العامة.

به قامت السماوات والأرض واستقر كل شيء في موضعه، وبه أدّى كل شيء وظيفته التي سُخِّرَ لها، وبه اتصلت المخلوقات بعضها ببعض في نظام ليس فيه خلل ولا زلل ولا تفاوت.

فالكون كله وحدة متكاملة، لها مُدبر واحد، مُقْسِط في تدبيره، لا يضل ولا ينسى، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في ملكه ولا في ملكوته.

والمُلْكُ: هو ما لاح وظهر، والملكوت: ما خفي واستتر.

ومن هذا يتبين لنا معنى قول الحكماء: بالعدل قامت السماوات والأرض. وقولهم: العدل أساس المُلْك.

ومظاهر عدل الله في الوجود لا تنحصر أبداً، ولا يحيط بذرة منها عقل ولا خيال.

ولا يزال العلم البشري عاجزاً كل العجز عن إدراك عشر معشار ما

---

(١) الرحمن: ٧.

تحتويه الذرة الواحدة من خصائص فنيَّةٍ وسمات تكوينية، وأسرار إلهية وآثار ضارة أو نافعة، وهي تُمَثِّلُ صورة مُصَغَّرَةً من العدل الإلهي في الخلق والتكوين، والإبداع والنظام، والدقة والإحكام، والتقدير والتدبير.

يقول الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (١).

وبذلك استحق عز وجل أن يعبد في السماء والأرض، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، شهد لنفسه بالألوهية وشهد لخلقه بالعبودية: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فشهادته بأنه الواحد دليل على استغنائه عن شهادة الخلق وإن أوجب عليهم أن يشهدوا له بالوحدانية المطلقة؛ فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته أبداً وأزلاً؛ فقد كان ولا شيء معه.

وشهادة الملائكة له وأولو العلم دليل على أنه المعبود طوعاً وكرهاً، فهي شهادة حال قبل أن تكون شهادة مقال.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحدُ

ومعنى قوله جل شأنه: ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ أي: شهد لنفسه عز وجل بالوحدانية حالة كونه مدبراً شئون ملكه بالميزان الدقيق، الذي لا يختل ولا ينحرف، وهو كذلك في جميع الأحوال؛ فصفاته ملازمة لذاته، ودالة على أحديته وصمديته.

هذه نظرة عامة في معنى المقسط جل شأنه، وهو المعنى المراد عند الإطلاق، ويندرج تحته من المعاني ما لا ينحصر.

منها: إنصاف المظلوم من الظالم، وإنصاف الظالم من نفسه وإرضاؤه بمثل ما أرضى به المظلوم، وهو أمر لا يقدر عليه أحد سواه؛ فالكمال في ذلك له جل شأنه.

---

(١) الرعد: ٨ ــــ ٩. (٢) آل عمران: ١٨.

فهو عز وجل أرحم بعباده من أنفسهم على أنفسهم، فإذا أنصف المظلوم فقد أرضاه وأغضب الظالم، وفي إغضابه إرضاء له من جهة أخرى وإن لم يعلم بذلك؛ فقد خفف عنه عقوبة ذنبه، وأعانه على إعادة النظر فيما فعل بأخيه، ومكَّنَهُ من الرجوع عن غيِّهِ والكف عن ظلمه، فكانت منحته قابعة في محنته.

ولو علم الظالم بهذا ما وسعه إلا أن يسبح بحمد ربه ويَثُوبَ إلى رشده، ويشهد بأنه هو الرءوف الرحيم بجميع خلقه، وأن رأفته ورحمته نابعة من عدله؛ فالرحمة والعدل متلازمان لا ينفصمان.

وإنصاف المظلوم من الظالم في الدنيا إنما يكون بحساب دقيق ووسائل خفية، لا يحيط بها البشر علماً، حتى ليبدو للمظلوم أن من ظلمه قد أفلت من العقوبة وفرَّ من المساءلة، ولو نظر في القرآن لعلم أن الله أنصفه من جهة لا يعلمها، وانتقم من الظالم من وجه لم يتبين له.

وربما يظن الظالم لفرط جهله أنه ليس بظالم، فيتمادى في ظلمه وطغيانه إلى حين.

يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ (١).

ويقول جل شأنه: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٢).

فمن هذه الآيات يتضح لنا أن الله يمهل ولا يهمل، فهو جلَ شأنه يعطي الظالم مهلة كافية لمحاسبة نفسه والإقلاع عن ظلمه، فإن أبى إلا التمادي في ظلمه، انتقم منه بما شاء وكيف شاء.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٣).

---

(١) مريم: ٧٥. (٢) النحل: ١٢٦. (٣) هود: ١٠٢.

وهب أن الظالم لم يُعَاقب على ظلمه في الدنيا، فهل هو سيفلت من عذابه في الآخرة؟ كلا .. كلا!!

يقول الله عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١).

ولكن ماذا يكون حال الظالم إذا تاب وأناب ولم يستطع أن يرضي خصومه في الدنيا؟

هذا سؤال يجيب عنه الرسول ﷺ؛ فقد روى الحاكم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما كان النبي ﷺ جالساً إذ ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أضحكك؟ قال: "رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من هذا، فقال الله عز وجل: رد على أخيك مظلمته، فقال: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء، فقال: يا رب، فليحمل عني من أوزاري.

ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم.

قال: فيقول الله عز وجل ــ أي: للمتظلم ــ: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي صديق أو لأي شهيد هذا!

قال الله عز وجل: لمن أعطي الثمن . فقال: يا رب، ومن يملك ذلك، قال: أنت تملكه، قال: بماذا يا رب؟! فقال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب، قد عفوت عنه. قال الله عز وجل: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة.

قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم؛ فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة". ومعنى "يصلح بينهم يوم القيامة": يُرَضِّي خصومهم، ويدخلهم الجنة راضين مرضيين.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

فمن أراد أن يصلح الله من شأنه في الدنيا ويرضى عنه خصومه يوم القيامة ـ فليلتزم العدل في حكمه ومعاملته بقدر الطاقة، ويجتنب الظلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وليعف عمن ظلمه ويصل من قطعه، ويحسن لمن أساء إليه، وبذلك يكون أعبد الناس.

يقول الله عز وجل: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١).

وبعد: فإننا قد طوفنا حول هذا الاسم المقدس وعرفنا بعض معانيه، وأدركنا فيه سرّاً من أسرار الجلال والجمال في أوصاف الله الكمالية وأفعاله القائمة على دقة التقدير وحسن التدبير.

فلندع الله بهذا الاسم فنقول: يا مقسط، احكم بيننا وبين الظالمين بالقسط، كما هو شأنك دائماً بين عبادك، وألهمنا الرشد في شهادتنا لك بالوحدانية وشهادتنا لأنفسنا بالعبودية، واجعل شهادتنا زخراً لنا يوم نلقاك، واجعل العدل رائدنا في أقوالنا وأفعالنا، واجعل الإحسان ديدننا في كل شيء، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، واجعل خير أعمالنا خواتيمها يا رب العالمين.

---

(١) الشورى: ٤٠ ـ ٤٣.

الجامع "جل جلاله"

من أكثر من ذكر الله تعالى بهذا الاسم ــ وهو مؤمن ــ جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأقبلت عليه الدنيا وهي راغمة، فزهد فيها، فأدى به زهده إلى علم نافع يجمع الله به قلوب الناس عليه، فيألفونه ويألفهم، ويأتَمُّونَ به في طلب العلم، ويقتدون به في عاداتهم وعباداتهم، ويكونون عوناً له في السراء والضراء.

وهذا الاسم له معان كثيرة لكل معنى منها سِرٌّ، يُطلع الله عليه من شاء من عباده. ذكر العلماء بعضها في كتبهم.

أ) قال قائلهم: الجامع: هو الذي جمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته، وصانهم عن ملاحظة الأغيار برحمته.

وهذا المعنى نابع من شدة تعلّق قلوبهم بحب خالقهم عز وجل، وفيه تعبير صادق عن أحوالهم معه، ومراقبتهم له، وشدة سعيهم في طلب مرضاته، واعتقادهم الجازم بأن نواصي العباد بيده، وأنه قد خَصَّ أولياءه بعظيم حبه وأذاقهم شيئاً من حلاوة قربه.

وهم لا ينكرون سواه من المعاني التي ذكرها غيرهم، فتفسيرهم هذا من باب تفسير التنوع لا من باب تفسير التضاد. بمعني: أنهم قد أخذوا معنى واحداً من المعاني فجعلوه أصلاً لها؛ ليسعى المحبون إلى تحصيله أولاً بالذكر والفكر ومجاهدة النفس والهوى.

ب) وقريب من هذا المعنى قول من قال: الجامع: هو الذي يجمع بين القلوب المتنافرة إن شاء ومتى شاء.

وهذا القول مستمد من قوله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

جـ ــ وقالوا: الجامع: هو الذي يجمع الخلق يوم القيامة؛ للعرض والحساب والجزاء.

د ــ وقالوا: هو المؤلف بين المتماثلات والمتضادات في الوجود.

وهذه المعاني كلها صحيحة، يجمعها قولنا: هو الجامع لكل شيء أراد أن يجمعه من العدم أو من الوجود في الدنيا وفي الآخرة.

وجمعه للأشياء على أي نحو كان أو يكون ــ هو موضع العظة والعِبْرة؛ لما فيه من دلائل العظمة والقدرة.

فهو جل شأنه مثلاً يجمع خلق الإنسان في بطن أمه نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكسو المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يُنْشِئه خلقاً سوياً كامل الأعضاء والخلايا وسائر ما تستقر به حياته مما لا يحصى عَدُّهُ ولا يدرك مداه.

وقبل جمعه في بطن أمه ــ جمعــه في ظهر أبيه ، كما قال جل شــأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ (٢).

فهو ينتقل بقدرة الله من مستقر إلى مستقر، ومن مستودع إلى مستودع، وآخر مستودعاته الأرض التي خلق منها في قبر لا جليس فيه ولا أنيس.

وهذه الأطوار التي يمر بها الإنسان ــ تمرُّ طوراً بعد طور، في عمليات معقدة متشابكة، ليس في قدرتنا فهمها على الوجه الذي تمرُّ به، فضلاً عن إحصائها وسردها ومعرفة ضوابطها وحدودها الزمانية والمكانية.

﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣).

ولو ظل الباحث يبحث في أحوال الأجنة وحدها مستخدماً في ذلك أحدث الوسائل العلمية ــ ما عَرَفَ إلا شيئاً يسيراً يُوقِفُهُ عند حده بالأدب مع مَن خلق

---

(١) الأنفال: ٦٢ــ ٦٣.   (٢) الأنعام: ٩٨.   (٣) البقرة: ٣٢.

فسوى وقدر فهدى، ويشعره بجهله المطبق بما أودعه الخالق جل وعلا في الأجنة من الأسرار.

يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ (١).

إن الله عز وجل يجمع الخلق جمعاً بعد جمع، فهو يجمع الناس مثلاً من عناصر الأرض، وهي كثيرة، فيأخذ منها سلالة تحمل تسعة عناصر رئيسة، من هذه العناصر التي تزيد على التسعين، فيجعلها في أطعمة الناس وأشربتهم، ثم يجعلها في المَنِيِّ، ثم يجعل في المني حيوانات منوية، تبلغ مئات الملايين، ثم يخرجها من مستقرها في ظهر الرجل إلى مستودعها في رحم المرأة، بحيث يجمع من هذه الحيوانات على كثرتها حيواناً واحداً في البويضة، ثم يصور الله الخلق في الأرحام كيف يشاء ـ سبحانه ـ، ثم يخرج الجنين إلى دار الدنيا فيمكث فيها حتى ينتهي أجله الذي قدره الله له، ثم ينتقل إلى الدار البرزخية، ثم يبعث الله العباد جميعاً للعرض والحساب، في يوم كان مقداره في علمه تعالى خمسين ألف سنة، وهو على المؤمن يكون بمقدار ما يتوضأ ويركع فريضة، كما جاء في الأثر.

روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما أطول هذا اليوم!، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا".

ومن المعلوم لدى العقلاء أن القادر على البدء قادر على الإعادة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴾ (٣).

---

(١) النجم: ٣٢. (٢) الأعراف: ٢٩. (٣) مريم: ٦٦:٦٧.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(٢).

والبنان أطراف الأصابع التي فيها البصمات، ونحن نعلم دقة هذه البصمات في الصنع الإلهي إلى حد ما، وما خفي منها أعظم بكثير وكثير مما علمناه ومما سنعلم ــ إن شاء الله.

وقضية البعث والنشور قضية حسمها القرآن بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، فلا ينكر البعث إلا من سفه نفسه، وفقد عقله وقلبه.

ولا يقبل الله إيمان عبد لم يؤمن باليوم الآخر أبداً؛ لأن الإيمان به ركن من أركان الإيمان بلا منازع.

فالإيمان، كما قال الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره: "هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره".

وقد سمى الله يوم القيامة يوم الجمع؛ لأنه يجمع فيه عباده جميعاً في أقرب من لمح البصر، وما ذلك على الله بعزيز.

يقول الله جل شأنه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

ومن معاني الجامع جل شأنه أنه يجمع أهل الإيمان يوم القيامة في صعيد واحد، ويجمع أهل الكفر في صعيد واحد، كما قال جل شأنه: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤). أي: تفرقوا عن المؤمنين واعتزلوهم؛ فاليوم يومهم، ورحمة الله خاصة بهم، وجنته قد أعدت لهم.

---

(١) يس: ٧٧: ٧٩.

(2) القيامة :٣ —٤ .

(٣) النحل: ٧٧.

(٤) يس : ٥٩ .

ثم هو جل شأنه يجمع المؤمنين في الجنة، ويجمع الكفار في النار.

وبهذا نكون قد عرفنا معاني هذا الاسم إجمالاً بقدر طاقتنا في الفهم والإدراك؛ فهو جل جلاله الجامع لكل ما من شأنه في علمه أن يجمع ـــ كما ذكرنا ـــ فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبح كل شيء بحمده. ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

وقد سمى الله نفسه الجامع ليكون العباد على ذكر من جمعهم في هذا اليوم العصيب؛ فيعدون العدة للقائه، بكثرة الحسنات والتخفف من السيئات وحسن الظن به جل شأنه. فمن أكثر من ذكر الله بهذا الاسم، ذهبت عنه الغفلة، وطردت عنه هواجس النفس ووساوس الشيطان ونزغات الهوى، وكان أكثر زهداً في الدنيا، وأعظم رغبة في ثواب الله عز وجل.

وقد كان الصالحون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـــ يكثرون من ذكر هذا الاسم، ويلهجون به في الدعاء بخيري الدنيا والآخرة.

وقد قرأت لأبي الحسن الشاذلي دعاءً أعجبني، أرى من الخير ذكره هنا.

كان رضي الله عنه وأرضاه يقول: " اللهم، يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيننا وبين الصدق والنية، والإخلاص والخشوع، والهيبة والحياء، والمراقبة والنور، واليقين والعلم، والمعرفة والحفظ، والنشاط والقوة، والستر والمغفرة، والفصاحة والبيان، والفهم في القرآن، وخصنا بالمحبة والاصطفاء، والتخصيص والتولية، وكن لنا سمعاً وبصراً، ولساناً وقلباً، وعقلاً ويداً ومؤيداً، آتنا العلم النافع والعمل الصالح، والرزق الهنيء الذي لا حجاب به في الدنيا، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة، على بساط علم التوحيد والشرع سالمين من الهوى والطمع، وأدخلنا مدخل صدق، وأخرجنا مخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً " .

آمين يا رب العالمين.

---

(١) الأنعام : ١٨.

الغني المغني

الغني من العباد من كثر ماله، أو استغنى عن غيره بالقناعة؛ فإن القناعة هي الغنى كل الغنى.

أما الله ــ عز وجل ــ فهو الغني بذاته وصفاته عن جميع خلقه.

وقد ورد هذا الاسم المقدس في مواطن من كتابه العزيز، وجاء في الغالب مقترناً باسم آخر، كالحليم والحميد، والكريم وذي الرحمة؛ للدلالة على أن الله في غناه ليس متجبراً على عباده، أو بخيلاً عليهم، أو ظالماً لهم، كشأن الأغنياء المترفين، الذين يظنون أنهم بغناهم يحق لهم أن يتعالوا على الناس، ويستذلوهم بفضول أموالهم، فهو جل شأنه غني عن عباده رحيم بهم، يرزق البر والفاجر، ويقبل توبة التائب، ويجير من استجار به ــ فله الحمد على وافر نعمه، وجميل صنعه بعباده.

يقول الله عز وجل: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (١). أي: غني عن صدقاتكم التي تتبعونها بالمن والأذى؛ فهو القادر على أن يغني الفقراء من فضله، والقادر على أن يسلبكم النعم التي تتعالون بها عليهم، ولكنه حميد يحمدكم إن أنفقتم من أموالكم ابتغاء مرضاته، وتثبيتاً من أنفسكم، وهو المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله.

فهو حميد بمعنى: حامد، وحميد بمعنى: محمود.

وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢). أي: غني ومع ذلك يحمد لكم حسن أعمالكم، وهو محمود في ذاته عن سوء فعالكم؛ فالخير منه وإليه، والشر ليس إليه.

---

(١) البقرة: ٢٦٣. (٢) البقرة: ٢٦٧.

وقال جل جلاله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

وفي آخر هذه الآية يعبر الله عن غضبه على الذين يكفرون بنعمه ولا يلبُّون دعوته إلى خير بيت في الأرض، ويبخلون بقسط من أموالهم في سبيل هذه الرحلة الإيمانية التي يجد فيها المؤمن ما يرجوه من ربه من نفحات دنيوية وحسنات أخروية.

ولهذا لم يأت باسم آخر يشير إلى حمده لعباده وحلمه بهم وإكرامه لهم، كما جاء في الآيات الأخرى.

وقال عز من قائل: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (٢).

ولكنه لم يشأ أن يذهبنا، وهو الغني عنا؛ رحمة بنا وعطفاً علينا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٣).

أي: بممتنع ولكنه لم يشأ أن يذهبنا وهو الغني عنا غنىً كاملاً ونحن الفقراء إليه فقراً تاماً.

وقال سبحانه في الرد على أهل الكتاب والمشركين: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤).أي: هو الغني بذاته عن اتخاذ الولد لعدم حاجته إليه.

وقال تبارك وتعالى حكاية عن سليمان عليه السلام حين جاءه جبريل بعرش مملكة سبأ: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٥).

---

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) الأنعام: ١٣٣.
(٣) فاطر: ١٥ــ ١٧.
(٤) يونس: ٦٨.
(٥) النمل: ٤٠.

أي: غني عن معونة الخلق أجمعين، فقد جاء بالعرش من غير أن يستعين بأحد، وشأن الغني جل جلاله أن يكون كريماً على من شكر؛ فالشكر يزيد النعم ويزيل النقم، وهو رأس العبادة وروحها وريحانها.

﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١).

أمَّا المغني جل جلاله وعز جَاهه، فهو الذي يغني من شاء من عباده عمن سواه، ويجيب المضطر إذا دعاه؛ لأن الحوائج لا ترفع على الحقيقة إلا إليه، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك ذلك لغيره.

وقال بعض العارفين: الغني: هو الذي أفاض الغنى على من شاء من العباد، وسهل لهم تحقيق المراد، وما من غنيٍّ في الوجود إلا وهو من جناب الحق ممدود، وهو المغني لأوليائه من مصابيح أنواره وكنوز أسراره.

واسم الله "المغني" لم يرد بلفظه في القرآن الكريم، ولكن ورد بما يدل عليه، مثل قوله جل وعلا: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ (٢). أي: ملَّك عباده المال وجعله لهم قِنْيَةً مقيماً عندهم، لا يسترده منهم. وهذا من تمام النعمة عليهم لأنه أعطاهم هذا المال بغير سؤال، وأباح لهم اقتناءه لوقت الحاجة وجعلهم مستخلفين فيه.

وقوله جل شأنه: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾. أي: فقيراً فأغناك عن الناس بالقناعة.

فالغِنى – كما يقول القشيري – على قسمين:

فمنهم من يغنيه الله بتنمية الأموال، وهم العوام، وهذا غنى مجازي. ومنهم من يغنيه الله بتصفية الأحوال، وهم الخواص، وهو الغني الحقيقي، بمعنى: أنه يغنيهم بالزهد والقناعة فيستغنون عن الخلق بالخالق، فلا يسألون أحداً سواه، ولا يستعينون إلا به، ويضعون نصب أعينهم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي

---

(١) البقرة : ١٧٢.
(٢) النجم : ٤٨.

فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١).

روى الحاكم بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني وأوجز.

فقال: "عليك باليأس مما في أيدي الناس؛ فإنه الغني، وإياك والطمع؛ فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاتك وأنت مودع، وإياك وما يُعتَذر منه" أي: الزم اليأس مما في أيدي الناس ولا تفارقه، ولا تحدث نفسك أن تسأل الناس شيئاً، وتوكل على الله وحده وثق بفضله، وخذ بالأسباب التي ليس فيها جرح للمشاعر أو إذهاب لشيء من التعفف، واحفظ على نفسك كرامتها بالقناعة والرضا بالقليل مع الصبر والشكر، وضع نُصب عينيك قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٢).

وقوله جل وعلا: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٣).

وقوله ﷺ "وإياك والطمع" أي: أحذره حذراً شديداً؛ فإنه يجعل فقرك حاضراً بين عينيك دائماً.

فمن جعل الدنيا مبلغ همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له.

ومن جعل الآخرة مبلغ همه جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة.

وقوله ﷺ: لرجل "وصل صلاتك وأنت مودع" فيه إيماء بهوان الدنيا وسرعة زوالها، وحفز الهمة إلى ما في الدار الآخرة من نعيم مقيم.

وقوله ﷺ: "إياك وما يُعذر منه" تحذير له من كل ما يخدش الحياء كسؤال الناس، ويذهب بالمروءة، كالتخلي عن معونة الأخيار منهم.

---

(١) البقرة: ١٨٦. (٢) النساء: ٣٢. (٣) الطلاق: ٣.

وبعد: فإن الله تبارك وتعالى يبسط معنى هذين الاسمين المقدسين في حديث طويل رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى:

"يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظَّلموا.

يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدُوني أهدكم.

يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألتُه، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقُص المخيط إذا أُدخل البحر.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها.

فمن وجد خيراً، فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه".

اللهم، يا غني يا حميد، يا مغني يا مجيد، يا فعال لما تريد أسألك من كل ما سألك منه نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، وأعوذ بك من كل ما استعاذك منه محمد نبيك عليه الصلاة والسلام.

اللهم، أغنني بفضلك وارحمني برحمتك، ولا تكلني لنفسي طرفة عين ولا أقل منها يا قريب يا مجيب.

المانع "جل جلاله"

من ذكر الله تبارك وتعالى بهذا الاسم المقدس ــ وكان مؤمناً حقًّا، عالماً بمعاني الألفاظ ومراميها ــ استطاع أن يفهم ما يحمله هذا الاسم من المعاني العقدية التي تُنَمِّي ثمرات الإيمان، وتعمق جذور اليقين، وتصحح المسار إلى معرفة الله تبارك وتعالى بنعوت جلاله وجماله وكماله.

وكل اسم من أسماء الله الحسنى له سر تتكشف به أسرار، فإذا أدرك المؤمن معنى من معانيه، فقد أدرك معه ما لم يكن في حسبانه أن يسعى في إدراكه؛ فضلاً عن أن يَخْطُرَ في ذهنه.

فالعِلْمُ بالله سُبُلُهُ كثيرة، ولكنها تصب جميعاً في صراط واحد، هو صراطه المستقيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

والذكر والفكر نوعان من أنواع المجاهدة، بهما يصل المؤمن إلى مقام الحب والقرب ، ويشاهد من الأنوار القدسية ما شاء الله أن يشاهد.

وإذا عزَّ علينا إدراك معنى من معانى أسماء الله الحسنى استلهمنا الرشد من الله تعالى أولاً بخالص الدعاء المصحوب بعظيم الرجاء ، وأخذنا بالأسباب التى تعيننا على ذلك مع الدعاء ، وهى تتمثل فى سؤال العلماء مشافهة، أو عن طريق النظر في كتبهم؛ عملاً بقوله جل وعلا: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وهانحن نَسْتَفْتِيهم في معرفة هذا الاسم المليء بالأسرار والأنوار، وننظر بعين العظة والاعتبار فيما قالوا، فنضيف إليه أو ندندن حوله.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) النحل: ٤٣. والأنبياء: ٧.

١ـ قال قائلهم: المانع جل جلاله: هو الذي يدفع أسباب الهلاك والنقص في الدين والبدن بأسباب أخرى؛ إذ هو مُسَبِّبُ الأسباب كلها.

والمنع يَتْبَعُهُ العطاء حتماً، فهو عز شأنه إذا منع أعطى، وإذا أعطى منع؛ فإن دفع عنك الفقر فقد أعطاك الغنى، وإن دفع عنك المرض فقد وهبك الصحة، وإن دفع عنك الجهل فقد منحك العلم.

ولقد كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: "اللهم، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

والجَدّ ـ بفتح الجيم ـ هو الغنى والعز. والمعنى: لا ينفع صاحب الغنى والعز غناهُ وعزه، منك الغنى والعز.

٢ـ وقال قائلهم: المانع: هو المدافع والناصر والعاصم والمُنَجِّي، فمن آمن به دافع عنه بقوته وحجته، كما قال جل وعلا في سورة الحج: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١).

ولولا دفاعُهُ عن المؤمنين ما استقر الأمن في الأرض، ولا ساد النظام بين الناس.

قال تعالى في سورة الحج أيضاً: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

وقال عز شأنه في سورة البقرة: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

٣ـ وقال الراسخون في العلم: المانع: هو الذي يمنع البلاء؛ حفظاً وعناية، ويمنع العطاء عمن يشاء؛ ابتلاءً أو حماية.

أي: هو جل شأنه يمنع البلاء عن عبده إذا دعاه بتمسكن وخضوع؛ تفضُّلاً

---

(١) من الآية: ٣٨. (٢) الآية: ٤٠. (٣) الآية: ٢٥١.

عليه ولطفاً به، وحماية له من اليأس والقنوط، وحفظاً لإيمانه به جل شأنه، وإبقاء على يقينه بالإجابة.

ويمنع العطاء عمن يشاء من عباده؛ تمحيصاً لقلبه وتطهيراً له من الذنوب، وحماية من الكبر والرياء والغرور، وغير ذلك من الآفات التي قد تنجم عن كثرة العطاء.

والله أعلم بما يصلح عباده، فيعطي ويمنع بحسب مقتضيات حكمته.

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١).

وينبغي على المؤمن إذا أراد السلامة لدينه والخير لنفسه في دنياه وأخراه ــ أن يُسَلِّمَ أمره لخالقه ومولاه؛ فهو أرحم به من نفسه على نفسه، وهو جل شأنه إن منع عنه شيئاً يتمناه ــ أعطاه غيره أنفعَ له منه؛ فَمَنْعُهُ في حقيقة الأمر هو عين العطاء.

ومن هنا كان الشكر واجباً له في الشدة والرخاء، والمنع والعطاء.

والإنسان لا يعرف ما ينفعه وما يضرُّهُ على وجه الحقيقة، فهو جاهل كل الجهل بحاله ومآله، فربما يسأل الله شيئاً فيه حتفه وهلاكه، وربما يتعَّجلُ أمراً يكون الخير في تأجيله، ويؤجل أمراً يكون الخير في تعجيله.

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ (٢).

قال ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِهِ: لا يكُنْ تأخير العطاء مع الإلحاح في الدعاء أمراً يُوجِبُ يأسك؛ فهو سبحانه ضمن لك الخير فيما يختاره لك لا فيما تختاره أنت لنفسك، وفي الوقت الذي يريده هو لا في الوقت الذي تريده أنت.

وقال رضي الله عنه: متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، وهو في كل ذلك رحيم عليك لطيف بك. إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه.

---

(١) الملك: ١٤.
(٢) الإسراء: ١١.

وقال بعض الصالحين: لا يكمل حال المؤمن، حتى يكون نظره إلى الله في المنع أفضل من نظره إليه في العطاء، وعلامة صدقه في ذلك أن يرضى بالمنع كما يرضى بالعطاء.

قال الشاعر الحكيم:

قد يُنْعِمُ الله بالبلوى وإن عَظُمَتْ ... ويبتلي اللهُ بعضَ القــومِ بالنِّعمِ

وقد سرحت بخاطري في معاني هذا الاسم فوجدته جامعاً لكل ما كان المَنع فيه قائماً على الحكمة من ماديات ومعنويات؛ فالكون كله قائم على الإعطاء والمنع، والتفريق والجمع.

فقد منع الله عز وجل الكواكب من أن يبغي بعضها على بعض.

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١).

ومنع طغيان البحار بعضها على بعض فجعل بينها حواجز غاية في الإبداع؛ لئلا يختلط الملح بالعذب.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٢).

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ﴾ (٣).

وتستطيع ـــ أيها القارئ الكريم ـــ بعد أن فتحتُ لك الباب أن تتأمل في هذا الكون الواسع الفسيح؛ لترى كيف قام هذا الكون على الإعطاء والمنع، والتفريق والجمع، وتَعْلَمَ أن ما من منع إلا وفيه عطاء، وما من شيء إلا وهو مجموع على شيء آخر من جهة، وممنوع عنه من جهة أخرى في نظام محكم بديع، يجعل الكون كله وحدة متكاملة.

﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤).

---

(١) يس: ٤٠.

(٢) الفرقان: ٥٣.

(٣) الرحمن: ١٩ـــ ٢٠.

(٤) النمل : ٨٨.

وقد سألني سائل عن الفرق بين المانع والحفيظ من أسماء الله الحسنى.

فقلت: بينهما فرق دقيق، فالحفيظ: هو الذي أحاط عباده بكمال علمه وعنايته، ولم يفته شيء في ملكه وملكوته، ولم يغفل عن تدبير شيء من أمور خلقه.

فما من ذرة في صخرة أو في السماوات أو في الأرض، إلا وهو يعلم مكانها ومكوناتها وخصائصها، فيقوم بحفظها وصيانتها وفصلها عما يفسدها، أو لا يتفق مع جنسها وخاصيتها.

وأما المانع، فهو كالحفيظ في المعنى من هذه الوجوه، ويزيد عليه ما فيه من الإشعار بالبر والقهر، كما ذكرنا عن ابن عطاء الله قوله: متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره ...

فإذا ذَكَرَ المؤمن ربه عز وجل باسمه "الحفيظ"، شعر بالطمأنينة تملأ شغاف قلبه.

وإذا ذَكَرَ الله باسمه "المانع"، شعر بالقهر من جهة وبالبر من جهة أخرى، وصار متقلِّباً بين الخوف والرجاء.

وكل اسم من أسمائه الحسنى له أثر بالغ في نفوس الذاكرين، وله حلاوة خاصة يجدونها في قلوبهم.

ومن أكثر من الذكر عرف ذلك بالتجربة.

وهَذَا مَقَــالِي وَالسَّــلامُ كَمَا بَدَا　　　وَجَرِّبْ ففي التَّجْرِيبِ علمُ الحقائق

ولهذا أمرنا عز وجل أن ندعوه بها في جميع أحوالنـــا، فقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّه الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (١).

وقال عز من قائل: ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢).

وبعد ، فإن الله عز وجل غني كريم، رءوف رحيم، يعامل عبده بما يصلح شأنه، فيمنع عنه ما يضره ولا ينفعه، وإن بدا للعبد أن ذلك ليس في صالحه؛

---

(١) الأعراف : من الآية : ١٨٠ .　　(٢) الإسراء: من الآية: ١١٠.

لقصور عقله عن إدراك ذلك ـ كما أشرنا ـ، فلا ينبغي أن يجزع عند نزول المحن؛ لأنها ليست محناً خالصة في الحقيقة؛ فكل محنة في طياتها منحة.

والراسخون في العلم لا يرون المحن إلا منحاً، فهم من أجل ذلك شاكرون لله في السراء والضراء، ضارعون إليه في الشدة والرخاء، وكان من دعائهم رضوان الله عليهم:

إلهي، أنت المانع ومنعك عند الصالحين عطاء، وأنت المعطي وعطاؤك للذاكرين نعم العطاء. اكشف عن قلوبنا حجاب الغفلة حتى نعرف الحق ونتبعه ونداوم عليه، وأعنا على أنفسنا حتى نجعل هواها في طلب مرضاتك، وأعنا على العصاة حتى نجمع قلوبهم عليك.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الضار النافع

إذا ذكر المؤمن ربه عز وجل بهذين الاسمين المقدسين، قطع أمله في الخَلْقِ، وقَصرَ همَّتَهُ في الخالق تبارك وتعالى، وأسلَمَ وجهه له، وسلَّمَ أمره إليه، ورضي بما قدرَّه عليه، وكان هواه تبعاً لما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام من عنده.

فهذان الاسمان يُشيران إلى التوحيد الخالص ويدلان عليه بمفهومهما.

فالله وحده هو الذي قَدَّر الضرر على من شاء من عباده؛ عقاباً له، أو تمحيصاً لقلبه، أو رفعاً لدرجته.

وهو النافع لمن شاء من عباده بما شاء من أنواع النفع المادية والمعنوية. ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

ومن الأدب مع الله تبارك وتعالى: ألا ننسب الضر إليه مباشرة، بل نقول: الضار: هو الذي قدَّر الضرر؛ لحكمة يعلمها، ولابد من حصوله؛ ردعاً للمعتدين ودفعاً لظلم الظالمين. وما من ضر يلحق بقوم، إلا ويتبعه نفع لآخرين، على حد قول القائل: مصائب قوم عند قوم فوائد.

وكثيراً ما يكون النفع مصحوباً بالضرر، كالدواء المُرّ؛ فإنه ينفع نفعاً عظيماً؛ بسبب ما فيه من المرارة أو الحموضة أو صعوبة تجرعه وتعاطيه.

فهل يقال للطبيب الذي يصف هذا الدواء، أو يقوم بإجراء عملية جراحية لمن هو في حاجة إليها: إنه ضارّ؟!

لعلك تتبين من هذا المثال أن الله بالناس رءوف رحيم، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن نأوا عنه فهو طبيبهم. يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

---

(١) يونس: ١٠٧.

ومن الأدب مع الله أن ننسب له الخير وننسب لأنفسنا الشر؛ وإن كان الجميع منه إيجاداً وخلقاً.

وقد علَّمنا ذلك في كتابه العزيز فقال جل شأنه في سورة آل عمران: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

إنه لم يقل جل شأنه: "بيدك الخير والشر"؛ ليعلمنا الأدب معه في الدعاء وفي غيره، مع أن نزع الملك وإذلال بعض الخلق يبدو لغير المتأمل أنه شر، ولكن عند التأمل يظهر أنه من قبيلِ الخير. وليس كل ضر شرًّا، كما عرفت من المثل المضروب آنفاً.

وقال عز من قائل في سورة النساء: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٢).

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: ما أصابك من خصب ورخاء وصحة وسلامة، فبفضل الله عليك وإحسانه إليك، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته وعوقبت عليه.

وإن كان الخطاب للنبي ﷺ إلا أن المراد منه أمته، أي: ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع رزق، فمن تفضل الله عليكم، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم، أي: من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم.

وقد حكى الله عز وجل عن سيدنا إبراهيم عليه السلام مقولة عظيمة حاج بها قومه فقال سبحانه: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٣).

فأسند المرض لنفسه ولم ينسبه إلى ربه؛ تأدباً معه.

والخضر عليه السلام عندما أخبر موسى عليه السلام بالحكمة من خَرْقِ السفينة قال كما حكى القرآن عنه: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ .

---

(١) الآية: ٢٦. (٢) الآية: ٧٩. (٣) الشعراء : ٧٨-٨٠.

ولم يقل: فأراد ربك أن يعيبها.

و نسب الخير له عز شأنه عندما أخبره عن الحكمة في بناء جدار اليتيمين، فقال كما حكى القرآن عنه: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (١).

وقال الله عز وجل حكاية عن أيوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(٣).

فقد نسب المس للضر في الآية الأولى، وأسنده للشيطان في الآية الثانية؛ تأدباً مع خالقه ومولاه.

وقال عز وجل حكاية عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٤).

فها هم قد أبهموا فاعل الشر ولم يذكروه؛ تأدباً مع الله جل وعلا، وأسندوا الرَّشَدَ إليه سبحانه؛ لأنه أهله والهادي إليه.

وقال الله عز وجل حكاية عن يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام، حين سأله موسى عن الحوت: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٥).

فانظر كيف نسب الإنساء إلى الشيطان ولم ينسبه لله وهو الفعال لما يريد؛ وما ذاك إلا رعاية منه لمقام الأدب مع ربه تبارك وتعالى.

والآيات في ذلك كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية لمن تدبر، وبالله توفيقنا جميعاً، ومنه نستمد الهدى، ومن آياته نتعلم الأدب معه جل وعلا في نسبة الأفعال إليه.

فإذا سُئلنا عن الأفعال بوجه عام، قلنا: الأفعال كلها لله؛ أخذاً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ (٦).

---

(١) الكهف: ٨٢.
(٢) الأنبياء : ٨٣ .
(٣) ص: ٤١
(٤) الجن : ١٠.
(٥) الكهف: ٦٣.
(٦) النساء :٧٨.

أما إذا سُئلنا عن أفعال الشر وأفعال الخير، فإننا ننسب الشر لأنفسنا؛ تأدباً معه، وننسب الخير له؛ حمداً له وشكراً.

وإلى هنا نكون قد عرفنا معنى الضار والنافع على الوجه الذي يحبه ربنا ويرضاه.

وعلى المسلم أن يستعين بالله تعالى في شأنه كله، وأن يسأله المزيد من فضله، وأن يحفظ دينه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يتجه بقلبه إليه وحده في البأساء والضراء، والشدة والرخاء؛ فإنه هو الغني المغني المانع، الضار النافع، الذي بيده مقاليد الأمور.

روى الترمذي في سننه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال لي: "يا غلام، إني أُعَلِّمُكَ كلمات: احفظ الله يحفظْكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسألِ اللهَ، وإذا استعنت فاستَعِنْ بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك،وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجَفَّتِ الصحف".

وفي رواية لغير الترمذي: "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفْكَ في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخْطِئَكَ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً".

وهذا الحديث يُبَيِّنُ لنا بوضوح تام أن الله يضر المعتدين بظلمهم، وينفع أهل الخير بما شاء من المنافع العامة والخاصة، وكل ذلك مُقَدَّرٌ عنده في علمه الأزلي لا يمحوه شيء، ولا يمنع من وقوعه مانع، وأن مِنَحَهُ وعطاياه قد تكون محفوفة بالمضرة أحياناً؛ لحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو.

وقد تكون المضرة أيضاً محفوفة بالمنفعة، وإن دوام الحال من المحال، وما على العبد إلا أن يتعرف على الله عز وجل أكثر وأكثر في أوقات الرخاء،

فيعطف على الفقراء والمساكين، ويمسح بالكلمة الطيبة دموع البائسين المحرومين، ويتعاون مع الناس بالبرِّ والتقوى؛ فإن الله عز وجل يقابل الإحسان بالإحسان، ويضاعف الأجر لمن أخلص إليه النية في كل عمل صالح؛ فإن الأعمال لا تكون صحيحة مقبولة إلا بالنية، ومعناها: الإخلاص التام.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [1]. أي: وذلك هو دين الملة المستقيمة: دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وعليه أن يضرع إلى الله في أوقات الرخاء أكثر مما يضرع إليه في أوقات الشدة؛ فقد روى الترمذي في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من سَرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء".

اللهم، يا ضار يا نافع رَضِّنا بقضائك وقدرك، وألهمنا الصبر على طاعتك، وصلنا بحبال مودتك، واجمع قلوبنا عليك، وادفع عنا السوء بما شئت وكيف شئت؛ إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) البينة: ٥.

النور "جل جلاله"

إذا ذكر المؤمن ربه عز وجل باسمه "النور" بخشوع وخضوع، لاحت له أنوار الحق من قريب ومن بعيد، وتزاحمت على قلبه أنواع المعارف الإلهية، فأبصر دلائل الوحدانية من عالم الملك وعالم الملكوت، فرأى عالم الملك ــ وهو ما لاح وظهر ــ بعين العظة والاعتبار، وشاهد عالم الملكوت ــ وهو ما خفي واستتر ــ بعين البصيرة المستنيرة بنور الإيمان واليقين، ووقف بعد مشاهدة هذه الدلائل الجلية والخفية على أصول التوحيد الخالص ــ فأسلم وجهه للواحد الأحد، وسلم إليه زمام أمره فسكن واستراح، بعد أن عانى من هواجس النفس ووساوس الشيطان ومرارة المعاصي.

ومن ذاق مرارة المعصية، استعذب حلاوة الطاعة.

ومن ذاق حلاوة الطاعة، لم يفارق الذكر بأسماء الله الحسنى كلها.

ومن داوم على الذكر، داوم على الفكر، وبالفكر يصل الذاكرون إلى مقام القرب والحب، ويرتقون في سُلَّمِ الكمال البشري حتى يكونوا من الصديقين، الذين بلغوا الغاية في الصدق مع الله في الأقوال والأفعال والأحوال.

والنور جل جلاله: هو الذي يتجلى بنوره الذاتي الساري في أسمائه وصفاته على من شاء من عباده، فتتعلق أرواحهم بحبال جلاله، فتسبح بحمده وتقدس له بلسان الحال والمقال، فتصفوا من أكدار الهوى وأوحال الطين الذي خلقت منه تلك الأجساد التي طالما حجبت النور عنها.

والروح إذا تخلصت من هذه العوائق، سبحت بنورها في ملكوت الله الواسع الفسيح، وعاينت من آيات القدرة الباهرة ما يجعلها ربانية المبدأ والمصير.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا

وقد ضرب الله لنوره في قلوب المؤمنين من عباده مثلاً يقرب معناه ولا يحدده؛ فنور الله لا يحد بحد كما هو معلوم ــ فقال جل في علاه:﴿ اللَّهُ نُورُ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وقد ذكر المفسرون في تأويل هذا النص الحكيم أقوالاً كثيرة نقلوها عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين، تُردُّ في جملتها إلى الهداية والتدبير والإشراق والإيجاد.

والذين فسروا النور بالتدبير والهداية ـ نظروا إلى ما ألفه العرب من التعبيرات المجازية في مثل هذا المقام، فإنهم يقولون: فلان نور القوم، أي قدوتهم الذي يهتدون به، ويسترشدون برأيه.

والذين فسروا النور بالإيجاد لاحظوا فيه معنى الظهور، فإنه ظاهر بذاته مظهر لغيره.

وأصل الظهور: هو الوجود، كما أن أصل الخفاء: هو العدم.

والله تعالى موجود بذاته، موجد لما عداه؛ ولذلك كان "النور" من أسمائه الحسنى.

وهذه المعاني كلها صحيحة إن شاء الله تعالى؛ فهو نور السماوات والأرض، بمعنى: أنه موجدهما ومنورهما بالنجوم الزاهرة، والكواكب النيرة، والملائكة الكرام البررة، والرسالات السماوية، وغير ذلك من مصادر الأنوار المدركة بالبصائر والأبصار.

وهو سبحانه منور عباده بدلائل الهدى ونور الإيمان، وهادي الخلق إلى طريق الخير ومعالم الحق ومحاسن الأعمال.

وهذا التأويل الجامع لأكثر أقوال الصحابة والتابعين أليق بالمقام، كما يدل عليه فحوى المثل المضروب للنور الإلهي العظيم.

---

(١) النور: ٣٥.

فهذا النور الذي يضيء الوجود كله، ويقيم لكل موجود فيه بصيرةً أو بصراً ــ هو مظهر من مظاهر جلال الله وعظمته وقدرته.

فكما أن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، هو نور العالمين. فقد شبه الله نوره في صدر المؤمن وقلبه وعقله بالمشكاة والمصباح والزجاجة.

وهذا المصباح يوقد من زيت شجرة زيتونة مباركة في مكان معتدل بوسط الأرض، وزيتها يضيء في جميع الأحوال بنار وبغير نار.

فالمشكاة مثل لصدر المؤمن، والزجاجة قلبه، والمصباح عقله.

وشبه الله جل جلاله الوحي الذي تلقاه الرسل من لدنه في بركته ونفعه وعدله وإشراقه ــ بشجرة الزيتون التي غرست بمكان سوي لا شرقي ولا غربي، أو هي كلمة التوحيد؛ فإنها قد شبهت في سورة إبراهيم بالنخلة، وهي شجرة طيبة أعلاها مثمر وأسفلها نافع، وهنا شبهت بشجرة مثلها في البركة والنفع وطول العمر، وهي في المكان المعتدل تكون أكثر جودة، ويكون زيتها أكثر صفاءً وأقوى تألقاً.

وكلمة التوحيد هي كلمة السواء التي يجتمع تحت لوائها القاصي والداني، ويلتف حولها الخلق أجمعون، هي الكلمة التي يتساوى أمامها العربي والأعجمي، والحر والعبد، والأبيض والأسود، وتلتقي عندها كل القيم الإنسانية في أسمى صورها وأرقى معانيها.

إن نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض ــ لا ندرك كنهه ولا نعرف شيئاً من أسراره، ولكن الله عز وجل يهدي لنوره في أسمائه وصفاته من يشاء من الأبرار إذا تعرضوا له واتجهت قلوبهم نحوه، ويفتح لهم بهذا النور طريقاً إليه؛ فيسلكون هذا الطريق حتى يبلغوا المنزل الذي أراده الله لهم.

والمؤمنون على منازل في القرب والحب، فمنهم العدول، وهم الذين يكفون عن المعاصي: كبيرها وصغيرها.

ومنهم الصالحون، وهم الذين يتركون المتشابهات؛ استبرأً للدين والعرض.

ومنهم المتقون، وهم الذين يتركون الجائزات إن خافوا أن تؤدي بهم إلى الوقوع في المحرمات.

ومنهم المقربون، وهم الذين يكتفون من دنياهم بما يسدّ الرمق ويستر العورة.

وكل فريق من هؤلاء الأصناف الأربعة له نور من الله تبارك وتعالى على قدر وعيه وسعيه.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (١).

وسعي المؤمنين للدار الآخرة يتمثل في التقوى وتجديد الإيمان عند حدوث الغفلة أو وقوع شبهة تعكر صفو القلب وتكدر جلوته.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٣).

أي: هو ولي الذين استمروا على الإيمان وحافظوا على روح اليقين، يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وقد وجه الله طلاب نوره إلى المكان الذي يجدونه فيه قد تألق في قلوبهم، فقال بعد أن ضرب هذا المثل لنوره:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

---

(١) الإسراء: ١٩.

(٢) الحديد: ٢٨..

(٣) البقرة: ٢٥٧

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ [1].

فكانت هذه الآية جواباً لسؤال مقدر ينشأ في ذهن السامع أو القارئ عندما يسمع أو يقرأ قوله جل وعلا: ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فكأنه قال: وأين أجد هذا النور؟ فقال جل شأنه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ... ﴾ الآية.

وبيوت الله في الأرض ــ المساجد، وزوارها: عمارها، فمن زار الله في بيته أكرمه بنوره وهداه، وكان حقاً على المزور أن يُكرم زائره.

وكلما ازداد العبد لربه طاعة ازداد له حباً، وكلما ازداد حباً ازداد قرباً، حتى يكون نور الله ملء سمعه وبصره، وقوة يديه وقدميه في فعل الخير والسعي إليه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما أفترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه".

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه ــ كما روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عَنْهما ــ: "اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل لي في نفسي نوراً وأعظم لي نوراً".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) النور: ٣٦ــ ٣٧.

الهادي "جل جلاله"

عندما يذكر المؤمن ربه عز وجل باسمه "الهادي" بخشوع وخضوع ـ يشعر من أعماق نفسه أنه في حاجة ماسة إلى المزيد من الهُدَى؛ لِيَرْقَى به إلى واحة عِزِّه وساحة قربه وعظيم حبّه.

وكلما ازداد بكثرة الذكر هدى، طلب المزيد منه مرة بعد مرة، إلى أن يبلغ الغاية من الهدى في جنة عرضها السماوات والأرض.

وذلك لأن الهدى نور من الله، يهبه لمن يشاء من عباده، يكشف به المجهول من دلائل التوحيد الباهرة، التي تعمق في قلبه جذور الإيمان واليقين، كما تعمقت في قلوب الأنبياء والمرسلين والصِّدِّيقِينَ بقدر درجة كل منهم.

فقد فتح الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام أبواب الهدى على مصراعيها، فأراه كثيراً مما أخفاه عن غيره؛ ليكون مائلاً عن سواه بالكلِّية، منقطعاً إليه انقطاعاً تامًّا.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١).

وانقطاعه التام إلى الله هو المراد بالتَّحَنُّف في قوله جل وعلا حكاية عنه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢).

وقد أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقتدي بأبيه إبراهيم عليه السلام في تَحَنُّفِهِ هذا فقال في سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣).

بل أمره بما هو أرقى من ذلك وأكمل فقال: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (٤).

---

(١) الأنعام: ٧٥.

(٢) الأنعام: ٧٩.

(٣) الآية: ١٢٣.

(٤) المزمل: ٨.

أي: انقطع إليه؛ وتفرَّغ لدعوته وعبادته تفرغاً تاماً، لا يدانيك فيه أحدٌ من العالمين. يُفهم ذلك من المصدر المزيد بالياء؛ إذ لم يقل له: وتبتَّل إليه تبتلاً. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في الغالب، كما يقول علماء اللغة.

والتبتل إلى الله: هو الطريق الأمثل لطلب الهدى، وهو السبب الذي يُوَصِّلُ إليه من غير واسطة أخرى؛ لأنه يجمع العبد على خالقه ومولاه.

وقد أمر الله عباده أن يطلبوا منه الهداية بكثرة الذكر والشكر، فقال في سورة البقرة: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [١].

وبالذكر والشكر يتحقق التبتل إلى الله والتفرُّغُ لعبادته، فيكون ذكره لهم مُتَمَثِّلاً في هدايتهم إلى ما يحبه ويرضاه، ثم إلى ما يحبونه ويرضونه.

ويقول الله جل شأنه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [٢].

فقد وعد جل شأنه الشاكرين بالزيادة المطلقة في كل نعمة سابقة أو لاحقة.

والهداية: أصل أصول النعم؛لأنها الإيمان في أسمى صوره وأرقى معانيه.

والله عز وجل يهدي من طلب الهدى، وطلب الهدى لا يكون باللسان وحده، ولكن يكون بالقلب واللسان والعمل.

قال جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [٣].

ومعنى "اهتدوا": طلبوا الهدى بوسائله التي ذكرناها.

والمعنى: من طلب الهدى من الله عز وجل بقلبه ولسانه وعمله الصالح ــ زاده هدىً على هداه؛ لأن هذا الطالب على هدىً فعلاً؛ وإلا ما طلب الهدى؛ فهو يطلب الزيادة إذن؛ لهذا قال جل وعلا في الآية: ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ ولم يقل: "هداهم" مثلاً، فتدبر كتاب الله كما ينبغي أن يكون التدبر، وسل الله أن يفتح عليك فتوح العارفين به، فيفقهك في الدين ويعلمك التأويل.

وقد ورد هذا الاسم المقدس في موضعين من كتاب الله عز وجل.

قال عز من قائل في سورة الحج: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

---

(١) الآية: ١٥٢. (٢) إبراهيم: ٧. (٣) محمد: ١٧.

رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَـادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾(١).

فإذا تعلَّمَ المرء أصول التوحيد والتزمها وخشع قلبه لخالقه ومولاه، وتحرى الحق في أقواله وأفعاله ــ هداه الهادي تبارك وتعالى إلى صراطه المستقيم، وثبته عليه.

وقال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٢).

أي: وكفى بربك هادياً لمن أراد الهدى وحصَّلَ أسبابه. "ونصيراً" لمن طلب منه النصر وجاهد في سبيله ابتغاءَ مرضاته.

ولا يقولن قائل: لو هداني الله لاهتديت، ولو قدَّر لي أن أعبده لعبدته؛ فهذا القول جهل ورعونة من قائله.

وقد دفع النبي ﷺ هذه الشبهة الشيطانية بقوله: "اعملوا؛ فكل مُيَسَّرٌ لما خلق له" أي: اعملوا ولا تتكلوا على القدر؛ لأنه في علم الله، واعلموا أن الله يُسَهِّلُ لمن أراد الهدى طريقاً إليه يناسب حاله، كما قال جل وعلا في آخر سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

وقد جعل الله للإنسان مشيئة واختياراً، بدليل قوله عز شأنه في سورة الكهف: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٤). أي: فمن شاء الهدى فليطلبه منه، ومن شاء الكفر فقد اتخذ الشيطان له ولياً بِمَيْلِهِ واختياره.

وكأن الله عز وجل يقول لعباده في هذه الآية وما يماثلها في المضمون: ولا يقع في ملكي إلا ما أريد، فلا تعتذروا عن تقصيركم في حق ربكم بالقَدَر، ودَعُوا الجدال فيه؛ لأن عقولكم قاصرة عن إدراك مراميه وأبعاده.

قال صَفِيُّ الدين الحِلِّي:

---

(١) الآية: ٥٤.

(٢) الآية: ٣١.

(٣) الآية: ٦٩.

(٤) من الآية: ٢٩.

مَن دَبَّرَ العيشَ بالآراءِ دام لـه صفواً وجاء إليـه الخَطْبُ مُعتذرا
يَهُونُ بالرأي ما يَجْرِي القَضَاءُ به ومن أخطأ الرأيَ لا يَسْتَذْنِبُ القَدَرَا

وهداية الله ليست مقصورة على الإنسان، بل هي عامة في جميع الخلق، وقد قَسَّمَهَا العلماء إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة.

فهناك الهداية العامة للإنسان بما أودعه فيه من عقل وازع، يدفعه إلى حفظ نفسه ونسله، وعرضه وماله.

وهداية تدفعه لحفظ دينه، الذي ارتضاه له وفطره عليه وتَعَبَّدَهُ به. وذلك عن طريق مخاطبة عقله، الذي جعله مناط التكليف فيه.

وهداية أخرى ترفع من شأنه عند خالقه ومولاه حتى يكون من الصِّدِّيقِينَ.

وعلى هذا التقسيم: كانت عقول الناس متفاوتة، فمنها العقل الوازع، ومنها العقل المدرك، ومنها العقل الحكيم، ومنها العقل الرشيد.

فالعقل الوازع : للعوام.

والعقل المدرك : للخواص.

والعقل الحكيم : لخواص الخواص.

والعقل الرشيد : خاص بالأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإذا تركنا الإنسان جانباً وسبحنا في هذا الكون الواسع الفسيح، وجدنا كل شيء قد وضعه الله في موضعه، وأقامه حيث شاء بقدرته، ووضع فيه من الأسباب ما يجعله مؤدياً لوظيفته على أكمل وجه أراده سبحانه.

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(١).

واعلم أن الهداية لها معان كثيرة، تتناول بعمومها الدلالة والإرشاد والبيان والمعونة والتدبير.

---

(١) طه: ٤٩، ٥٠.

تقول: هدى الله فلاناً إلى فعل الخير. أي: أرشده ووفَّقَهُ إليه، وأعانه عليه.

وتقول: هداه الطريق. أي: بيَّنَهُ له ودلَّهُ عليه.

وهداية الخلق للخلق مجازية، أما هداية الخالق للخلق، فهي هداية حقيقة، وبيان ذلك في كتاب الله عز وجل.

فقد قال الله عز وجل لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١).

وقال له في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

ولا تناقض بين الآيتين، ولا في كتاب الله كله؛ فقد نفى عنه القدرة الذاتية على الهداية في الآية الأولى، وأثبت له في الآية الثانية هداية الدلالة، بمعنى أنه ﷺ يستطيع بقدرة الله تعالى أن يدعو الناس إلى الهدى ويدلهم على طريقه وأسبابه ووسائله، ولكنه لا يستطيع أن يدخلهم فيه؛ فذاك لله وحده، وما عليه إلا البلاغ. وهذا المفهوم يؤيده قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ (٣).

فالتعبير بـــ "إلى" يدل على الوصول إلى باب الغاية، ولا يدل على الدخول فيها إلا بقرينة، بخلاف التعبير "باللام" فإنها تفيد الدخول في الغاية من غير قرينة. والشركاء لا يهدون إلى الحق ولا إلى الباطل.

والرسول ﷺ يهدي إلى الحق، والله يهدي للحق . والفرق بين التعبيرين ظاهر؛ فالرسول ﷺ يدعوك إلى الهدى ولا يملك هدايتك، والله عز وجل يدعوك إلى الهدى ويملك هدايتك.

ومن هذا البيان نكون قد وقفنا على معنى هذا الاسم المقدس بقدر طاقتنا في الفهم وتحصيل العلم، وعلى الله قصد السبيل.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

---

(١) القصص: ٥٦. (٢) الشورى: من الآية: ٥٢. (٣) من الآية: ٣٥.

البديع "جل جلاله"

البديع هو الذي ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو أحدٌ صمدٌ، أزليٌ سرمدي، كان ولا شيء معه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

وهو المبدع للأشياء على غير مثال سَبَق، بمعنى: أنه عز شأنه قد خلق الخلق من العدم على نحو غير مسبوق، وفي صور غير معيبة من أي وجه.

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (١).

فهذا الاسم المقدس له معنيان: الأول: متعلق بالذات والصفات ــ كما أشرنا ــ وهو المعنى المتبادر إلى الذهن عند ذكره.

والمعنى الثاني: متعلق بأفعاله من الخلق والبَرْءِ والتصوير والتدبير.

وهو اسم يدل على ما تدل عليه الأسماء الحسنى كلها من جلال وجمال وكمال.

وإذا نظرنا في القرآن الكريم، عرفنا ذلك على وجه اليقين؛ فالقرآن هو الكون المسطور المنبئ عن الكون المستور، والدال بوضوح كامل على أنه جل جلاله هو المنزَّهُ عن المثال في الواقع وفي الخيال.

فقد ورد هذا الاسم المقدس في موضعين من هذا الكتاب العزيز، وله في كل موضع من المعاني ما يوافق سياقه في الآيات السابقة واللاحقة.

يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

ويقول في سورة الأنعام: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

فهو جل شأنه بديع ليس له مثال ــ كما أشرنا ــ ومُبدع للسماوات وما

---

(١) السجدة: ٦ــ ٧. (٢) الآية: ١١٧. (٣) الآية: ١٠١.

فيهن والأرض وما فيها، قد وصف نفسه جل جلاله بأنه القادر على كل شيء، وأنه لا راد لقضائه ولا مُعَقِّبَ لحكمه، وأمره بين الكاف والنون، لا يعجزه شيء ولا يشغله شيء عن شيء.

ووصف نفسه بأنه مُنَزَّهٌ عن الصاحبة والولد، وأنه الخالق لكل شيء، العالم بكل شيء.

ومعنى ذلك: أن هذا الاسم كان في الآيتين هو الأساس الذي بُنِيت عليه هذه الأوصاف، وهو في ذاته وصف مأخوذ من فعلين: بَدَعَ وأَبْدَعَ.

فالأول: يدل على نفي المماثلة من جميع الوجوه.

يقال: بَدُعَ فهو بديع، كقولهم: عَظُمَ فهو عَظِيمٌ.

والثاني: يدل على الخلق والتصوير والتقدير والتدبير.

يقال: أَبْدَعَ الشيء، أي: أتى به على نحو لم يُسْبَق إليه على أتم نظام وأجمل صورة.

وقد ذكرت هذه المعاني اللغوية مبالغة في إيضاح المعنى، فكثيراً ما تكون المعاني العَقَدِيَّةُ وغيرها منطوية فيها، فنُضْطَرُّ إلى إخراجها منها بالرجوع إلى معاجمها.

وإذا أراد المؤمن أن يَتَعَرَّفَ على معاني هذا الاسم أكثر وأكثر، فلينظر إلى ما في هذا الكون من مظاهر الإبداع، مستعيناً في ذلك بأحدث الوسائل التي اكتشفها العلم الحديث، فإنه سيرى في كل ذرة مظهراً من مظاهر هذا الإبداع، بل سيرى في المظهر الواحد نَوَاحٍ كثيرة من الإعجاز العلمي الباهر.

وفي كـل شيء له آيةٌ   تدل على أنـه الواحـدُ

وأعظم عون لك ــ أيها الأخ المسلم ــ على فهم ما تشاهده من الظواهر الكونية ــ هو القرآن الكريم؛ فإنه يفتح لك أولاً باب التأمل والنظر بأسلوب سهل، يخلو تماماً من الغرابة والتعقيد والغموض، ويخاطب عقلك وقلبك معاً؛ لتكون أقدر على تحليل ما ترى من العجائب بعقلك واستيعابها بقلبك؛ فإن العقل

يُحَلّل ويعلل، والقلب يَتَلَقَّى التحليل والتعليل بالقبول، فيستريح له ويطمئن به ويُفيد منه في تحصيل الإيمان وتجديده وازدياده.

ثم يدلك على ما تصحح به تحليلك وتعليلك لما تشاهده وتعرضه على عقلك وقلبك، ويعطيك الحكم الصحيح، بعد أن يعرض عليك مقدماته وحيثيّاته.

ثم يفتح لك بعد ذلك أبواباً أخرى هي من علم الغيب، لا لتبحث فيها، ولكن لتهتدي إلى الإيمان بها عن طريق ما تراه من الظواهر الكونية، التي قمت بتحليلها وتعليلها.

وهذه الغيبيات هي التي لا تخضع للعقل؛ لأنها أبعد عن التصور.

فهل يستطيع المرء أن يعرف ماذا يحدث بعد الموت؟ وكيف يكون حال الناس يوم القيامة؟ وكيف يكون النعيم في الجنة والعذاب في النار؟!

بالطبع لا، ولكن القرآن يُنَبِّئُكَ به ويحملك على الإيمان بهذه الأنباء الغيبية؛ لأن الإيمان بها يعينك على فهم ما في دنياك من المظاهر والظواهر.

وهذا الفهم نفسه يجعلك تؤمن إيماناً كاملاً بأن الله هو البديع في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المبدع للكائنات كلها، وهو الذي سيبدل الأرض غير الأرض، والسماوات كذلك يبدّلها في يوم لا ريب فيه.

في يوم ترى الأرض فيه مشرقة بنور ربها، وترى الجنة ونعيمها، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر في الدنيا.

يومها ترى الإبداع غير الإبداع؛ فتعلم أن المبدع كان ولا يزال مبدعاً، يبهر الخلائق بسحر جمال ما خلق وبرأ وصور.

أدعوك ــ أيها القارئ الكريم مرة أخرى ــ إلى النظر في الآيات الكونية مرة، وفي الآيات القرآنية مرة؛ لترى الإبداع هنا وهناك، ولتعلم أن كل آية قرآنية كون قائم بذاته ــ كون معجز تحدى الله به الإنس والجن فلم يستطع أحد أن يأتي بمثل أقصر آية من آياته ولن يستطيع أبداً.

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا

شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١).

﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٢).

إنك عندما تذكر الله عز وجل بهذا الاسم المقدس ــ تشعر بجلاله يسري في كيانك كله، فتسرح بِخَوَاطِرِكَ نحو الإبداع في نفسك أولاً، فتجد أنك صورة للكون الكبير كله، وكأن العالم بأسره قد انطوى فيك، فيأخذك العجب كل مأخذ من صنع أصغر شيء فيك، فلا يسعك إلا أن تسبح بحمد الذي خلقك فسواك، وهو يعلم متقلبك ومثواك.

هل تعرف مثلاً كيف صنع الله الخلية في ذاتها؟ وكيف أودعها فيك في مكانها، الذي لو زحزحت عنه أدنى زحزحة يتصورها العقل، أو يتوهمها الخيال ما أدت وظيفتها، ولا كانت محل دراسة وإعجاب؟!

وهل تعلم كم خلية فيك على وجه التحديد أو حتى على وجه التقريب؟

إنها تعد بالبلايين، فلا ينتهي عَدُّها إلى حد يمكننا الوقوف عنده.

ولو حاولت أن تعد ما احتواه جسمك من الجينات الوراثية والمواد الفطرية لأعياك عَدُّ كلياتها فضلاً عن عد جُزئياتها وجُزيْئاتها.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٥).

---

(١) البقرة: ٢٣ــ ٢٤.
(٢) الإسراء: ٨٨.
(٣) الذاريات: ٢٠ــ ٢١.
(٤) فصلت: ٥٣.
(٥) الانفطار: ٦-٨.

إن التفكر في خلق الله ساعة خير من عبادة سنة ــ كما جاء في الأثر، وذلك لما فيه من العظة والاعتبار ومعرفة الأسرار والآثار، والوصول إلى المعرفة الإيمانية بالأدلة اليقينية.

ولهذا دعانا الحق جل شأنه في كتابه العزيز إلى النظر الدءوب في الأرض وما فيها، وفي السماء وما فيها؛ لنشهد عن علم وبصيرة بأنه الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وبعد: فهذا ما وسعني أن أكتبه حول معنى هذا الاسم المقدس، وقد كنت أود أن أسبح في بحار معانيه أكثر وأكثر، ولكن رأيت من الخير أن ألتزم الإيجاز وأكتفي بالإشارات الخاطفة، الدالة على رءوس المسائل وأصولها؛ فإن الإيجاز ضرب من الإعجاز البياني، وهو قلة الكلام مع الوفاء بالمعنى، بحيث لا يكون فيه إخلال ولا ملل.

اللهم افتح علينا فتوح العارفين بك، ومَحِّص قلوبنا من الشرك، وطهرها من كل شك وشبهة، واملأها يقيناً يهدينا إلى طلب المزيد من معرفة أسرار أسمائك الحسنى، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام.

"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب".

الباقي "جل جلاله"

كل اسم من أسماء الله الحسنى له نور يعم الوجود كله؛ وذلك لأن الله عز وجل قد وضع أسماءه لتدل على ذاته وصفاته وأفعاله دلالة تقرب للعباد معنى الأحدية ولا تحددها؛ لأن الأحدية كمال، والكمال لا يتناهى، فكل اسم من أسمائه الحسنى شاهد حق بأن الله له على عباده حق يؤدونه إليه بلسان الحال والمقال؛ خوفاً وطمعاً، طوعاً وكرهاً.

هذا الحق هو ما يسمى بالعبودية، فهم عباده قد خلقهم من العدم ورباهم على موائد البر والكرم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وكانوا منذ كانوا شهداء بالحق على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وصفاته وأفعاله، وكانت شهادتهم ولا تزال تسبيحاً بحمده على الدوام في الدنيا والآخرة.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١).

وأسماء الله الحسنى أيضاً لها أسرار جلية يدركها العقل من غير إعمال فكر ولا إنعام نظر، وأسرار خفية لا يدرك شيئاً منها إلا بنور البصيرة، وهو قبس من أنوارها.

فإذا داوم المؤمن على ذكر الله عز وجل باسم منها لاحت له بعض أسراره ففهم من معانيه ما يثبّت الإيمان في قلبه، ويعينه على القيام بواجب العبودية على النحو الذي يحبه ربه ويرضاه.

وهذا الاسم المقدس واحد منها واضح في معناه، لا يحتاج في بيانه إلى قول قائل إلا إذا أردنا أن نعمق الفهم فيه ونعيش في ظله لحظات من الذكر والفكر. ونحن نريد ذلك ونسعى في طلبه جادين مجدّين؛ لعلنا نظفر بشيء من الأسرار التي ينطوي عليها أو يشير إليها بمبناه ومعناه ومرماه.

---

(١) الإسراء: ٤٤.

أما مبناه، فهو لفظه المؤلف من الباء والألف والقاف، وهو من المواد الدالة على الثبات والدوام، فالبقاء ضد الفناء، كما هو معروف.

وأما معناه بالنسبة لله عز وجل، فهو البقاء الأبدي السرمدي الذاتي.

فالباقي جل جلاله: هو الدائم الوجود بذاته لا بسبب ولا بواسطة.

وهذا التعريف يُخرج أهل الجنة؛ فإنهم باقون فيها على الدوام بإرادة الله تعالى وقدرته لا بذواتهم.

ولولا الله ما دخلوها ولا استقروا فيها، ولا تمتعوا بنعيمها.

يقول الله عز وجل عن أهل النار وهم في النار، وعن أهل الجنة وهم في الجنة: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١).

فهذه الآيات تدل على أن أهل النار خالدون مخلدون فيها أبداً ما دامت سماوات الآخرة وأرضها قائمة بمشيئة الرب تعالى، وأن أهل الجنة خالدون فيها مخلدون لا يخرجون منها بمشيئة الرب جل وعلا.

يعني: أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته، بل موكول إلى مشيئته تعالى.

وقد جاء الاستثناء في الآية للتثبيت والتأكد والدلالة على الاستمرار؛ جرياً على عادة العرب في توكيد ما يريدون بقاءه ودوامه على مَرِّ الزمان.

وبهذا الاستثناء يعلمنا الله عز وجل أن نسند كل شيء لمشيئته؛ تأدباً معه جل شأنه؛ وعملاً بقوله سبحانه: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَــدًا﴾ (٢).

وبعد أن عرفنا مبنى هذا الاسم ومعناه آن لنا أن نتعرف على مرماه، وهو

---

(١) هود: ١٠٦ـــ ١٠٨.

(٢) الكهف : ٢٣-٢٤.

المقصود الذي من أجله سمى الله نفسه به فنقول: إن العبد إذا عرف ــ عن يقين ــ أن الله هو الباقي بعد فناء الخلق، وأن بقاءه نابع من ذاته ــ لم يعتمد على أحد سواه في أمره كله، ولم يكن له أمل في شيء من متاع الدنيا؛ لأن متاعها زائل؛ ولأنه تاركها بعد قليل؛ فإن العمر مهما طال فأيامه قصيرة.

إن هذا الاسم المقدس يذكرنا دائماً بقوله جل وعلا: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (١).

والتوكل على الله: هو الاعتماد عليه والثقة بفضله مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

ووصف الحي في الآية بعدم الموت تعريض بمن يموت، وتحريض للنبي ﷺ وسائر المؤمنين على ترك الاعتماد على كل من شأنه أن يموت، والتوكل على الحي الباقي الذي لا يتخلى عن عباده أبداً، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم، فليس من العقل في شيء أن يعتمد المرء على من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يقدر على دفع الموت متى نزل به وهو عاجز كل العجز عن الخروج من قضاء الله وقدره.

وإذا أكثر المؤمن من ذكر الله بهذا الاسم، لم يُؤْثر على حبه حب الدنيا وما فيها من زينة ومتاع، بل يظل مَشُوقاً غاية الشوق إلى النظر في وجه الباقي جل جلاله من غير أن يتخيل مثلاً ولا كيفية يراه بها.

ولعل هذا هو السر في ذكر الوجه في قوله جل وعلا: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٣).

فالتعبير بالوجه عن الذات دليل على بقاء الذات بكل ما لها من صفات،

---

(١) الفرقان : ٥٨ .

(٢) القصص : ٨٨ .

(٣) الرحمن: ٢٦ــ ٢٧.

وفيه ترغيب للمؤمنين في النظر إلى وجهه الكريم في الجنة وفي العمل الذي يحقق لهم ذلك المقصد الأسمى.

والله جل جلاله قد وعد المؤمنين بتحقيق هذا يوم القيامة لمن سلم قلبه من الشرك، وخلا تماماً من حب الدنيا.

فقال جل شـأنه في سـورة القيامة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١).

وهذه الوجوه الناضرة قد نضرها الذكر فاستنارت بنور الحق جل جلاله في الدنيا، فإذا بعث الله الخلق قام هؤلاء الأخيار من قبورهم آمنين، تتلقاهم الملائكة بالبشرى والتحية، كما جاء في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لا يَسْـمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢).

وتلتقي كل أمة برسولها فتنضوي تحت لوائه.

وخير لواء هو لواء محمد ﷺ؛ فهو صاحب المقام المحمود والشفاعة العظمى، وأمته خير الأمم على الإطلاق بنص قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣).

إنهم يبعثون على النور الذي ماتوا عليه، وينتظمون خلف النبي ﷺ صفوفاً بعضها يتبع بعضاً في زفَّة محمدية، ويا لها من زفّة! نسأل الله أن نكون فيها، والنبي ﷺ فرطنا على الحوض، أي: المتقدم علينا والسابق إليه قبلنا.

اقرأ بتدبر وتشوق قول الله تبارك وتعالى في وصف هذه الزفَّة المحمدية من سورة التحريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ

---

(١) الآيات: ٢٢ـــ ٢٣.

(٢) الأنبياء: ١٠٢-١٠٣.

(٣) آل عمران: ١١٠.

النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

اللهم، يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام، ويا ذا الطول والإنعام ـ تب علينا توبة نصوحاً تكفر بها عنا سيئاتنا وتدخلنا بها جنات تجري من تحتها الأنهار، وتحشرنا مع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وتجمعنا عليه في الفردوس الأعلى، وتمتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم، يا حي يا قيوم، إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الآية: ٨.

الوارث "جل جلاله"

إذا ذكر المؤمن ربه عز وجل بهذا الاسم، تَخَفَّفَ من أوزاره، وتَخَلَّصَ من شهواته الجامحة ونزواته الطائشة، وقل اكتراثه بمتاع الدنيا وزينتها، واتجه بقلبه إلى خالقه ومولاه ــ يسأله بخشوع وخضوع وضراعة أن يجعل له في الجنة ميراثاً، ينعم به كيف شاء في ظل رحمته؛ وذلك لأن الاسم المقدس يوحي للذاكرين من خلال معناه اللائق به ــ بأن كل وارث لابد أن يُورَثَ إلا هو جل شأنه؛ فهو الحي الباقي بذاته وصفاته وأفعاله.

وما دام الأمر كذلك فلماذا يتطلع المرء إلى ما قد يرثه من مُوَرِّثِهِ، وهو ظل زائل، وعارية مستردة، ومتاع قليل في عمر مهما طال فأيامه قصيرة، ولا يخفى ما وراء هذا الميراث ــ لو تحقق له ــ من تبعات لا يدري هل يستطيع التَّخَلُّصَ منها أم لا ؟! ثم إنه لا يدري هل سيظل حتى يحرز ما يُؤَمِّلُهُ أم لا؟ وهل أخذ عند الله عهداً أن يموت مُوَرِّثه قبله؟! كل ذلك في علم الله.

وإذا عقد المؤمن موازنة بين ميراث الدنيا وميراث الآخرة; وجد أن ميراث الدنيا قد يكون فتنة له ووبالاً عليه، وقد يكون خيراً له. ولكن هل يغنيه هذا الميراث مهما كَثُرَ رِفْدُهُ وعُظمت منفعته عن عشر معشار ساعة يقضيها في ذكر الله، ينال به رضاه ويفوز به فوزاً عظيماً في جنة عرضها السماوات والأرض؟

ولكي تهون عليك ــ أيها الأخ المؤمن ــ أمر الدنيا وتعمق رغبتك في الدار الآخرة، فاقرأ دائماً قول الله جل وعلا: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١).

---

(١) الزمر: ٧٣ــ ٧٤.

والذين اتقوا ربهم هم الذين جعلوا لأنفسهم وقاية من عذاب الله تعالى: باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

وهؤلاء يساقون إلى الجنة سَوْقاً حميداً، تَحُفُّهُمْ ملائكة الرحمن من كل جانب في موكب فريد مهيب، يتقدم كلَّ أمة رسولُها، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب، يقولون سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

إنهم وفود الرحمن، يتجلى عليهم ربهم بجلاله وجماله، فينسون عند رؤيته نعيم الجنة.

تَتَبَّعْ — أيها الأخ المؤمن — كيفية هذا السَّوْقِ من خلال آيات القرآن الكريم؛ لتعرف من أين يبدأ وإلى أين ينتهي.

إنه يبدأ قبل الموت بقليل، وينتهي بوصول كل مؤمن إلى مُقَامه في الجنة.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١).

أي: تتنزل عليهم الملائكة بهذه البشرى في حال الموت تتبعها بشرى أخرى عند فراقهم الدنيا.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (٢).

فبمجرد خروج روح المؤمن تنتظم مع الأرواح الطاهرة، التي قضى عليها الله الموت؛ فتسعد بصحبتها أَيَّمَا سعادة.

وهذا النداء يتكرر — أيضاً — عند البعث، فيقومون من قبورهم إلى رب العالمين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فتتلقاهم الملائكة بالتهاني والتحية.

اقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا

---

(١) فصلت : ٣٠-٣٢.
(٢) الفجر : ٢٧-٣٠.

مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١).

نعم، إنه يومهم الذي يجزون فيه الجزاء الأوفى على ما قدّموه لأنفسهم من برٍّ وعمل صالح، فتكون الجنة لهم ميراثاً أبديًّا؛ فضلاً من ربهم ورحمة.

وقد ذكرنا عند الحديث عن اسمه الباقي أن أهل الجنة باقون فيها خالدون مُخَلَّدُون، لكن بقاءهم ليس ذاتياً كبقاء الله عز وجل، فتدبر ذلك وَعُد إلى ما ذكرناه هناك وأضفه إلى ما ذكرناه هنا.

واعلم أن لكل اسم من أسماء الله الحسنى نور وسر وظل.

ونور كل اسم لا يشرق إلا في قلب من أكثر من ذكر الله به.

وأنوار الله في قلب عبده المؤمن تتنوع، ولكنها تأتلف ولا تختلف، وهي تُعْرَفُ ولا توصف، وهي تكشِفُ ولا تنكشف.

وسر كل اسم لا يعرف المؤمن ذرة منه إلا بقدر النور الذي منحه الله له.

ومن كشف الله له ذرة من معرفته في اسم من أسمائه، فقد فاز بنعيم يعدل نعيم الجنة.

قال رجل من كبار العارفين لله : عجبت لقوم خرجوا من الدنيا ولم يستمتعوا بنعيمها!! ، قالوا: أوفي الدنيا نعيم يا رجل؟!

قال: نعم، إن فيها نعيماً يعدل نعيم الجنة. قالوا: وما هو؟

قال: ذكر الله. ومن ذاق عرف.

وظل كل اسم من أسمائه جل وعلا يعيش تحته وفي كنفه ـــ من آمن به واتَّبَعَ هداه، وأخلص له الدين في سرِّه وعلانيته، وداوم على ذكره في ليله ونهاره.

ومن كان كذلك لم ينظر إلى متاع الدنيا، بل ولا إلى نعيم الجنة، ولكنه ينظر إلى خالقه ومولاه، ويجعل منتهى بغيته في رضاه، ويرجو من أعماق قلبه

---

(١) الأنبياء: ١٠١ـــ ١٠٣.

أن يراه؛ لعلمه أن النعيم كل النعيم في النظر إلى وجهه الكريم، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

والعباد ثلاثة، كما يقول أبو العباس المرسي: عبد عبادة، وعبد عبودية، وعبد عبودة.

أما عبد العبادة، فهو الذي يرجو الثواب على كل عمل صالح يقدمه لنفسه.

وأما عبد العبودية، فهو منسوب إلى العبودة، لكنه لم يصل إليها بعد، ومن صفاته أنه يقوم بوظائف العبودية دون مكاشفة لحقائقها.

وأما عبد العبودة، فهو الذي عَرَفَ فلزم والتزم، فكان عبداً ربانياً لا يعينه إلا أن يكون في رضا خالقه ومولاه ولو أدخله النار. ولكل عبد مقام أقامه الله فيه.

وأهل المقام الثالث: هم الأنبياء والمرسلون والصديقون، وهؤلاء هم الذين يعرفون الله بهذا الاسم المقدس، ويعيشون في ظله، ويضرعون إليه به.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢).

وهو تضرع يفيض بالرجاء الخاشع، وسؤال ينطق بالحكمة، ودعاءٌ يصدر من الأعماق لصلاح الدين والرعية، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة مريم حكاية عنه: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (٣). فهو عليه السلام لم يطلب الولد ليمتِّعَ به نفسه، ولكن ليكون خليفة له من بعده على قومه، يرثه في العلم والعمل.

وهكذا يكون حال من هو في هذه الدرجة العليا من العبودة.

---

(١) التوبة: ٧٢.　　(٢) الأنبياء: ٨٩.　　(٣) الآيات: ٢ ـــ ٦.

وقوله: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ خاتمة للدعاء مؤكدة لمضمونه، شاهدة لله بالبقاء الأبدي السرمدي، فهو الوارث المطلق وليس هناك وارث سواه.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1].

وقوله جل وعلا: ﴿ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ فيه لطيفة بيانية؛ لأن "مَنْ" تطلق في لغة العرب غالباً على من يعقل، فدل هذا التعبير على أن الله عز وجل يرث العباد وما ملكته أيديهم، فتدبر ذلك ولا تكن من الغافلين.

وبعد ، فإن على المؤمن أن يجعل الآخرة منتهى أمله، ويجعل الدنيا مزرعة لها، فعمره هو رأس ماله، فإن ضَيَّعَهُ في السعي لجمع حطامها فقد أهلك نفسه وَخَيَّبَ سعيه.

ومن جعل الدنيا مبلغ همّه شتت الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له.

ومن جعل الآخرة مبلغ همّه جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة.

"اللهم، هب لنا من لدنك علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وإيماناً كاملاً، وعفواً شاملاً، واجعلنا خير مُوَرِّثٍ لخير وارث منا، وأنت خير الوارثين.

اللهم، اجعلنا من ورثة جَنَّةِ النعيم، ومتِّعْنَا بالنظر إلى وجهك الكريم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين".

---

(١) مريم: ٤٠.

الرشيد "جل جلاله"

الرُّشْدُ غاية لا تدرك إلا بمجاهدة النفس ومخالفة الهوى واتباع سبيل من أناب إلى الله وأخلص له النية في القول والعمل؛ فهو الرشيد المرشد إلى ذلك بحكمته العليّة وبتدبيره المُحْكَم.

وهذا الاسم المقدس يشير بلفظه إلى معنيين متلازمين: الأول من صفات ذاته، والثاني من صفات أفعاله.

فهو جل وعلا رشيد. أي: بالغ الرشد في جميع أفعاله، وفق علمه المحيط وحكمته البالغة، وإرادته النافذة وقدرته التامة، وعدله الذي قامت به السماوات والأرض، ورحمته الواسعة وفضله العظيم.

وهو عز شأنه مُرْشِدٌ للخلْق جميعاً، بما أودع فيهم من الفهم والإلهام.

أما الإنس والجن فقد أرشدهم بالفطرة إلى تدبير معاشهم بقدر طاقتهم، وهو معهم بعلمه وتوفيقه، وأرشدهم إلى وظيفتهم التي خلقوا لها، وهي إفراده بالعبادة عن طريق الأنبياء والرسل، وزودهم بالعقل؛ ليميزوا به الخبيث من الطيب، وأمدهم بالعلم الضروري، الذي يحفظون به أنفسهم وأموالهم من الهلاك والتلف، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة، ودلَّهُم على مواطن الخير ليسلكوها ومواطن الشر ليتنحوا عنها.

وأما الحيوان والحشرات وغيرها فقد ألهمها رشدها، فهي تؤدي وظائفها بطرق تناسبها، وهي طرق غاية في العجب. فهذه أمة النحل، لو درسنا حركاتها في سيرها وطلبها لأقواتها، وتنظيمها لخلاياها وتوزيعها لوظائفها ــ لهالنا ذلك.

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

---

(١) النحل: ٦٨ــ ٦٩.

وأمة النمل لَهَا في العلم حديث طويل، وأمرها عجب في تعاونها وجمعها لأقواتها من غير يأس ولا ملل، وغير ذلك من الأعمال التي تقوم بها، بإلهام من الرشيد جل شأنه.

تدبر قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (١).

وهكذا الشأن في كل ما يدبُّ على الأرض؛ فإنه لا يتحرك شيء منها حركة إلا بأمره وإلهامه.

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢).

والمماثلة بين الناس والدواب ليست من كل وجه؛ فهي أمثالهم في التسبيح والتقديس والتحميد.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤).

وهي أيضاً أمثالنا في تدبير شئونها وتحصيل أرزاقها وحفظ أنواعها، وغير ذلك من الأفعال التي تُشْبِهُ أفعالنا من قريب أو من بعيد.

وأما ما سوى الإنسان والحيوان من نباتات وجمادات أرضية وأجرام سماوية، فهي تسير بتدبير الحكيم الخبير، في نظام بديع وفق ميزان دقيق مُحْكم، لا يعتريه تفاوت ولا خلل.

---

(١) النمل: ١٧ ـــ ١٨.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) الإسراء: ٤٤.

(٤) النور: ٤١.

وقد سمى الله نفسه الرشيد؛ ليستمد الخلق منه الرُشْدَ لا من سواه؛ إذ من طلب الرشد من سواه وقع لا محالة في الغواية والضلالة.

وقد بَيَّنَ الله للناس طرق الهدى، ووضع الفروق الدقيقة بين الرشد والغي، وحَدَّ حدوداً يُعْرَف بها الحلال من الحرام، وأعطاهم العقل والإرادة والاختيار.

قال جل شأنه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

والمؤمنون يطلبون الرشد من الله دائماً، ولا يعتمدون في تحقيقه على أنفسهم؛ لعلمهم أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فيضرعون إليه بخشوع وخضوع وتمسكن وتواضع أن يلهمهم الرشد في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم كلها.

فها هم أهل الكهف: فتية آمنوا بربهم، فزادهم الله إيماناً وهدى، يقص الله علينا خبرهم، وهم يخرجون من أرض الفتن فراراً بدينهم فيقول: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٢).

وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام ألا يقطع أمراً ولا يَعِدُ بشيء ــ إلا إذا أسند ذلك إلى مشيئة ربه، وأن يستعين به في تحقيق ذلك، فقال جل وعلا: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ (٣).

ونحن نعلم أن الرشد كل الرشد في الإيمان بالله والخضوع إليه بالدعاء والعمل الصالح.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٤).

واعلم ــ أيها الأخ المسلم ــ أن الله عز وجل جعل العقل رائداً لصاحبه،

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) الكهف: ١٠.

(٣) الكهف: ٢٣ــ ٢٤.

(٤) البقرة : ١٨٦.

يقوده دائماً إلى الهدى إن طلبه من ربه عز وجل؛ فهو وسيلة من وسائل تحصيله، إلا أنه أحياناً قد يخطئ الهدف ويضل الطريق، ويبتعد بذلك عن ساحة الرحمن عز وجل، فلا يكون مُوَفَّقاً إلى ما ينفعه في دينه ودنياه، ولا يستطيع أن يُمَيِّزَ بين الهدى والرشاد، بل ربما يظن الغَيَّ رشاداً والرشاد غَيّاً؛ وذلك لأنه اتخذ إلهه هواه.

كمثل فرعون لعنه الله، إذ قال لقومه كما حكى القرآن عنه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (١).

فقد كان على النقيض تماماً من الرجل المؤمن، الذي دعا قومه إلى الهدى، وهو يكتم إيمانه.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢).

وكان مع كل واحد عقله، فمن استعمله عرف الغي من الرشاد، ومن لم يستعمله وحَكَّمَ هواه، اختلط عليه الأمر، فكان إلى الغي أقرب وبه ألصق. نسأل الله السلامة والعافية.

ونحن في ظل هذا الاسم المقدس نسعى إلى الرُشْدِ جادين مُجدِّين، فنطلبه أولاً وآخراً من الرشيد جل شأنه، مستعينين في طلبه بالدعاء، وفي تحقيقه بالعمل الصالح؛ فإن الدعاء لا يُرفع إلا بالعمل المتمثل في الإيمان والطاعة، كما عرفنا من قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

والاستجابة لله تعالى إنما تكون بالكف عن المعاصي وبالتوبة النصوح، والإيمان به ينبغي أن يتجدد دائماً بكثرة الذكر والفكر، ومراقبة النفس وكبح جماحها عن الشهوات الفانية والنزوات الطائشة؛ فإن التوفيق نعمة من أعظم النعم لا تتأتى إلا بذلك.

قال الله عز وجل حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣).

---

(١) غافر: ٢٩. (٢) غافر: ٣٨. (٣) هود: ٨٨.

ويقول عز شأنه في سورة الكهف: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (١).

والقرآن الكريم هو الكتاب الذي يُخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، ويدعو إلى الرشد، ويُزيل من طريقه كل ما يعوق الطالب له عن تحقيقه.

يقول الله عز وجل: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

ويقول عز من قائل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٤).

فمن أراد الهدى فعليه بتلاوته وترتيله وتدبر معانيه بقدر طاقته، فإن غمض عليه فهم معنى، فليسأل عنه أهل الذكر دون استحياء؛ فإن العلم أبواب مُقفلَةٌ، مفاتيحها الأسئلة. والله نسأل أن يلهمنا رشدنا في أقوالنا وأفعالنا، ويزكي نفوسنا بالخلق الفاضل والسلوك النبيل، ويطهر قلوبنا من الغل والحسد والكبر والرياء والغرور، ويملأها أمناً وإيماناً؛ إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) من الآية: ١٧.

(٢) المائدة: ١٥ ــ ١٦.

(٣) النحل: ٨٩.

(٤) الجن: ١ ــ ٢.

الصبور "جل جلاله"

إذا ذكر المؤمن ربه عز وجل باسمه الصبور وهو يعلم معناه اللائق به ــ شعر بالخوف من عقوبته والطمع في رحمته، ووقف مع نفسه يعاتبها تارة على سوء صنيعها مع ربها تبارك وتعالى ومقابلة إحسانه بالجحود والنكران، وتارة يُغْرِيها بالأماني الزائفة في النجاة من عذابه العظيم بحلمه وعفوه وسعة رحمته.

وهو في هذا وذاك يتقلب بين أمرين لا يدري أيهما أقرب له نفعاً، وأيهما أعظم ضراً.

الأمر الأول: الخوف الزائد من التمادي في ظلمه لنفسه بكثرة المعاصي أن يعاجله الله بالعقوبة في الدنيا أو يؤجلها إلى يوم عبوس قمطرير.

وذلك لعلمه أن الله يمهل ولا يهمل، ويعطي عبده الوقت الكافي للتوبة النصوح والإقلاع عن المعاصي: كبيرها وصغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وتلك سنة الله في خلقه ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ وهي سنة مبنية على الحكمة والعدل والرحمة، ورعاية مصالح العباد في العاجل والآجل. وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ (١).

والظالم أحد رجلين : إما أن يكون عاقلاً بعيد النظر، يأخذ العبرة ممن سبقه من الأمم الظالمة فينظر كيف أخذها الله بظلمها أخذ عزيز مقتدر؛ فيرعوي عن غيه قبل أن ينزل به عذاب الله. وإما أن يكون سفيهاً أحمق ليس له قلب حي ولا أذن واعية، فيظل في الضلالة حتى يصبّحه العذاب أو يمسّيه.

---

(١) مريم: ٧٥ــ ٧٦.

الأمر الثاني: الطمع الزائد عن حده في رحمة ربه من غير عمل يقربه منها، والحال أنه يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

ويقرأ قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٢).

ويقرأ قوله عز شأنه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٣). أي: وما ربك بمنسوب إلى الظلم أبداً لأي عبد من عبيده حتى ولو كان ظالماً لنفسه.

والخوف وحده أو الطمع وحده لا ينجّي صاحبه من عذاب الله عز وجل؛ بل هما معاً كجناحي طائر لا غنى له عن أحدهما.

فالخوف من الله عز وجل يزجر المرء عن غيه ويكفكف من غروره، ويدفعه إلى مراجعة نفسه ومراقبتها في أحوالها كلها ومحاسبتها على الكبيرة والصغيرة؛ حماية لها من الوقوع في سوء المصير.

والطمع في رحمة الله تعالى يدفع عن المرء شبح اليأس من روح الله والقنوط من رحمته، ويحفزه إلى العمل الصالح الذي يقربه من ربه، ويجعله دائماً ضارعاً إليه بطلب العفو والمغفرة والنجاة من عذاب الدنيا والآخرة.

فبالخوف والرجاء يعتدل الميزان ويسلم القلب ويصح الاعتقاد.

عليك بتقوى الله والخوف والرجا   وصبرٍ على الطاعات تظفرُ بالمنى

وقد قال الراسخون في العلم: ينبغي على العبد أن يغلّب جانب الخوف على جانب الرجاء ما دام سليماً معافىً، فإذا أحس بدنو أجله غلّب جانب الرجاء على جانب الخوف؛ تعبيراً عن حسن ظنه بربه وثقته بعظيم فضله وسعة رحمته.

والنجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة متوقفة على العمل الصالح، وهو يقوم على خشية الله تعالى، وخشيته هي الخوف منه والطمع في ثوابه.

---

(١) الأعراف: ٥٦.   (٢) الحجر: ٤٩.   (٣) فصلت: ٤٦.

ترجو النجـــاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَهَا إن السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

وبعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء، نريد أن نعرف معنى هذا الاسم المقدس على ضوء ما جاء في اللغة أولاً ثم على ضوء ما نراه لائقاً بذاته تعالى فنقول: الصبور من الناس: هو الذي يحبس نفسه عن الجزع ويحول بينها وبين اليأس والقنوط بقدر طاقته البشرية ويرضى بقضاء الله وقدره، ويشكره في البأساء والضراء. فدائرة الصبر تتسع لهذا كله؛ لذا كان نصف الإيمان، ومن هنا قسم العلماء الصبر ثلاثة أقسام: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على المصائب.

وجزاء الصابرين معروف، دلت عليه نصوص القرآن والسنة.

منها قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١).

أي: أولئك عليهم نفحات وبركات وتحيات من ربهم ورحمة واسعة في الدنيا والآخرة، وأولئك هم المهتدون إلى ما يريح نفوسهم ويحقق رجاءهم ويعصمهم من كل ما يخشونه على أنفسهم.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

ويكفي الصابرين فخراً أن الله عز وجل قال فيهم: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣).

وأما المعنى اللائق بالله في هذا الاسم المقدس فهو أن يقال: إن الصبور هو الذي لا يعاجل عباده بالعقوبة ولا يبادرهم بالانتقام مع استحقاقهم لذلك؛ رحمة بهم، وإحساناً إليهم وتفضلاً عليهم.

---

(١) البقرة: ١٥٥ـــ ١٥٧. (٢) التغابن: ١١. (٣) الزمر: ١٠.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١).

ويقول عز من قائل: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ (٢).

وهناك معنى آخر لا ينفك عن المعنى الأول ولا يجافيه، وهو أن يقال: إن الصبور: هو الذي يلهم عباده الصبر على المكاره والصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي، ويمدهم بقوة معنوية ومادية تعينهم على ذلك.

فالصبور بهذا المعنى هو المصبِّر.

ويقول الإمام الغزالي في معنى الصبور: هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود، لا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها تأخيرَ متكاسل، ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يضع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون كما ينبغي، وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة"

وعلى المسلم أن يتحلى بالصبر ويتأدب بأدبه مع الله ومع الناس، فلا يعترض على شيء قدره الله عليه بلسان الحال ولا بلسان المقال، فالرضا بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم إلا به، ومن صبر على قضاء الله تعالى، لم يشكه لأحد من خلقه؛ فالشكوى تنافي الصبر والرضا، وتخرج بالشاكي عن حد الأدب مع خالقه ومولاه.

لا تشكوَنَّ لغيــر ربكَ علةً   فهو العليمُ وغيــره لا يعلمُ
فإذا شكوتَ لغير ربك إنما   تشكو رحيماً للذي لا يرحمُ

(١) النحل: ٦١.   (٢) الكهف: ٥٨ــ ٥٩.

والناس فمنهم التقي ومنهم الشقي، ومنهم العاقل ومنهم السفيه، فلابد للمسلم أن يقابل الإحسان بالإحسان، وأن يقابل الإساءة بالعفو والصفح والمغفرة. وهذا من قبيل الإحسان الأسمى.

قال علي رضي الله عنه: أحسن لمن أساء إليك تكن أعبد الناس.

وما أحسن ما روي عن حاتم الأصم رضي الله عنه حين قدم على الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقال: يا حاتم، أخبرني كيف أسالم الناس؟ فقال: سالمهم بثلاثة أمور: تعطيهم من مالك ولا تأخذ من أموالهم، وتقضي حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك عليهم، وتصبر على أذاهم ولا تؤذيهم.

قال الإمام أحمد: إن هذا لشديد. قال حاتم: وليتك تسلم.

وهذا صحيح؛ فإن الناس لا يعجبهم العجب كما يقولون.

والناس أصناف إذا ما أنت ذقتهمو ... لا يستوون كما لا يستوي الثمرُ

وبعد ، فإن التحلي بالصبر عزمة من عزمات ربنا عز وجل، لا ينالها إلا من اعتصم به، وبذل أقصى الجهد في ابتغاء مرضاته، فليكن لنا فيمن صبر وغفر ورضي وشكر ـ أسوة حسنة حتى نحشر معهم ونوفى أجورنا مثلهم بغير حساب.

ولنضرع إلى الله تبارك وتعالى أن يثبت قلوبنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وأن يلهمنا الرشد والسداد في أقوالنا وأفعالنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

هذا ما أفاضه الله عليَّ ــ وهو أكرم الأكرمين ــ من علم وفهم في أسمائه الحسنى، قد كتبته بمداد من روحي؛ ليكون غذاءً لها ولكل روح مؤمنة تحب ربها عز وجل.

وقد بذلت جهدي في تحري الصواب من القول، والتزمت الأدب مع خالقي ومولاي بقدر طاقتي البشرية، واستعنت به جل شأنه في فهم ما قرأت، وإيضاح ما كتبت، فجاء هذا الكتاب على النحو الذي شاء الله وقدَّر، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

ولله العتبى مني حتى يرضى، فما كان لمثلي أن يكتب في أسمائه الحسنى وهو قصير الباع في العلم والفهم والعمل الصالح.

ولولا إشراقة من نور دفعتني دفعاً قوياً إلى أن أسبح في بحارها، ما سبحت، ولله في خلقه شئون يبديها ولا يبتديها.

وأرجو أن تكون سبحاتي هذه خيراً لي في دنياي وآخرتي، فيجعلها ربي بداية الفرار إليه، وخطوة على الطريق إلى حضرة قدسه، وساحة قربه، ونيل وده وحبه.

﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

الفهرس